

مكتبة جامعة الأردن  
337-81  
رقم  
تاريخ

٦١٧  
١١٢

مكتبة

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة ماجستير

مقدمة الى الجامعة الأردنية

كلية الآداب

قسم اللغة العربية

جزء مكمل

قسم اللغة العربية

لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

العنوان : القدس في شعر الحروب الصليبية

المطالع : ناجي عبد الجبار محمود عبد الجابر

الأستاذ المشرف : الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة

تموز ١٩٧٨ ميلادية

الموافق شعبان ١٣٩٨ هجرية

د. هادي الحارثي

بسم الله الرحمن الرحيم

## تمهيد

ميدان الدراسة ما نظم من شعر حول "القدس" والأحداث التي جرت عند احتلالها والتي أدت إلى تحريرها، والأبطال الذين جاهدوا في سبيلها ضد الأعداء المحتلين، وبالتحديد ابتداءً من الحملة الصليبية الأولى سنة تسعين وأربعمئة للهجرة والتي نتج عنها احتلال "القدس" سنة اثنتين وتسعين وأربعمئة للهجرة، وانتهاءً بعهد الأيوبيين سنة ثمان وأربعين وستمئة للهجرة. وتخلل هذه الفترة كلهما مرحلة الكفاح الدامي التي توجت بتحرير "القدس" سنة ثلاث وثمانين وخمسائة للهجرة، وبعقبها فترة ثلوث فيها مشاعر المسلمين بين حزن وسرور. إذ كانت وفاة البطل صلاح الدين سنة تسع وثمانين وخمسائة للهجرة، وعلمية تخريب أبراج "القدس" وأسوارها سنة ست عشرة وستمئة للهجرة، وتسليم "القدس" للصليبيين سنة ست وعشرين وستمئة هجرية. ورغم فرحة المسلمين بتحريرها من جديد سنة سبع وثلاثين وستمئة، إلا أن تسليمها من جديد كان سنة إحدى وأربعين وستمئة، ثم حررت نهائياً سنة اثنتين وأربعين وستمئة للهجرة.

ولعله واضح أن تحرير الرمان ليس عشوائياً. ففي المرحلة الأولى حيث وقعت الكارثة، كانت السنة الشعراء صدى للمصيبة العظيمة. فتألموا وبكوا، وصرخوا واستنجدوا، وحددوا طبيعة الصراع، وحشوا وحرصوا لتحرير الديار المقدسة. وخلال فترة الصراع الدامي كان الشعراء يثيرون الحماس في النفوس، ويمجدون القوة والوحدة الإسلامية، ويشيدون بالأبطال ويحققون من شأن الأعداء المحتلين.

وعندما تم تحرير "القدس"، انطلق الشعراء مهنئين ومبشرين، واصفين القتال وأدواته، وشتخريين بالنصر وبيطله، ومهزئين بالأعداء وانهمزاهم.

وكانت مشاعر الشعراء في المرحلة الأخيرة بين مد وجزء، فمن الحزن والبكاء على الناصر وعلى ما حل "بالقدس" من بعده، إلى الفرح بين الفينة وأخرى عندما كانت تحرر المدينة من جديد.

إن هذا التحديد للموضوع ولأبعاده الزمانية، كانت له دوافع وأهداف، فموضوع "القدس" حديث الساعة، وما أشبه الليلة بالبارحة. فاليهود المسيطرون على مقدساتنا، قدموا من أنحاء العالم وشمارهم النجمة، وهدفهم أرض الميعاد. فسجنوا وقتلوا وارتكبوا أبشع الجرائم في سبيل تحقيق أهدافهم. وكانت النتيجة تشريد شعبنا من أرضه ومقدساته.

والصليبيون في أواخر القرن الخامس الهجري ، قدموا من أنحاء العالم  
وشعارهم الصليب ، بحجة حماية المقدسات وفتح الطريق أمام الحجاج . فقتلوا  
ودمروا ، وارتكبوا فظائع تتنافى مع كل الشرائع السماوية والقوانين البشرية .  
فتشابه الظروف والأحوال في الاعتداءين ، والاتفاق في المنطلقات  
والممارسات ، وانطلاقاً من قضايانا المعاصرة كانت هذه الدراسة .

ويلاحظ دارس الأدب العربي ، أن فترة الحروب الصليبية لم تحظ من  
العناية بأدبها كما حظيت الفترات الأخرى . فمؤرخو الأدب العربي يكتفون  
بنعت أدبها بالجمود والانحطاط ، دون أن يلقوا وقفات متأنية عند انتاجها ،  
اللهم الا بعض الدراسات الحديثة ، إذ لاحظ أصحابها هذا التقصير ، أمثال  
الأستاذين محمد كامل حسين ومحمود ابراهيم .

ونتيجة لهذا الموقف العام من الأدب ، فان مثقفينا لا يكادون يعرفون  
شيئاً عن شعر هذه الفترة . فيحفظون أشعاراً كثيرة تعود الى عصور مختلفة ،  
مع أن قصائد الحروب الصليبية مرتبطة بأحداث لها أهميتها في حياة الأمة  
الإسلامية .

فاطلاع مثقفينا على شعر هذه الفترة البطولية ، ومحاولة الأضافة الى  
مكتبة الأدب العربي بدراسة لشعر فترة وسمت بالجمود ، من أهداف هذه الدراسة .

يضاف اليها ، محاولة التعرف على موقف الشعراء من ذلك الصراع  
الدائم ، والموقع الذي اتخذوه أمام المحتلين ، وقد رتهم على اثاره الحماس في  
النفوس ، وشد المسلمين الى قضية أمتهم . ونصل بذلك الى معرفة واجب الشاعر  
الملتزم اليوم ، والمبدأ الذي يجب أن يلتزمه ، والمنطلق الذي ينطلق منه بشكل  
عام .

كما أن محاولة تحديد طبيعة الصراع الذي كان دائراً ، والوسائل  
التي اتخذتها الأمة لتطهير الديار ، من أهداف هذه الدراسة . وذلك ليذكر  
الإنسان العربي ، الذي يعيش مرحلة مماثلة حقيقة الواجب الملقى على عاتقه ،  
والمنهج الفكري والعملية الذي يمكنه مجابهة الأعداء ، وتجاوز الأخطار بأمان .

فموضوعنا هذا لن يؤدي بنا الى الأختناق في البيوت القديمة ، أو الى  
معالجة قضايا لا تهم الإنسان المعاصر من قريب أو بعيد . لأن منهجنا يقيم  
على أساس الأنطلاق من الحاضر ، وذلك بأن نضع القضايا التي تثيرها النصوص  
الشعرية في مسار الضوء ، ونكشف أبعادها ، ونرسم على ضوءها خططنا لنصل  
أهدافنا .

ولتحقيق ما سبق ، قمت بجمع ما استطعت من شعر حول موضوعنا ، وأثبت كل مقطوعة أو قصيدة في موقعها من الدراسة . وحاولت الانتفاع بالقضايا التي تثيرها الأشعار . ولم أخرجهمدا في رد هذه الأشعار الى مصادرهما ، أو في معرفة آراء الدارسين فيها ، ومناقشتها واتخاذ موقف منها . وحاولت جاهداً الأبتعاد عن الأحكام المسبقة والتعميمية ، لتكون الآراء نابعة من الأشعار لا مفرغة عليها . وقمت في كل ذلك بشرح موجز عن أعلام الشعراء والمواقع الجغرافية التي كانت ترد في الدراسة .

فاشتملت الدراسة على مقدمة وستة فصول وخاتمة وأربعة فهارس . تناولت المقدمة القضايا المتعلقة بالقدس من الناحية التاريخية ، وبخاصة ما يتعلق بأسمائها ودلالات هذه الأسماء ، ووضعها في العصور القديمة ، وفي ظل الخلافة الإسلامية ، ثم الاحتلال الصليبي للمدينة المقدسة .

وحاولنا في الفصل الأول أن نتعرف على الأوضاع العامة لبلاد الشام في فترة الحروب الصليبية ، وذلك فيما يخص الأحداث الكبرى ، وبعض المظاهر الاجتماعية ، والحالتين الاقتصادية والثقافية . إذ أن هذه الجوانب تضع القارئ في الصورة ، للتعرف على الظروف الكلية التي مرت بها المنطقة . ومعروف أن كل هذه الأمور تؤثر تأثيراً كبيراً على الشعر . لكن تناولنا لها كان بشكل موجز ، فلم تكن الغاية التفصيل في كل جزئياتها .

وكان الفصل الثاني محاولة للكشف عن طبيعة الصراع الدائر ، وذلك باستنطاق الشعر والانتفاع بما سجله بعض المؤرخين . وحاولنا أيضاً تحديد الدور الوظيفي الذي أداه الشعر في المرحلة الأولى من الكفاح الدامي ، وذلك من تجسيد للقوة ودعوة الى الوحدة الإسلامية ، وإشادة بالجاهدين واستمزازاً بالصليبيين ، واستشارة للهمم من أجل تحرير الديار المقدسة . وقد تتبعنا بذلك صدى كل نصر وفتح في الشعر ، مبينين عن موقع الشعراء وموقفهم من الصراع الدائر ، باعتبارهم الناطقين باسم الأمة ، والمعبرين عن همومها وتطلعاتها .

وتحرير القدس بعد اتخاذ كافة أسباب النصر ، كان الفصل الثالث استقراء لصدى التحرير في الشعر ، وتحليلاً للموضوعات التي توحد شعراء القدس في تناولها بعد التحرير . فمن البشائر والتباني بالتحرير ، الى وصف القتال وأدواته ، وتمجيد البطل " صلاح الدين " والتحقير من شأن المنهزمين ، بكل ما يستطيعونه من وسائل المفاخرة والأعجاب بقوة المسلمين ، وطرق السخرية والتعريض بالمنهزمين وما يرتبط بهم .

الا أن مشاعر البهجة هذه لم تدم طويلاً ، إذ تلتها فترة تلونت فيها المشاعر بين الحزن والسرور . فكان الفصل الرابع كاشفاً لهذه المشاعر ، ومصوراً ردود فعل الأمة الإسلامية في المواقف العصيبة . ومن ذلك الأشعار التي نظمت

في رثاء " صلاح الدين " ، وعبرت في مواقف عديدة عن مشاعر الأمة بافتقادها البطل ، وبحاجتها الى من يعيد تنظيم صفوفها ، ويدرك خطراً الاحتلال الذي كان يهددها باستمرار . ومن هذا القبيل أيضاً الأشعار التي قيلت في رثاء " القدس " ، وذلك بعد خراب أسوارها وأبراجها ، ثم تسليمها مرتين للصليبيين . ورغم أن هنالك أشعاراً قيلت عن مشاعر الأمة المبتهجة بتجريد القدس ، وبخاصة سنة اثنتين وأربعين وستائة ، إلا أن سيطرة المشاعر الأولى وكثرة الأشعار التي تعبر عنهن جعلتنا نغلب مشاعر افتقاد البطل ورثاء المدينة المقدسة على الأحاسيس الأخرى .

وكان للشعر قيمة أخرى بالإضافة الى ما أبتناه ، وهي من الناحية التاريخية . فتحدثنا في الفصل الخامس عن قيمته الوثائقية ، ومدى انتفاعنا بالقدسيات الشعرية كمرجع للأحداث التاريخية في تحديد زمانها ومكانها وجغرافيا . ثم في متابعتها الأحداث وتسجيلها . وكل ذلك من خلال النصوص الشعرية المستقرة .

وبالنسبة الى ملاح القدسيات الشعرية وسماتها الفنية ، فمصروف أن أفراد فصل خاص لهذه الغاية ، لا يعني ايماننا بالفصل بين الشكل والمضمون . ومع أننا لاحتنا بمض السمات الفنية من خلال الفصول السابقة ، إلا أن تسهيل التناول وإمكانية التعمق فيها ، أوجبا تحديدها في الفصل السادس . فعمدنا الى بحث القضايا الفنية التي طبعت بها معظم الأشعار القدسية ، وأزحنا جانباً الخصائص التي تنطبق على شعر شاعر دون غيره . وكان حديثنا عنها من حيث الصور الفنية ، والزخارف البدعية ، وظاهرة الأتباعية وهيكل القدسيات العام .

وحاولنا في الخاتمة تسجيل أهم النتائج التي توصلنا اليها ، فيما يتعلق بصروة " القدس " ، والذلة الصحيحة الى شعر العصر وضرورة الاهتمام به ، والموقف الفكري والفني الذي التزمه شعراء القدسيات ، وما يمكن الانتفاع به في الوقت الحاضر من دروس الصراع الدموي السابق ، والسبل المعينة على تكوين موقف من حاضرنا ، ورسم خطة لمستقبلنا .

ثم أتبعنا الخاتمة بأربعة فهارس ، واحد لأعلام الأشخاص ، وثمان لأعلام المواقع الجغرافية ، وثالث للمصادر والمراجع والرابع للمحتويات .

وقد اعتمدت في دراستي على مصادر ومراجع متنوعة ، يمكن تصنيفها ضمن أربعة منابع : الأول ، المصادر الأدبية القديمة التي سجلت أحداث العصر وشعر شعرائه ، مثل تحف الخريدة القصص وجريدة أهل العصر للعماد الكاتب ، والروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة المقدسي ، و"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل" .

فصاحب "الخريدة" متوفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة للهجرة . وقد تسنى له الاتصال مباشرة بعدد كبير من شعراء العصر . ويذكر أنه شافهم وسمع منهم وكتبوا له واستكتبهم ، وبلغت المجموعات الشعرية التي أعدها محاصروه والسابقون عليه . وتوفّر له من ذلك كله ما ساعده أن يذكر الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وأما بالنسبة إلى "الروضتين" ، فقد احتوى على فصل طويل عن العهد الصلاحي ، وفيه طائفة كبيرة من القصائد التي نظمت في الحروب والمناسبات المختلفة . وأثبتت قصائد خاصة نظمت حول "القدس" ، وتحدث عن القصائد المسماة "بالقدسيات" لأبي الفضل الجلياني . وما يلاحظ أن "أبو شامة" اعتمد كثيرا على كتاب "الخريدة" ونقل عنه .

كما أن "مفرج الكروب" فيه ترجمة وافية للأيوبيين و"صلاح الدين" بشكل خاص ، وفيه حوادث دقيقة ، وأشعار كثيرة ، مما جعله من المصادر المهمة لدارس هذه الفترة .

والنبح الثاني ، الدواوين الشعرية المطبوعة ، مثل ديوان "ابن سناء الملك" وديوان "ابن الساعاتي" وديوان "فتيان الشاغوري" وأسامة بن منقذ وطلّاح بن زريك وابن الدهان وابن مطروح وغيرهما ما أتج لي الأطلاع عليها .

وأما الثالث ، فخاص بالمعلومات التاريخية ، وبالتحديد تلك التي تنبئ التي تناولت الأحداث الإسلامية الصليبية وأرخت لهما ، مثل "الكامل لابن الأثير" ، والأخبار لأسامة بن منقذ ، والفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الكاتب ، والنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ، والنجم الزاهرة في محاسن ملوك مصر والقاهرة لابن تخرى بردى وغيرهما . ويعد كتاب "الكامل" أهم هذه المصادر ، إذ عاصر رجال تلك الحروب ، وحرص على أن يؤرخ الحوادث ، ويضبط الأخبار بعد تأكده من صحتها ، كما اهتم بآراء السابقين ، ثم نقد تلك الآراء . كما أن "أسامة بن منقذ" سجل في كتابه ذكرياته ومشاهداته وتجاربه ، وما لقي من حروب ومعارك في صدق وأمانة . وبالنسبة إلى كتاب "العماد" ، فتكمن أهميته في أنه مخصص لأحداث فتح "القدس" .

ويضم الى المنابع الثلاثة السابقة ، ما صدر من أبحاث ودراسات حديثة حول أدب الحروب الصليبية ، والمعالم التاريخية والفكرية لذلك العصر . ولعل أهم هذه الدراسات ، بحث الأستاذ " محمود ابراهيم ، ضدى الفزرو الصليبي في شعر ابن القيسراني " ، وبحث الأستاذ محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين " . و جدير بالذكر أن هاتين الدراستين وغيرهما لم تكن من مصادر الشعرية أو التاريخية ، بل كانت من الأضواء الكاشفة لأهمية هذا الشعر ، والفتاح المعينة لولوج بساب العصر ، لما اتسمت به من علمية وموضوعية في الدراسة المنهجية الواعية .

وتمثل النبع الكبير في استاذى الدكتور عبد الكريم خليفة ، الذى أحاطني بالأشراف المنأص والتوجيهات السديدة . فاليه خالص شكرى وعظيم امتنانى ، راجيا أن يجزيه الله على كل لحظة قضاها في سبيل ترسيخ أصول البحث العلمى ، وتعميق الدراسات الجادة الهادفة .

وأتوجه الى كل أساتذتى واخوانى الذين كان لهم فضل من قريب أو بعيد - في اتمام هذا البحث الهادف ، والذى بذلت له معظم وقتى ، واستفرقت في جمع نصوصه ودراسته أربعة أعوام متوالياً ، ليكون كما أمل عميقاً ودقيقاً . فان أفلحت فذلك تطلسمى وحسبى ، والا فما بغيتى الا العمل الخير ، والله شهيد على هذه النية ، وهو وحده العليم الخبير .

الأثنين ٥ حزيران سنة ١٩٧٨ ميلادية ،  
الموافق ٢٨ جمادى الثاني سنة ١٣٩٨ هجرية .

ناجى عبد الجبار

أسماء القدس ودالاتها

- للمدينة أسماء كثيرة وردت في الكتاب المقدس والكتب التاريخية والجغرافية  
منها: "يُروشلِيم" و"أورُشليم" و"يُوس" ومدينة داود وصهيون وإيليا وبيت المقدس".  
وان أقدم هذه الأسماء "يُروشلِيم" أو "يُروشالم" كما سماها الكنعانيون (١).  
ونجد في التوراة اسم "أورُشليم" المشتقة من التسمية الأولى: "وحارب بنو  
يهودا أورُشليم وأخذوها وضربوها بحد السيف وأشعلوا المدينة بالنار" (٢).  
وتكرر هذه التسمية عشرات المرات في أسفار العهد القديم (٣).  
وذكر ياقوت الحموي "أن المدينة وردت باسم أورُشلِيم، بكسر الراء  
وتسكين الشين وكسر اللام، وقد يسكنون اللام أو يشددونها. ووردت أيضا  
باسم أورُشليم بالسین المهملة" (٤).

- (١) ورد ذكرهم في التوراة مرات عديدة باعتبارهم سكان فلسطين. انظر:  
سفر التكوين، الأصحاح الرابع عشر، عدد ٨.  
سفر العدد، الأصحاح الثالث عشر، عدد ١٧، ٢٠.  
سفر يشوع، الأصحاح الثالث، عدد ٩.  
وانظر في اسم الكنعانيين وأخبارهم:  
أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، ج ١، ص ٤٦ - ٤٩.  
أحمد عبد الخفور عطار، عروبة فلسطين والقدس، ص ٢٦.  
اسحق موسى الحسيني، عروبة بيت المقدس، ص ١٤.  
(٢) سفر القضاة، الأصحاح الأول، عدد ٨-٩.  
(٣) انظر على سبيل المثال لا الحصر:  
سفر يشوع، الأصحاح العاشر، عدد ١٥، ١٥، ٦٣.  
سفر التكوين، الأصحاح الرابع عشر، عدد ١٨.  
المزمور السادس والسبعين، عدد ٢.  
سفر الأيام الثاني، الأصحاح الحادي عشر، عدد ٥.  
الأصحاح الثاني والعشرين، عدد ٢.  
الأصحاح السادس والثلاثين، عدد ١-٢.  
(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٢٩٣.  
وما يذكر أن ورودها بالشين حيناً وبالسين حيناً آخر مألوف في  
اللغات السامية.



وكلمة "شَلْم" أو "شالم" اسم اله كنعاني معناه : السلام . (١) ويرى بعض  
المحدثين أن معناها : " ينشي " ، فيصبح معنى التسمية : " المدينة المنشأة " (٢) .  
وعلى أية حال فإن المحدثين (٣) يستنتجون من خلال اسم المدينة ، ومن خلال  
تاريخ الكنعانيين ، على أن هذه التسمية عربية منذ انشاء المدينة (٤) . وقد  
ورد هذا الاسم في شعر "الأعشى" بقوله :  
وقد طُفَّتْ لِلْمَالِ آفَاقَهُ  
عَمَّانَ فَحِمَصَ فَأُورُشَلِيمَ

أتيتُ الثَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ  
وَأَرْضَ النَّبِيْطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ (٥)  
ومن أسماؤها " ييوس " ، نسبة الى اليوسيين (٦) الذين ينتسبون الى  
الكنعانيين . ففي التوراة " بعد سقوط " ييوس " على يد " داود " أقام في الحصن  
الذي كان على جبل " صهيون " وسماه " مدينة داود " (٧) . فاسمها الأول اذن  
" ييوس " ، وبعد استيلاء " داود " عليها سميت " مدينة داود " .  
ومن أسماؤها في عهد بني اسرائيل أيضا " صهيون " ، حيث تصف التوراة  
ما لحق المدينة من تدمير على يد " نبوخذ نصر " (٨) فتقول : " بسطت صهيون يديها  
لا معزى لها . اسمعوا يا جميع الشعوب وانظروا الى حزني عذا راى وشباني ذهبوا  
الى السبي " (٩) . وهذه التسمية نسبة الى جبل (١٠) من جبال " أورشليم " .

- (١) انظر : طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ .
- (٢) انظر : أحمد عبد الغفور عطار ، عروبة فلسطين والقدس ، ص ٢٦ .
- اسحق موسى الحسيني ، عروبة بيت المقدس ، ص ٣١ .
- (٣) انظر بالاضافة الى المرجعين السابقين :
- أحمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ ، ج ١ ، ص ٤٦ - ٤٩ .
- (٤) يقول صاحب الأنس الجليل بصدد انشائها : " ان سام بن نوح والذي كان يلقب ملكيا صادق هو أول من بناها وسماها يروشلم " . انظر :
- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بفضائل القدس والخليل ، ص ٩ .
- (٥) ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق : محمد محمد حسين ، ص ٤١ .
- (٦) ييوس : هو احد أولاد كنعان ، حيث ورد في التوراة " وكنعان ولد صيدون بكره وحثا واليبوس والأموري والجرجاشي والحوي والعربي والسيني والوادي والصماري والحماتي . وبعد ذلك تفرقت قبائل كنعان " . انظر :
- سفر التكوين ، الأصحاح العاشر ، عدد ١٥ - ١٩ . وقد ورد اسم ييوس في  
المواقع التالية أيضا : سفر يشوع ، الأصحاح الثامن عشر ، عدد ١٦ .
- سفر القضاة ، الأصحاح التاسع عشر ، عدد ١١ .
- (٧) سفر صموئيل الثاني ، الأصحاح الخامس ، عدد ٩ .
- (٨) ذكر المسعودي أن اسمه " بختنصر " وأنه كان مرزبان العراق والمغرب ولم يكن ملكا كما يقول المؤرخون . انظر : عروج الذهب ، ج ١ ، ص ٧٣ .
- (٩) سفر مرثي ارميا ، الأصحاح الأول ، عدد ١٧ - ١٩ .
- (١٠) ذكرت التوراة قلعة صهيون الحصنة ، حيث لم يتمكن داود من السيطرة على القدس الا بعد أن احتل تلك القلعة . انظر : المزمارة السادس والسبعين عدد ٢ .

أما في العهد الروماني ، فقد عرفت المدينة باسم " ايليا " . ذكر ابن الأثير أن الذي سماها بهذا الاسم هو " ايليا اندريانوس " ، بعد أن دمرها وقتل من سكانها خلقا كثيرا (١) . وواضح أن التسمية على هذا النحو نسبة الى الاسم الأول منه . ويقول " ياقوت " بصدده هذه التسمية : " يروى عن كعب الأحبار أن المدينة المقدسة دعيت ايليا نسبة الى المرأة التي بنتها واسمها ايليا . وقيل أيضا : ان ايليا تعني بيت الله . وقيل أيضا : انها اسم باني القدس ايليا بن آرام بن سام بن نوح " (٢) . وما يؤكد هذه التسمية ورودها في وثيقة الأمان (٣) التي أعطاها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأهل المدينة ، بعد أن وافق أهلها على التسليم . وفي العهد الإسلامي عرفت المدينة بـ " بيت المقدس " و " القدس الشريف " و " القدس " (٤) . وهذه التسمية تدل على التنزيه والتطهير والتبريك (٥) . وبقي الاسم الإسلامي شائعا الى يومنا هذا .

- (١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .
- (٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩٣ .
- (٣) أول الوثيقة : " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل ايليا من الأمان . . . . " انظر نص الوثيقة الكامل في : الطبري ، تاريخ الطبري ، تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج ٣ ، ص ٦٠٩ .
- (٤) نجد هذه التسمية في المؤلفات التي تحدثت عن القدس مثل : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ١ ، ص ١٦٤ . الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٨١ .
- (٥) التقديس : تنزيه الله عز وجل وكذلك التطهير والتبريك . والقدوس : هو الله عز وجل . والقدس البركة . والأرض المقدسة : الشام وبيت المقدس . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، ج ٧ ، ص ٢١١ - ٢١٣ . وفي القرآن الكريم ( ونَجِّنُهُ لَوْطًا السَّى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ) سورة الأنبياء ، آية ٧١ . ويقول تعالى : ( سبحانه الذي أسرى بعبدِهِ ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِئَن تُرَى مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ) . سورة الأسراء ، آية ١ .

القدس في العصور القديمة

كان اليبوسيون الكنعانيون أول من سكن "القدس" . وورد ذكر أحد ملوكهم في التوراة وهو "ملكي صادق" (١) . وتدل قصص التوراة على أنه لم يكن في المدينة أحد من الإسرائيليين في ذلك العهد . ومن هذه القصص أن رجلاً لاوياً متغرباً كان في جبل افرايم فاتخذ له امرأة سرية من بيت لحم فنزت عليه سريته وذهبت من عنده إلى بيت أبيها . فقام رجلها وسار وراءها ليطلب قلبها ويردها . وبعد اللتيأ والتي أخذها وجاء إلى مقابل يبوس ومعه غلامه وحماران مشدودان وسريته . وفيما هم عند يبوس والنهار قد انحدر ، قال الغلام لسيدة : تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها . فقال له سيده : لا نميل إلى مدينة نربية حيث ليس أحد من بني إسرائيل هنا (٢) . ونستدل من هذه القصة ومن قصص غيرها على أن اليبوسيين أول من سكن "القدس" وكان تطلع الإسرائيليين إلى "القدس" والأرض الكنعانية بعد خروجهم من "مصر زمن موسى" عليه السلام . حيث أرسلهم عليه السلام ليتجسسوا أرض كنعان ، ويروا مدى قوة الشعب الذي يسكن فيها (٣) . وعندما عادوا قالوا له : " قد ذهبنا إلى الأرض التي أرسلتنا إليها وحقاً إنها تفيض لبناً وعسلاً . وهنا ثمرها ونيران الشعب الساكن في الأرض منستر ، والمدن حصينة عظيمة جداً . وأيضاً قد رأينا بني عناق هناك العمالقة الساكنون في أرض الجنوب والحيثيون واليبوسيون . والأموريون ساكنون في الجبل والكنعانيون ساكنون عند البحر وعلى جانب الأردن . فكنا في أعيننا كالجراد وهكذا كنا في أعينهم " (٤) .

- (١) سفر التكوين ، الأصحاح الرابع عشر ، عدد ٨ .
  - (٢) سفر القضاة ، الأصحاح التاسع عشر ، عدد ١٣ .
  - (٣) ورد في التوراة : " فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا على الجبل وانظروا الأرض ما هي والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف قليل أم كثير وكيف هي الأرض التي هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة وما هي المدن التي هو ساكن فيها أهـ خيمات أم حصون وكيف هي الأرض أسمينة أم هزيلة أفيها شجر أم لا وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض . انظر : سفر العدد ، الأصحاح الثالث عشر ، عدد ١٧ - ٢٠ .
  - (٤) سفر العدد ، الأصحاح الثالث عشر ، عدد ٢٦ - ٣٣ .
- ومن الملاحظ أن المؤرخين العرب يذكرون قصة بني إسرائيل هذه كما وردت في التوراة . انظر : ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ، ج ٢ ، ص ٨١ - ٨٨ .

فكان لليبوسيين مدن محصنة ، وكانت لهم حضارتهم ، وهم أقوياء حتى ان الاسرائيليين لم يجروءوا على حربهم أول الأمر . لكن الحروب بين الاسرائيليين والسكان الاصليين بدأت في عهد "يشوع" ، وبقية "يبوس" متمنعة على الاسرائيليين مدة طويلة (١) ، حتى تمكنوا من دخولها في عهد "داود" عليه السلام بعد قتال شديد . وتصف التوراة هذا القتال " ولم يستطع الموسويون الاستيلاء على المدينة في عهد يشوع لكنهم بعد وفاته أخذوها وأشعلوا فيها النار ودروها وبقي حصن صهيون بأيدي اليبوسيين الى أن جاء الملك داود فاحتل الحصن واتخذ المدينة عاصمة له فسمها مدينة داود " (٢) .

ورغم هذا الاحتلال ، الا أن سكان "القدس" لم يغادروا مدينتهم ، اذ تقول التوراة : " وأما اليبوسيون الساكنون في اورشليم فلم يقدروا يهربوا الى يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في اورشليم الى اليوم " (٣) . وعندما أراد الملك "داود" أن ينشيء الهيكل ، اشترى قطعة الارض من أصحابها اليبوسيين (٤) . ومعنى ذلك كله ، أن سكان المدينة الاصليين لم يغادروا مدينتهم ، وبقوا محافظين على تقاليدهم وثقافتهم ومقومات وجودهم بين الشعوب (٥) . وبعد العهد الاسرائيلي ، تبعت اورشليم الحكم البابلي . حيث سار نبوخذ نصر بجيوشه ودخل المدينة وأحرقها (٦) . ورد في التوراة " أن نبوخذ نصر سبى كل اورشليم وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والأقيان ولم يبق أحد الا مساكين الشعب وأرميا النبي فإنه أحسن اليه ولم يصبه بأذى " (٧) .

- (١) نجد في التوراة نصوصا كثيرة تصف الهزائم التي مني بها الاسرائيليون قبل أن يستولوا على المدينة . انظر : سفر صموئيل الأول ، الأصحاح الحادى والثلاثين ، عدد ١ - ١٠ .
- (٢) سفر صموئيل الثانى ، الأصحاح الحادى والعشرين ، عدد ١٥ - ٢٢ .
- (٣) أخبار الأيام الأول ، الأصحاح الحادى عشر ، عدد ٥ - ٧ .
- (٤) المقصود ب"الى اليوم" : الى تاريخ كتابة التوراة .
- (٥) انظر النص : سفر القضاة ، الأصحاح الأول ، عدد ٢١ .
- (٦) ومن النصوص الأخرى التي تشير الى عدم نزوح اليبوسيين ، ما جاء في التوراة : " أن بني بنيامين الذين هاجروا اورشليم في تخمهم لم يطردوا اليبوسيين . فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم الى هذا اليوم " .
- (٧) انظر في النص : سفر صموئيل الثانى ، الأصحاح الخامس ، عدد ٥ - ٧ .
- (٨) انظر : سفر يشوع ، الأصحاح الخامس عشر ، عدد ٦٢ .
- (٩) انظر في حضارة اليبوسيين : أحمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ ، ج ١ ، ص ٤٦ وما بعدها .
- (١٠) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٣٠٣ . تاريخ الطبرى ، ج ١ ، ص ٥٣٨ .
- (١١) المسموعى ، مرجع الذهب ، ج ١ ، ص ٧٣ .
- (١٢) سفر الملوك الثانى ، الأصحاح الخامس والعشرين ، عدد ٦ .

- ثم خضعت "أورشليم" للحكم الفارسي ، بعد أن استولى عليها كورش<sup>(١)</sup> .  
ومما ورد في التوراة بهذا الشأن ، " في السنة الأولى لكورش ملك فارس عند  
تمام كلام الرب بقم ارميا نبيه الرب روح كورش ملك فارس فأطلق نداً في كل مملكته  
وبالكتابة أيضاً قائلاً : هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض رفعها إلى  
الرب اله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا " (٢) .  
وبعد ظهور الاسكندر ملك اليونان تغلب على الفرس ، فتبعت  
"أورشليم" للحكم اليوناني . وتتابع ملوك اليونان في حكم المدينة ، وكان  
يطلق على كل واحد منهم اسم "بطليموس" (٣) .  
وعندما تولى "تيطوس" الروماني الملك ، قصد "ايليا" وخرّبها بعد أن  
نهبها ثم أخلاها من بني اسرائيل (٤) . وبقيت المدينة تحت الحكم الروماني إلى  
أن سلمت لاختيافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، فصارت جزءاً من الدولة الإسلامية .

- 
- (١) أنظر في ذلك :  
الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٥٧١ .  
ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .  
المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .  
سفر حزقيا ، الأصحاح الأول ، عدد ١ - ٣ .
- (٢) أنظر تفصيل ذلك :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٢٨٢ - ٢٩٢ .  
الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٥٧٨ .  
ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .  
اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٤٣ - ١٤٥ .
- (٣) أنظر في ذلك :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٣٢٢ .  
المسعودي ، مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٣٤٦ .  
أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ٣٨ .  
ابن البطريق ، تاريخ ابن البطريق ، ج ١ ، ص ١٠١ .  
الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٦٠٦ .  
اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

## القدس في ظل الخلافة الإسلامية حتى الفتح الصليبي

خرج المسلمون تحت راية القرآن ، يجاهدون لأعلاء كلمة الله ونشر دينه الحنيف . فكتب أبو عبيدة (رضي الله عنه) إلى أهل إيليا " وخيرهم في أحد الأمور التالية: الأيمان بالله والدخول في الإسلام ، وبذلك يصبحون متساوين مع المسلمين في الحقوق والواجبات ، أو أن يحتفظوا بديانتهم على أن يدفعوا الجزية للمسلمين . وإذا رفضوا الأمرين يكون القتال حكماً (١) .

وبعد أن رفض بطريق " المدينة مطالب المسلمين ، بدأ المسلمون حصارهم لبيت المقدس ، واستمر القتال أربعة أشهر ، إلى أن وافق البطريق على تسليم المدينة لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أمير المؤمنين (٢) .

خرج وفد من أهل المدينة وعلى رأسهم البطريق صفرونيوس ، وسلموا المدينة للخليفة بعد أن كتب لهم وثيقة الأمان التالية: " بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولكنائسهم وصلبانهم ، وسقيمها وريثها وسائر ملتها ، لأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيليا أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الرمح واللصوف ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى ييلفوا ما منهم ، ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الرمح ويخلى بيهم وصلبهم فأنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيهم وصلبهم ، حتى ييلفوا ما منهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان ، فمن شاء منهم فقد و عليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية ، ومن شاء سار مع الرمح ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب سنة خمس عشرة (٣) .

- (١) انظر: الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٨٠ .
- مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .
- (٢) انظر: الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٨٣ .
- ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١ ، ص ٢٨ .
- (٣) انظر نص الوثيقة: الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٩ .
- وقد أورد المؤرخون عدة روايات بشأن تاريخ الفتح ، منها أن الفتح كان سنة ١٦ هـ . انظر: ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .
- أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
- البلاذري ، فتوح البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٨ .

دخل المسلمون "بيت المقدس" دون أن يؤذوا أحداً أو ينهبوا شيئاً من أموال أهل المدينة . يقول الواقدي في ذلك: "فأقبل القوم على ما كانوا يقدرون عليه من المال والمتاع الحسن ، فأظهروه وصفوه في طريق المسلمين وشوارعهم ، فجعل المسلمون ينظرون الى ذلك في دخولهم وخروجهم وهم يعجبون منهم . ولم يبل أحد منهم اليه ولم يلمسه وهم يقولون: الحمد لله الذي أورثنا ديار قوم لهم مثل هذا" (١) .

ان أول عمل قام به الخليفة بعد استلام القدس هو زيارته للأماكن الدينية . فزار كنيسة القيامة (٢) ، ثم الصخرة المشرفة . فوجد الروم قد جعلوا من موضع الصخرة منزلة (٣) . فأمر بأزالة الأقدار ، وبناء مسجد في ذلك المكان (٤) .

وتحدثنا الكتب التاريخية عن احترام المسلمين للشعائر الدينية التي يؤمن بها أهل المدينة ، وعن اهتمام الخليفة بأهل الذمة ، مع بقاء السيطرة للإسلام والمسلمين ، والتزام سكان المدينة بنصوص الوثيقة (٥) .

- (١) الواقدي ، فتوح الشام ، ج ١ ، ص ١٩٠ .
- (٢) ما يذكر أن هيلانة أم قسطنطين الملك هي التي بنت هذه الكنيسة في الموضع الذي يعتقد النصارى أن عيسى عليه السلام دفن فيه . انظر في ذلك : تاريخ أبي الفداء ، ج ١ ، ص ٣٨ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٨ .
- (٣) انظر في ذلك : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٦ .
- (٤) انظر: الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١١ . مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٥٦ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٨ .
- (٥) يذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب رفض الصلاة في كنيسة القيامة حتى لا يكون هناك مبرر للمسلمين من بعده أن يضعوا أيديهم على الكنيسة . كما أن أمير المؤمنين أخذ عليهم عهداً مقابل الأمان الذي أعطاهم إياه ، وذلك بعدم الاعتداء على المسلمين ، أو التعرض لمن يود الدخول في الإسلام . وكذلك ألا يظهروا شركاً بالله ، وأن يتميزوا في لباسهم وعاداتهم عن المسلمين . وألا يبيموا الخمور ولا يرفعوا أصواتهم مع موتاهم . ويضاف الى ذلك ألا يظهروا الصليب على الكنائس أو في طرق المسلمين وأسواتهم . وأن يضربوا نواقيسهم في الكنائس ضرباً خفيفاً . وان خالفوا ذلك فلا ذمة لهم . انظر : ابن عساکر ، تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ٥٦٤-٥٦٥ . وتاريخ ابن عساکر ، ج ١ ، ص ١٧٨-١٨٠ .

- بعد الفتح بدأ أمير المؤمنين بالتنظيم الإداري والقضائي في المدينة (١) .  
ثم دوّن الدواوين ورتب البريد ، وعيّن مفتشاً يطوف على المأمورين وينظر في  
الشكايات . وأسّس الحسبة لمراقبة الموازين ومنع الغش وتنظيف الأزقة (٢) .  
وبعد استقرار الإدارة وازدهار المدينة ، ضرب المسلمون في بيست  
المقدس مسكوكات من النحاس ، نقشوا على وجهها " محمد رسول الله ورسم سيف  
وعلى الوجه الآخر " ايليا " وفلسطين وحرف م والحلال " (٣) .  
ويحدثنا صاحب الأنس الجليل عن الأعداد الكثيرة من العرب أنذبت  
نزلوا القدس بعد الفتح (٤) ، فانتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً .  
وفي عهد عبد الملك بن مروان جرى ترميم الدواوين (٥) ،  
فصارت اللغة العربية وحدها تستعمل في جميع مصالح الدولة ودواوينها .  
كما قام بضرب الدنانير الإسلامية (٦) ، وبناء الصخرة المشرفة ، والبدء في بناء  
المسجد الأقصى (٧) .  
وقام الخلفاء من بعده بأجراء ترميمات بعد حدوث زلزال ، وأوخراب  
في قبة الصخرة والمسجد الأقصى (٨) .  
وهكذا كان امتزاج السكان المحليين مع القبائل العربية الوافدة ،  
وخضوع الجميع في ظل النظام الإسلامي .

- (١) وثى يزيد بن أبي سفيان على بيت المقدس ، علي أن يسأ ترمباً وأمر  
أبي عبيدة . وانتدب للصلاة سلامة بن قيصر .  
ومن الناحية العسكرية ، جعل علقمة بن مجزر على جنوب فلسطين  
وأنزله القدس . انظر :  
مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٤٩ .  
(٢) انظر في هذه التنظيمات :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٥٠١-٥٠٥ .  
الطبري ، تاريخ الطبري ، ج ٣ ، ٦١٣-٦١٩ .  
(٣) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢٥١ .  
وانظر في تفصيل هذه الأعمال :  
جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ١٧٥ ، ٢٠٠ .  
مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ١ ، ص ٢٦٠-٢٦٤ .  
(٤) كان الديوان المصري يكتب بالقبطية ، والشامي باليونانية ، والعراقي  
بالفارسية ، إلى أن عريت في عهد عبد الملك بن مروان . انظر :  
المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ٩٨ . تاريخ ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .  
(٥) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٦٥٣ .  
(٦) انظر : المقدسي ، أحسن التقاسيم ، ص ١٥٨-١٦٨ .  
(٨) حدث زلزال في عهد أبي جعفر المنصور سنة ١٦٨ هـ ، فتم بناء المسجد  
في عهد المهدي سنة ١٦٣ هـ . وفي عهد المأمون أصاب قبة الصخرة خراب  
فأمر بترميمه سنة ٢١٦ هـ . انظر : أحسن التقاسيم ، ص ١٦٨-١٧٠ .



## الاحتلال الصليبي لبيت المقدس

بينما كان الناطميون والسلاجقة يتنازعون على القدس وغيرها من المدن ، كان الغرب يعد حملاته للاستيلاء على الديار المقدسة ، وذلك للرداء الذي يكتفه الغرب المسيحي للشرق الإسلامي (٢) .  
ونادى البابا بضرورة انقاذ قبر المسيح ، وتخليصه من أيدي المسلمين وتذليل الصعوبات التي ادعى بأنها تواجه الحجاج لدى زيارتهم القدس (٣) .  
فكان الفزرو الصليبي سنة ٤٩٠ هـ ، وتمكن الصليبيون من الاستيلاء على أنطاكية والرها (٤) . ثم توجه قسم من الحملة التي يقودها ريموند نحو بيت المقدس . وكان حاكمها آنذاك افتخار الدولة الفاطمي الذي يدبرها باسم الخليفة المستنفي بالله (٥) .

حاصر الصليبيون بيت المقدس ، وواجهوا صعوبات كثيرة أثقلت الحصار وتمنع أهل المدينة . وطالت مدة الحصار حتى جاوزت الأربعين يوماً ، ولم يطلب أهل المدينة خلالها الصلح أو التسليم ، حتى تمكن الصليبيون من اقتحام الأسوار ، وفتح المدينة بالقوة وذلك سنة ٤٩٢ هـ (٦) .

- (١) حدث سنة ٤٨٩ هـ أن جاء الأفضل أمير الجيوش من مصر الى القدس ليخلصها من الأرتقيين ، حيث كانت تحت امرة ولدى ارتق : ايلغازي وسقمان . فحاصر الأفضل المدينة ونصب عليها المنجانيق وقتلهم أربعين يوماً ، حتى فتح له أهل القدس الأبواب . انظر في هذه الأحداث : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٢-٢٨٣ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .
- (٢) انظر رأى ابن الأثير في هذه الحروب : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ .
- (٣) ألقى البابا خطبا في اجتماع كليرمونت الذي عقد لهذه الغاية . وبعد أن وصف صورة قاتمة لأوضاع المسيحيين ، وجه نداءه قائلاً : " فلينطلق المسيحيون بالفرح لنجدة الشرق . ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء سواء ، ينبغي أن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر وأن يباشروا عوضاً عن ذلك القتال الحق ، فيؤدّون ما أمر الله به أن يعمل يوسف يكون مرشداً وهادياً لهم . ومن يلق مصرعه في المعركة ، تحلل من ذنوبه وغفر الله أخطائه " . انظر نص الخطبة :
- ستيفن رنسيمن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٦٠ .
- (٤) كانت الحملة الأولى بقيادة بلدوين ، فكون الصليبيون أول امارتين لهم في الشرق . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٤-٢٧٥ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٦ .
- (٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٢ .
- (٦) وصف المؤرخون شدة الحرب وتمنع أهل المدينة . انظر في ذلك : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ . تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٨٤ .

قرر الصليبيون اعدام كل مسلم ، فجرت مذبحه عظيمة طوال أسبوع .  
وصفها ابن الأثير قائلا : " وركب الناس السيف ، ولبت الفرنج في البلدة أسبوعاً  
يقتلون فيه المسلمين ، وأضحى جماعة من المسلمين بمحراب داود فاعتصموا به  
وقاتلوا فيه ثلاثة أيام ، فبذل لهم الفرنج الأمان فسلموه اليهم . وقتل الفرنج  
بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعمين ألفاً منهم جماعة كبيرة من أئمة  
المسلمين وعلماهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع  
الشريف" (١) .

وقال بعض المؤرخين : ان عدد القتلى بلغ مائة ألف نسمة ، حينئذ  
زاد من جنون الصليبيين ما أحرزوه من نصر كبير بعد عناء شديد . فانطلقوا  
في شوارع المدينة ، وإلى الدور والمساجد ، يقتلون من يصادفهم من الرجال  
والنساء والأطفال دون تمييز (٢) .

وقد اعترف المسيحيون بما ارتكبه الصليبيون ، بل ان أحد المشتركين  
في القتال منهم ، يتفاخر بذلك في مذكراته فيقول : " وفي هذه الأثناء تقدم واحد  
من فرساننا واسمه " ليتو " واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع  
المدافعين عنهما من الأسوار إلى داخلها فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم  
معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكلاً سليمان حيث جرت مذبحه  
هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كموهم في دماء القتلى" (٣) .  
ويقول المؤرخ المجهول أيضاً : " أما القائد الذي كان يقوم بحراسة برج داود  
فقد استسلم للكونت وفتح له الباب الذي اعتاد الحجاج أن يؤدوا الجزية عنده  
فلما ولج حجاجنا المدينة ، جدوا في قتل الشرقيين ومطاردتهم حتى قبة  
عمر ، حيث تجمعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أفضع القتل طيلة  
اليوم بأكمله ، حتى لقد فاض المعبد كله بدمائهم . ولما تمّ لرجالنا الغلب  
على الكفرة ، عثروا في المعبد على فئة كبيرة من الرجال والنساء ، فقتلوا بعضهم  
وأبقوا على الذين أحسنوا بهم الظن" (٤) .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .

(٢) انظر : المرجع السابق ، ج ١٠ ، ص ٢٨٤ .

ابن تغرى بردى ، النجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٨٤ .

(٣) مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١١٨ .  
لاحظ حقد المؤلف ، وتعده الاستمالة بالمسلمين ، ونعتهم بالجبن  
أمم الفرنج . لكن المقصود من هذا الاستشهاد وصف فظائع الفرنج ،  
بغض النظر عن نية المؤلف وتعاييره المقصودة .

(٤) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

ويقول المؤلف المجهول: "و صدر الأمر بطرح كافة موتى الشرقيين خارج البلدة ، لشدة التن المتصاعد من جيهم . ولأن المدينة كادت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام الشرقيون الذبيين قيضت لهم الحياة بسحب القتل خارج "بيت المقدس" وطرحهم أمام الأبواب . وتعالمت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه الذبحة التي ألقت بالشعب الوثني . وجمعت أكوام من الحطب كأنها الأعلام ، ولا يعلم أحد غير الله كم عددها" (١) .

وانطلق الصليبيون بعد ذلك يستولون على الذهب والفضة ، وينهبون الأموال من البيوت . روى ابن العبري: "أن الفرنج أخذوا من مسجد الصخرة أربعين قند يلافضيا ، وزن كل واحد ثلاثة آلاف وستماية درهم من الذهب المصري . وأخذوا تنورا من فضة وزنه أربعون رطلا سوريا ، والرطل السوري يوازي ستة أرطال بغدادية . واستولوا على زينات أخرى كثيرة ، وأخذوا من الأموال ما لا يحصى" (٢) .

وبالإضافة الى ما ارتكبه من مذابح ونهب للأموال ، فقد باشروا بتغيير المعالم الإسلامية وتحويلها الى معابد مسيحية . فحولوا قبلة الصخرة الى كنيسة ، ووضعوا فيها الصور والتماثيل ، وأنشأوا عليها مذبحا ، ونصبوا فوقها صليبا كبيرا . كما اتخذوا كنيسة الى جانب المسجد الأقصى . وسبوا في الجانب الثاني منه مسكنا للفرسان ، واتخذوا من السرايب القديمة التي كانت تحت الأقصى اسطبلات لخيولهم (٣) .

ان كل هذه الجرائم المرتكبة كانت باسم المسيح وتحت شعار الصليب حيث يقول المؤلف المجهول: "انهم يستعملون سلاحا ملائما للحرب ، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيما بينهما ، وأما هتافهم الذي يرددونه جميعا في نفس واحد فهو: " هكذا أراد الله . . . هكذا أراد الله" (٤) . وذلك مصداقا لما جاء في الإنجيل " ان أراد أحد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني" (٥) .

- (١) مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١١٩ - ١٢٠
- (٢) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٧ . وانظر كذلك: ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨
- (٣) الكامل لابن الأثير ، ج ١٠ ، ص ٢٨٤ . تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٨٤ . انظر قول أبي شامة المقدسي عن وضع القدس حين استرجعها صلاح الدين ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج ٢ ، ص ١١٣ . وانظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٢ .
- (٤) مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ٢٥ .
- (٥) المرجع السابق ، ص ١ . والملاحظ أن النص مقتبس من العهد الجديد ، انجيل متى ، الأصحاح السادس عشر ، عدد ٢٤ . وانجيل لوقا ، الأصحاح التاسع ، عدد ٢٣ .

## الفصل الأول

الأوضاع العامة لبلاد الشام في فترة الحروب الصليبية

مقالم الأحداث الكبرى .

المظاهر الاجتماعية العامة .

الحالة الاقتصادية .

الحالة الثقافية .

## معالم الأحداث الكبرى

كانت بلاد الشام عشية الغزو الصليبي امارات ومعالمك مجزأة .  
 فالقدس ومعظم الساحل الشامي في أيدي ولاية في طاعة الخلافة العلوية في  
 "مصر" (١) ودمشق ظل يتناوب عليها الولاة من قبل "السلاجقة" (٢) حيناء  
 ومن قبل "العلويين" حيناء آخر (٣) ، الى أن استقرت في يد تساج الدولة  
 "تتشرالتركي" (٤) سنة ٤٧١هـ بوقيت حتى سنة ٤٨٨هـ (٥) .  
 "وحلب" في يد أمير يحكمها في طاعة السلطان السلجوقي (٦) . وأنطاكية يتنازع  
 عليها الأمراء حتى استقرت في يد "مسلم العقيلي" (٧) صاحب "حلب" (٨) .

- (١) في سنة ٤٨٩هـ جاء الأفضل أمير الجيوش من مصر الى القدس ليخلصها  
 من الأرثقيين ، حيث كانت تحت إمرة ولدي ارتق ؛ ايلغازي وسقمان .  
 فحاصر الأفضل المدينة ونصب عليها المنجانيق وقاتلهم أربعين يوماً حتى  
 فتح له أهل القدس الأبواب . انظر في هذه الأحداث:  
 ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٢-٢٨٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥٨
- (٢) السلاجقة ؛ طائفة من الأتراك الغز ، نزلت من تركستان وحطت رحالها  
 في مناطق تقع بين بلاد ما وراء النهر ، والبلاد التي كانت تسكنها طائفة  
 "الحزليخ" التركية المسلمة . وترجع تسميتها بالسلاجقة الى رئيسها  
 "سلجوق بن دقاق" الذي تولّى قيادتها ووحّد كلمة أبنائها . وبقي نفوذهم  
 على بلاد ما وراء النهر والكثير من الأمارات الإسلامية مدة تزيد عن قرنين .  
 انظر أخبارهم ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦٩ ، ص ١٧٦ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٢٨  
 ج ١٠ ، ١١١ ، ١٣٧ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢ وغيرها صفحات كثيرة .
- (٣) ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، أخبار متفرقة في السنوات ٤٢٩ ، ٤٧١ ،  
 ٤٧٩ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ وغيرها .
- (٤) انظر في ذلك ؛ الصفدي ، أمراء دمشق في الإسلام ، ص ١٠٣ .  
 هو أبو سعيد تتشر بن الب أرسلان بن داود السلجوقي ، قتل سنة ٤٨٨هـ  
 وفي وقعة ضد برق ياروق قرب الرى . انظر أخباره ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ١١١  
 ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٢٦٤-٢٦٧
- (٥) في هذه السنة قتل تتشر ، انظر ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .
- (٦) انظر ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٦٢ . مفرج الكروبي ، ج ١ ، ص ١٩ .
- (٧) هو مسلم بن قريش بن بدران العقيلي ، ولد سنة ٤٥٣هـ ، وتوفي سنة ٤٧٨هـ  
 انظر ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ٩١ . وانظر أخبار بني عقيل في ؛  
 خاشع المعاصيدي ، دولة بني عقيل في الموصل ، بغداد ، ١٩٦٨ .
- (٨) حدث أن جاء سليمان بن قتلش ، صاحب قونية وحاصر أنطاكية ، بناء على  
 دعوة أهلها بعد خروج صاحبها الرومي متوجها الى بلاد الروم ، واستولى  
 عليها سنة ٤٧٧هـ . لم يعجب الحال مسلم العقيلي فأرسل الى سليمان  
 طالبا منه الجزية التي كان يدفعها الرومي ، فرفض سليمان لأنه مؤمن ولا  
 تحق عليه الجزية ، فدارت بينهما معركة سنة ٤٧٨هـ قتل فيها شرف الدولة  
 انظر ؛ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ . الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٣٧ .

وكان في الشام بعض الحصون التي استقلت بها عائلات امتد حكمها زماناً كحصن  
 "سيزر" (١)، الذي كان في حكم بني منقذ (٢)، وحصن "جمبر" (٣)، الذي كان  
 في حكم بني عقيل (٤).

وكان التناوب بين الأمراء من مظاهر حكمهم . فالقتال والخلافات بينهم  
 أما للسعي وراء كسب مادي ، وأما لتوسيع رقعة حكمهم . فقد دار قتال بين  
 "مسلم العقيلي" صاحب الموصل والجزيرة وحلب ، وبين "سليمان بن قتلмыш" صاحب  
 "أنطاكية" سنة ٤٧٨ هـ ، وذلك لرفض "سليمان" دفع جزية لمسلم بن قريش" (٥) .  
 كما حاصر أمير الجيوش المصري "دمشق" سنة ٤٧٨ هـ ، من أجل توسيع رقعة أولي  
 الأمر في "مصر" (٦) . وفي سنة ٤٨٩ هـ جاء الأفضل أمير الجيوش المصرية السى  
 "القدس" ، وخلصها من الأرتقيين بعد حصار دام أربعين يوماً (٧) .

(١) حصن قريب من حماه ، وهو من أمنع القلاع وأحصنها على حجر عال له  
 طريق منقور في طرف الجبل وقد قطع الطريق في وسطه وجعل عليه  
 جسر من خشب فاذا قطع ذلك الجسر تعذر الصعود إليه . وكان آل منقذ  
 الكنانيين يتوارثونه أيام صالح بن مرداس ، إلى ان انتهى بيد نصر بن علي  
 بن المقلد ، بن نصر بن منقذ ، وبقي في يده مدة طويلة إلى أن مات  
 سنة ٥٥١ هـ . انظر في كل ذلك :

أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١ ، ص ١١١ .  
 وانظر عن الحصن أيضا في :

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .

(٢) انظر المرجعين السابقين ، من نفس الصفحات .

(٣) تقع على الفرات بين بالس والرقعة قرب صفين . وكانت قديما تسمى دوسر  
 وكان يملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جمبر بن مالك ، ثم صارت  
 في حكم سالم بن مالك العقيلي . وقد سيطر عليها العقيليون مدة طويلة .  
 انظر في ذلك : ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٧٣ .

وكذلك : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .

(٤) بنو عقيل : بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية . انظر :

معجم قبائل العرب ، ج ٢ ، ص ٨٠١ .

وانظر أخبارهم في : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٢١ .

(٥) انظر في ذلك : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٣ .

(٧) انظر : ابن تفرى بردى ، والنجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥٨ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٢ .

وهكذا كان الصراع ناسبا بين الأمراء (١)، كما كان الصراع بين السلاجقة في الشام والعلويين في مصر (٢). يضاف الى ذلك أن الخلافة العباسية لم يكن يتعدى سلطانها بغداد وما حولها، وكان الحكم للأتراك والسلاجقة (٣).

- (١) للتفصيل في تدايد الأمراء، انظر مثلا :  
ابن القلانسي، دليل تاريخ دمشق، ص ١٧٤-١٧٧، ٢٥٦-٢٥٨، ٢٦٧.  
ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣٤٠-٣٤٢، ج ١١، ص ٢٧-٢٨، ٤١.  
أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٨٠.  
انظر مثلا :  
ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٢٨، ٢٤٢، ج ١٠، ص ٩٤.  
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢٤٦.  
وللتفصيل في كل ذلك، انظر :  
أحمد كمال الدين حلمي، السلاجقة في التاريخ والحضارة، ١٩٧٥.  
حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ط ٣، القاهرة، ١٩٦٤.  
قام الأتراك بزعماء البساسيري بثورة في بغداد، وانتصروا على الخليفة البغدادي سنة ٤٤٩هـ، وقد أيد الفاطميون هذه الثورة.  
وفي سنة ٤٥١هـ دخل طغرل بك السلجوقي بغداد وطرد البساسيري بتأييد من الخليفة. وهكذا تبدلت السلطة من أيدي البويهيين الى السلاجقة. ولم يكن للخلفاء شي سوى ذكر اسمهم في الخطبة ونقشه على السكة.  
انظر في جال الخلافة العباسية هذه :  
ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ٢٢٤.  
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٢.  
الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج ٩، ص ٣٩٩-٤٠٠.

في ظل هذه الأوضاع السياسية، اجتاحت الغزوة الصليبي بلاد الشام سنة ٤٩٠هـ (١)، وتمكنوا من الاستيلاء على أنطاكية سنة ٤٩١هـ (٢)، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها، كما سقطت معرة النعمان، وقتل الصليبيون من أهلها مئة ألف في تغدير ابن الأثير (٣).

ثم توجه الصليبيون إلى هدفهم الأكبر، إلى بيت المقدس، وحاصروها نيفا وأربعين يوما، ثم افتتحوها في الثاني والعشرين من شعبان سنة ٤٩٢هـ وأكثروا القتل، حتى انهم قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد عن سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم (٤).

وفي سنة ٤٩٤هـ فتحو حيفا وأرسوف وقيسارية، وأعملوا السيف في كل هذه المدن (٥).

وفي سنة ٤٩٧هـ احتلوا عكا (٦)، ثم سقطت بأيديهم طرابلس وبانياس وجبيل سنة ٥٠٣هـ (٧)، وتلتها بيروت وصيدا سنة ٥٠٤هـ (٨)، وتسلموا صور سنة ٥١٨هـ (٩).

وتمكن الصليبيون بذلك من تأسيس ممالك عديدة في البلاد التي افتتحوها، فكانت مملكة القدس، وأمارات الرها وأنطاكية وطرابلس (١٠).

- 
- (١) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٤.
  - (٢) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٧٢-٢٧٥.
  - (٣) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٥.
  - (٤) الكامل، ج ١٠، ص ٢٧٦-٢٧٨. ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٦.
  - (٥) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٧.
  - (٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٢-٢٨٦. وانظر: ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٤٨.
  - (٧) ابن خلدون، المقدمة، ج ٥، ص ١٨٤.
  - (٨) الكامل، ج ١٠، ص ٣٢٤. وانظر: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٣٩.
  - (٩) ذيل تاريخ دمشق، ص ١٤٣-١٤٤.
  - (١٠) الكامل، ج ١٠، ص ٣٦٥-٣٧٣.
  - (١١) المرجع السابق، ج ١٠، ص ٤٧٥-٤٧٦. وانظر: المرجع السابق، ص ١٦٣.
  - (١٢) المرجع السابق، ص ١٧١. وانظر: الكامل، ج ١٠، ص ٤٧٩.
  - (١٣) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١. وانظر: الكامل، ج ١٠، ص ٦٢٠-٦٢٢.
  - (١٤) ذيل تاريخ دمشق، ص ٢١١. وانظر: الكامل، ج ١٠، ص ٦٢٢.



أبان حملة الصليبيين الأولى هذه ، كان موقف الأمراء سلبياً تجاه العدو الخارجي (١) . وكان بعضهم يلجأ الى عقد صلح منفرد مع الصليبيين ، ففي سنة ٥٠٢ هـ توصل " طفتكين أتابك " (٢) صاحب دمشق ، و " بلدوين " ملك القدس الى اتفاق على وضع الحرب أربع سنين (٣) . وفي السنة التالية خرج " طفتكين " لرد الفرنج بعد أخذهم " طرابلس " ، وترددت بينهما مراسلات انتهت الى تقرير المودعة والمسالمة ، على أن يكون للصليبيين الثلث من استغلال البقاع ، وأن يسلم اليهم حصن " المنيطرة " وابن عكار ، فبقوا على ذلك مدة يسيرة ثم انتفض الصلح بينهم (٤) .

كما اضطر " رضوان بن تشر " (٥) صاحب حلب الى مهادنة صاحب أنطاكية سنة ٥٠٣ هـ ، على أن يحمل اليه في كل سنة عشرين ألف دينار من مال حلب وعشرة رؤوس من الخيل (٦) . وكان لصاحب أنطاكية مقاطعة سنوية على " شير " تبلغ عشرة آلاف دينار (٧) .

- (١) أمام هذا الخطر الداهم ، كان المفروض أن ينسى الأمراء خلافاتهم ، ليكونوا صفا واحدا أمام الغزاة . لكن التناحر فيما بينهم ، وعدم الأكتراث بالعدو الذي يترصد بهم ، كان أهم مظاهر حكمهم . انظر في ذلك : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٧ .
- (٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ج ١١ ، ص ٢٧ ، ٤١ . تنسب اليه أسرة آل طفتكين ، وكان أحد قواد الجيش السلجوقي ، وكان مملوكا لتشر بن ألب أرسلان . وبعد وفاة تشر سنة ٤٨٨ هـ أثناء صراعه مع السلطان . بركياروق ، انفرد دقاق بن تشر بحكمها ، واتخذ طفتكين أتابك له ، فحكم البلاد باسمه . وقد استمرت أتابكية دمشق تحت نفوذ أسرة طفتكين حتى آل حكمها الى أسرة زنكي سنة ٥٤٩ هـ . انظر في ذلك : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٤٤ .
- (٣) انظر : الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٧٤ .
- (٤) انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٥ .
- (٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٧٦ .
- (٦) لقب رضوان بن تشر بفخر الملك ، وكان قد عينه والده على حكومة الشام والعراق ، ولكن أثناء زهابه الى العراق سمع أبناء مقتل والده سنة ٤٨٨ هـ فرجع الى حلب وتوفي سنة ٤٩٧ هـ . انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٨٩ ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٧٧ .
- (٧) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٣٧ .
- (٨) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٧١ .
- (٩) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

وبعد هذا امد الصليبي ، وظهر " الزنكيين " (١) ثم " الأيوبيين " (٢) من بعدهم ، شهدت بلاد الشام ردة الفعل القوية للغزواصليبي ، حتى استطاع الأيوبيون تطهير القدس من الغزاة الصليبيين .  
ففي سنة ٥٢٣هـ ، انتصر تاج الملوك بوري على الصليبيين في دمشق (٣) .

(١) بدأ عهد الزنكيين عندما ولي آسنقر من قبل السلطان ملكشاه السلجوقي على الموصل سنة ٤٧٧هـ . وفي سنة ٤٨١هـ وسع السلطان نطاق ولايته حتى شملت حماه ومنيح واللاذقية وحمص . وبعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ ضم آسنقر مدينة تكريت الى أملاكه . وفي سنة ٤٨٧هـ أصبح آسنقر نائبا لتتشر ثم قتل عند اشتراكه في الحرب ضد السلطان " بركياروق " سنة ٤٨٧هـ . كان ابنه عماد الدين " في العاشرة من عمره . وقد امتد حكم الزنكيين في بلاد الشام من سنة ٤٨٩هـ - ٥٧٧هـ وهم :  
" قسيم الدولة آسنقر وعماد الدين زكي ونور الدين محمود  
والصالح اسداعيل . انظر في كل ذلك :

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ص ٢٤ ، ٢٩ ، ٤٦ ، ٤٦٦ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ص ١٩ ، ٧٢ ، ٨٨ ، ٩٥ ، ١٤٨ .  
ينتسب الأيوبيون الى " شاذي " ، ولا يعرف عنه أكثر من ذلك ، وأصلهم من الأكراد الروادية ، وهو فخذ من الهذيانية ، وهم من أقدم سكان العراق . وأما والد الملوك الأيوبيين فهو " نجم الدين أيوب بن شاذي " الذي ولد في " شبختان " ، وأقام أول أمره مع أخيه " أسد الدين شيركوه " في " دوين " ثم خدم السلطان السلجوقي " محمد بن ملكشاه " . وامتد حكم الأيوبيين من سنة ٥٧٨ - ٦٤٨هـ . انظر في أخبارهم :  
ابن واصل ، مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ، الأجزاء الثاني والثالث والرابع .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ص ١٢٨ ، ٢١٠ ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، ٢٦٦ .

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٦ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ص ٥٤ .

لكن أولى عمليات الاسترداد الحقيقية كانت بقيادة "عماد الدين زنكي" (١)، الذي لاحظ تناحر الأمراء حول السلطة والأقطاعات، فوقف بميدان المشاحنات وقال لأصحابه: "قد ضجرنا مما نحن فيه، كل يوم يملك البلد أمير، ويؤمر بالتصرف على اختياره وأرادته، فتارة نحن بالعراق، وتارة بالشام، وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة" (٢).

فبعد أن ولي "عماد الدين زنكي" على الشام ثم على العراق سنة ٥٢٥هـ (٣)، شرع يوحد البلاد في الداخل، فحاصر دمشق سنة ٥٢٩هـ (٤)، و"حمص" سنة ٥٣١هـ (٥). وأخذ يجمع الأجناد ويهيء البيهوت لمواجهة الغزاة (٦). وفي سنة ٥٣١هـ توجه الفرنجة نحو قلعة "بارين" (٧)، وكان بينهم ملك القدس، فانتصر عليهم عماد الدين في معركة حامية، حيث اضطروا إلى طلب الأمان، وسلموه الحصن، واسترد منهم "معرة النعمان" و"كفرطاب" (٨)، وغيرهما (٩).

- (١) خلف قسيم الدولة آتسنقر سنة ٥٢١هـ. له تاريخ مجيد في حروب الصليبيين مما جعل الأعداء يدبرون مؤامرة لقتله سنة ٥٤١هـ. انظر أخباره في: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٧٩.
- (٢) وصفحات كثيرة من الروضتين في أخبار الدولتين، ومفرج الكروب.
- (٣) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٩. وانظر: ابن واصل، ومفرج الكروب، ج ١، ص ٣٠.
- (٤) انظر: ابن واصل، ومفرج الكروب، ج ١، ص ٣٣.
- (٥) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٣٠.
- (٦) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٧.
- (٧) المصدر السابق، ج ١١، ص ٥٥.
- (٨) يصف ابن واصل ابتهاج المسلمين بتولي عماد الدين، حيث علموا أن ذلك بداية سعادة، وأن أمر هذه الدولة عظيم. انظر: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ١، ص ٦٥.
- (٩) بارين: بكسر الراء وياء ساكنة والنون، والعامة تقول: بمرين، وهي مدينة حسنة بين حلب وحملة من جهة الغرب. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٠-٣٢١.
- (١٠) كفرطاب: بالطاء المهملة، وبعد الألف ياء موحدة، بلدة بين المعرة ومدينة حلب في بركة معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٠.
- (١١) يقول ابن الأثير في أهمية الاستيلاء على هذا الحصن: "وكان حصن بارين من أضر بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهلها كانوا قد خربوا ما بين حماه وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم". انظر: الكامل، ج ١١، ص ٥١. وانظر في هذه الواقعة: تاريخ الدولة الأتابكية، ص ٥٩. وأما صاحب الروضتين فيذكر أن تاريخ الواقعة هو سنة ٥٣٤هـ. انظر: الروضتين، ج ١، ص ٣٤.

وفي سنة ٥٣٢ هـ ، تمكن " عماد الدين " من فتح حصن " شيزر " (١) ، بعد حصار دام أربعة وعشرين يوماً (٢) .

حاول " عماد الدين " بعد هذا النصر منازلة " دمشق " وفتحها مرة ثانية ، فحاصرها سنة ٥٣٤ (٣) ، ولما طال المحصار ، أرسل ملك " دمشق " " مجير الدين آبسق " (٤) ، يستدعي الفرنج لحرب " عماد الدين " ، وبذل لهم مدينة " بانياس " ان هبوا لاجده (٥) فهبوا فوراً ، وتوجه صاحب أنطاكية " الى " دمشق " ، والتحمت المعركة بين الفريقين ، وكانت الواقعة على المسلمين ، وسلمت " بانياس " الى الفرنج وقتل عامل " عماد الدين " (٦) .

بعد هزيمة المسلمين وتحالف ملك " دمشق " مع الفرنج ، شرع " جوسلين " صاحب " الرها " (٧) يهدد المسلمين في شمال بلاد الشام ، وامتدت غاراته فبلغت " آمد " (٨) ، و " الرقة " ونصيبين " (٩) . فتوجه " عماد الدين " الى

- (١) شيزر: بتقديم الزاى على الرء وفتح أوله: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة، بينهما وبين حماة يوم . وينسب الى شيزر جماعة ، منهم الامراء من بني منقذ . انظر: ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٨٣ .
- (٢) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٦-٦٠ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ .
- (٣) انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ٧٣ .
- (٤) هو " مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغتكين " ، ولد في بعلبك وملكوه فمشرق بعد أبيه " جمال الدين بن محمد بن بوري " الذي توفي سنة ٥٣٤ هـ في الفترة التي كان " عماد الدين " فيها محاصراً " دمشق " . وكان مدير دولته " معين الدين أنر " . توفي " مجير الدين " سنة ٥٦٤ هـ . انظر في كل ذلك : ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١٤ ، ص ٢١١ .
- (٥) قال ملك " دمشق " في رسالته الى الفرنج : " ان ملك دمشق يملك البيت المقدس ولا يترك لهم بلداً بالساحل " . انظر: مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨٨ .
- (٦) انظر: ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٢ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨٨-٨٩ .
- (٧) الرها: بضم أوله والمد والقصر ، مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام ، بينهما ستة فراسخ ، سميت باسم الذي استحدثها وهو الرها بن البلندي بن مالك بن دعر . انظر: ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٦-١٠٧ .
- (٨) آمد : " بكسر الميم لفظة رومية ، وهي بلد قديم حصين ركين ، مبني بالحجارة السود ، وحيلة بأكثره مستديرة به كاحلال " . انظر: ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٦ .
- (٩) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ ، ص ٩٤ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين ، ج ١١ ، ص ٣٦-٣٧ .

”الرها“ ، وحاصرها ثمانية وعشرين يوماً ، وملكها عنوة وقهراً ، فحرر الجزيرة  
وشمال الشام كله ، وذلك سنة ٥٣٩ هـ (١) .  
وفي سنة ٥٤١ هـ ، حاول ”عماد الدين“ تطهير البلاد في الداخل ،  
فاتجه صوب قلعة ”جعبر“ (٢) ، كما حاصر قلعة ”فك“ (٣) . وبينما هو نائم  
هاجمه جماعة من خدائه ، وكان على رأسهم غلام أفرنجي اسمه ”برتقش“ فقطعنه  
وفرّ مع جماعته إلى قلعة ”جعبر“ (٤) .  
بعد وفاة ”عماد الدين زنكي“ ، تملك ابنه الأكبر ”سيف الدين غازي“  
الموصل (٥) ، وسار إلى ”حلب“ وتملكها (٦) بمساعدة ”أسد الدين شيركوه“ (٧) .

- (١) كان لهذا الفتح أثر كبير في النفوس ، حيث كانت الرها بالنسبة إلى الفرنج  
بعد ”القدس وأنطاكية والقسطنطينية“ . انظر في هذا الفتح :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٨-١٠٠ .  
ابن تفرى بردى ، والنجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٧٥ .  
ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٦٦-٦٧ .
- (٢) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٠ .
- (٣) انظر : ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٧٣ .  
ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .
- (٤) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٢ .  
ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .
- (٥) + (٦) بعد وفاة عماد الدين زنكي ، أخذ سيف الدين خاتم والده حيث كان  
حاضراً ، وسار إلى الموصل فتملكها ثم إلى حلب . وقال له أسد الدين شيركوه :  
”وقد رأيت أن أصيرك إلى حلب ، وتجعلها كرسي ملكك ، وتجتمع في خدمتك  
عساكر الشام ، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعه إليك ، لأن ملك الشام يحصل  
بحلب ، ومن ملك حلب استظمر على بلاد الشرق“ انظر :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٢ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٦-٤٧ .
- (٧) شيركوه : عمواخونجم الدين أيوب بن شاذي والد الملوك الأيوبيين . أقام  
بادئ الأمر في ”دوين“ ، وهي في أدنى بلاد أذربيجان مما يلي الروم .  
ثم انتقل مع أخيه إلى الموصل ، فلقبهما عماد الدين زنكي وأكرمهما وشهدا  
معه معارك كثيرة . اتصل شيركوه بعد ذلك بنور الدين ، فجعله في خاصته  
لما عرفه عن شجاعته ووفائه ، واختاره ثلاث مرات للتوجه إلى مصر . وبعد  
أن استلم الوزارة بشهرين كانت وفاته سنة ٥٦٤ هـ . انظر في كل ذلك :  
ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٦-٤١ .  
ابن تفرى بردى ، والنجم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣-٥ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠ .

وحيثما بلغ " نور الدين محمود " (١) قدم أخيه إلى الشام ، كادت أن تقع الواقعة بين الأخوين . ولكنهما اتفقا خارج المتسكرة ، وتفاقتا ، وكيا ، وقال " سيف الدين " : " لا غرض لي في مقامك عندي ، وإنما غرضي أن تعلم الطوك والفرنجة اتفاقنا " (٢) . طمع الصليبيون من جديد في استعادة ما كان بحوزتهم من أيدي المسلمين ، فبدأت " الرها " بالعصيان ، بعد أن راسل " جوسلين " أهلها من الأرمن ، لكن " نور الدين " تمكن من القضاء على العصيان في مهده (٣) . كان ظهيمور " نور الدين " أيضا بحملة صليبية ثانية من جهة (٤) ، ونقطة تحول في تاريخ الحروب بين المسلمين والصليبيين من جهة ثانية (٥) . ففي سنة ٥٤٣ هـ ، حاصر الصليبيون الوافدون من أوروبا بزعامه ملك الألمان مدينة " دمشق " ، وقد أعانهم الصليبيون المستوطنون في بلاد الشام ، لكن " معين الدين أنر " خشي بأس " نور الدين " ، فاستنجد " بسيف الدين غازي " ، ففشلت الحملة ، وعاد ملك الألمان ومن معه خائبين (٦) .

- 
- (١) ولد " نور الدين " سنة ٥١١ هـ ، وبعد وفاة أبيه تملك " حلب " ، بينما تملك أخوة الموصل . وكان له دور كبير في الحروب بين المسلمين والصليبيين ، وتوفي سنة ٥٦٩ هـ . انظر في أخباره :  
ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٤٧ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ وغيرها .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٤٣ ، ١٤٣ وغيرها .
- (٢) ومما قاله سيف الدين لأخيه : " لم امتنعت من المجيء إليّ ؟ كنت تخافني على نفسك ، والله ما خطر ببالي ما تكره ؛ فلمن أريد البلاد ، ومع من أعيشه ، ومن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحب الناس إليّ ؟ " . فاستحيا نور الدين وعاد إلى خدمته . انظر :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٣ . الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٩ .
- (٢) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٤ . الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٩ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ ، ص ١١١ - ١١٢ .
- (٤) كان على رأس الحملة الصليبية الثانية ملك الألمان " كونراد الثالث " ، واشترك معه ملك فرنسا " لويس السابع " ، وذلك سنة ١١٠٠ م . انظر :  
ستيفن رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٦٧ .
- (٥) وذلك لما سذكروه من أحداث وفتوحات تمت في عهده .
- (٦) انظر في ذلك :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٢٩ - ١٣١ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٢ - ١١٣ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ .

وفي هذه السنة أيضا ، هزم المسلمون الصليبيين في مكان اسمه "بغرى" (١) ، وكاد المسلمون أن يسترجعوا "أنطاكية" بعد هذا الانتصار (٢) . وفي سنة ٥٤٤ هـ ، حاصر "نور الدين" "دمشق" لضمّ القوى الإسلامية ، إلا أن الحصار انتهى بالصلح (٣) . وفي السنة نفسها ، أحرز "نور الدين" نصرا كبيرا على الصليبيين في "آنب" من أعمال "أنطاكية" (٤) ، ثم استولى على حصن "أفامية" (٥) ، الذي كان الصليبيون يغيرون منه على أعمال "حماء وشيزر" وينهبونها (٦) .

وفي سنة ٥٤٥ هـ انتصر المسلمون على الصليبيين في موقعة كبيرة ، تمكن فيها "نور الدين" من قتل "البرنس" صاحب "أنطاكية" ، واستعاد الكثير من القلاع التابعة لها (٧) .

- 
- (١) بغرى: من المواقع المهمة للصليبيين في حلب . وكانوا قد انتصروا على المسلمين في هذا الموقع ، لذا فقد أشاد المؤرخون بهذا النصر . انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٦ .
- (٢) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣١ .
- (٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٤ .
- (٤) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٧ .
- (٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٩ .
- (٦) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٨ .
- (٧) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٠ .
- أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨ .
- (٥) أفامية: "بعد الألف ميم ثم ياء" مشتاة من تحت خفيفة ، وهي مدينة كبيرة وكورة من سواحل حمص ، وقد يقال لها: أفامية بالهمز في أوله . وقد ذكر قوم أن الأصل في أفامية "ثانية" بالثاء المثلثة والنون ، وذلك أنها ثاني مدينة بنيت في الأرض بعد الطوفان . انظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٣٣-٢٣٤ .
- (٦) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٢ .
- وقد ذكر ابن الأثير أن فتح حصن أفامية كان سنة ٥٤٥ هـ . انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩ .
- (٧) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧١-٧٢ .
- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١١٣ .
- ويذكر ابن الأثير أن الموقعة كانت سنة ٥٤٤ هـ . انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٤-١٤٥ .

وفي السنة نفسها سار "نور الدين" الى المناطق التي يسيطر عليها "جوسلين" شمالي "حلب" وأعمل الحيلة حتى تمكن من أسر "جوسلين" فكان أسره من أعظم الفتوح ، لأنه كان شيطانا عاتيا على المسلمين ، كما أصيبت النصرانية كافة بلسره" (١) . وكان من نتائج الموقعة أن استولى المسلمون على قلاع كثيرة منها : "تل باشر" (٢) و "عين تاب" (٣) و "عزاز" (٤) و "تل خالد" (٥) و "الراوندان" (٦) و "برج الرصاص" (٧) و "كفر سود" (٨) و "كفر لانا" (٩) و "دلوك" (١٠) .

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٢ وانظر في الموقعة أيضا : الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٤ . ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٠٢ .
- (٢) تل باشر : "قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب" انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠ .
- (٣) عين تاب : "قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية ، وهي من أعمال حلب" . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٦ .
- (٤) اعزاز : عزاز : بفتح أوله وتكرير الزاي وربما قيلت بالألف في أولها . وهي بليدة فيبدا قلعة ولها رستاق شمالي حلب" . انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١١٨ .
- (٥) تل خالد : قلعة من نواحي حلب . انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤١ .
- (٦) الراوندان : قلعة حصينة من نواحي حلب . انظر : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٩ .
- (٧) برج الرصاص : قلعة من أعمال حلب قرب أنطاكية . انظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .
- (٨) كفر سود : كفر سوت : بضم السين ثم واو وآخره تاء مثناة ، من أعمال حلب . انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٦٩ .
- (٩) كفر لانا : كفر لانا : بالثاء المهملة والقصر ، بلدة في سفح جبل من نواحي حلب . انظر : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٧٠ .
- (١٠) دلوك : بضم أوله وآخره كاف ، بليدة من نواحي حلب بالمواصم . انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٤٦١ .



وفي سنة ٥٤٧هـ ، تمكن " نور الدين " من فتح " انطرسوس " (١) واستطاع المسلمون في " عسقلان " (٢) أن يهزموا الصليبيين المجاورين لهم " بغزة " (٣) .  
وفي سنة ٥٤٩هـ ، يم " نور الدين " شطره قبلة " دمشق " وحاصرها فبغت ملكها " مجير الدين " (٤) الى الفرنج يستنجد بهم ، وبذل لهم الأموال الكثيرة ، ووعدهم بتسليمهم " بعلبك " ان أنجدوه . غير أن " نور الدين " استطاع أن يدخل البلد ويتسلمه ، وبذلك حقق وحدة بلاد الشام في الداخل (٥) .  
واصل المسلمون جهادهم ضد الصليبيين ، وتمكنوا سنة ٥٥١هـ من فتح حصن " حارم " (٦) ، حيث كان حصنا منيعا ومخيفا للمسلمين (٧) .

- 
- (١) انطرسوس : بلد من سواحل بحر الشام ، وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية ، وأول أعمال حمص . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٧٠ .
- (٢) عسقلان : " في الأقليم الثالث من جهة المغرب ، واسمها أعجمي . وقد ذكر بعضهم أن العسقلان : أعلى الرأس ، فإن كانت عربية فمعناه أنها في أعلى الشام . وهي مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين ، ويقال لها : عروس الشام ، وكذلك يقال لدمشق أيضا . وقد استولى عليها الفرنج سنة ٥٤٨هـ ، وبقيت حتى استنقذها صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .
- (٣) انظر في الموقعة : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٣ .
- (٤) لم يكن موقف ملك دمشق ليساعد " نور الدين " على جمع شمل البلاد ومحاربة الفرنجة ، فأزمع أمره على القضاء على " مجير الدين آبق " الضعيف المستضعف ، والذي كان دمية بيد " معين الدين أنر " ملوك جده " طختكين " . انظر في أخبار ملك دمشق :  
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١٤ ، ص ٢١١ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٩٤-٩٥ .
- (٥) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٧ .
- (٦) حارم : حصن وكورة جبلية تجاه أنطاكية ، وهي من أعمال حلب . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٠٥ .
- (٧) انظر في الموقعة وأهميتها : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠١ .  
ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ١٠٩ .

وفي سنة ٥٥٥٨ هـ، قرر "نور الدين" مهاجمة الصليبيين في "طرابلس"، فتوجه الى حصن "الأكراد" (١)، لكن الصليبيين هاجموا المسلمين نهارا على غرة، فانهمز المسلمون (٢).

أيقن "نور الدين" بعدها، أن لا سبيل الى طرد الصليبيين وتحريص "القدس"، الا بتوحيد شمل الأمة في شطريها الكبيرين "مصر والشام" (٣).

وحدث أن دب نزاع على الوزارة في "مصر" بين "شاور" (٤) و"ضرغام" (٥)، فاستنجد "شاور" ب"نور الدين"، وسار "أسد الدين شيركوه" الى "مصر"، على أن يكون "شاور" متصرفا تحت أمرة "نور الدين". وبعد أن تمكن "شيركوه" من خلع "ضرغام" سنة ٥٥٥٩ هـ، وتسليمها الى "شاور" (٦)، نقض "شاور" كسل وعوده، فما كان من "نور الدين" الا أن سير "شيركوه" مرة ثانية الى "مصر" وذلك سنة ٥٥٦٢ هـ (٧)، فاستنجد "شاور" بالفرنج، واستطاع "شيركوه" ومن معه أن يقفوا أمام جموع "شاور" والفرنجة (٨). وبموجب "ابن الأثير" عندما أرخ هذه الحادثة من "أن النبي فارس تهزم عساكر مصر وافرنج الساحل" (٩).

- (١) الأكراد: وهي المنطقة المسماة "البيعة" من أعمال حلب. وكانت مصدر خطر كبير على المسلمين. انظر: أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٢٧.
- (٢) انظر في الموقعة: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٩٤.
- (٣) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٢٧.
- (٤) ندرك ذلك من خلال جهود "نور الدين" في سبيل الوحدة بين مصر والشام، وضمهما تحت امرته.
- (٥) هو أبو شجاع شاور بن جبير السعدي، كان أميراً للجيش المصري، تمكن ضرغام منافسه من قتل ابنه والتغلب على الوزارة سنة ٥٥٥٨ هـ. انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣-٥.
- (٦) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٩٨.
- (٧) هو ضرغام بن سوار منافس شاور على الوزارة الفاطمية. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٢٨.
- (٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣-٥.
- (٩) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٩٨. الروضتين، ج ١، ص ١٢٩.
- (١٠) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٣٢٤. مفرج الكروب، ج ١، ص ١٤٨.
- (١١) مخاف بعض الجنود المسلمين من الهزيمة أول الأمر، فكان رأيهم العودة الى الشام. لكن "شرف الدين برغش" قال لهم: "من خاف القتل والجراح فلا يخدم الملوك بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته. والله لئن عدتم الى الملك من غير غلبة وبلاء، تعذرون فيه ليأخذن اقطاعاتكم ويقول لكم: أتأخذون أموال المسلمين وتقرنون من عدوهم... الخ". انظر: مفرج الكروب، ج ١، ص ١٤٨. الروضتين، ج ١، ص ١٤٣.
- (١٢) الكامل، ج ١١، ص ٣٢٦.

وفي سنة ٥٦٣ هـ ، انتزع " نور الدين " قلعة " منبج " (١) . من صاحبها " ابن حسان " الذي ساءت أفعاله ضد المسلمين (٢) .  
 وفي سنة ٥٦٤ هـ ، تمكن " أسد الدين شيركوه " برفقة " صلاح الدين الأيوبي " من القضاء على الصليبيين في " مصر " ، واستلم " شيركوه " الوزارة (٣) ، ولكنه توفي في السنة نفسها ، فاستلم الوزارة " صلاح الدين " (٤) .  
 وفي سنة ٥٦٥ هـ ، بدأ الصليبيون حملتهم الثالثة (٥) ، فنزلوا على " دمياط " (٦) ، وأرسل " نور الدين " " صلاح الدين " لمواجهةهم ، حيث كان وزيراً في " مصر " ، وتمكن المسلمون من صد هذا الهجوم (٧) .

- (١) منبج : بالفتح ثم السكون ، بلد قديم ، وهي مدينة واسعة ، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . انظر: ياقوت الحموي معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٢٠٥ .
- (٢) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٠ .
- (٣) ضاق الخليفة " المعاضد " بخيانة وزيره " شاور " ، فبعث الى " نور الدين " يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع خطر الفرنجة عن " مصر " ، وأرسل في الكتب شعور النساء لاستتار حميته ، وطلب منه أن ينقذهم من العدو والمحتل . فطلب " نور الدين " من " شيركوه " وابن أخيه " صلاح الدين " أن يتوجهوا الى " مصر " . وبعد مواجهة الفرنجة ، اجتمع " شيركوه " " بالمعاضد " فخلع عليه الوزارة ، ففرح أهل " مصر " بقدمه . انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٥ - ٣٤٠ .
- (٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .
- (٥) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤١ .
- (٦) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٥ .
- (٧) انظر: ستيفن رنسيمن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦١٧ .
- (٨) دمياط : مدينة قديمة بين تليس ومصر ، وهي ثغر من ثغور الإسلام . انظر: ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ - ٤٧٥ .
- (٩) انظر في الموقعة : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٥١ .
- (١٠) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

وفي سنة ٥٦٦هـ حاصر المسلمون غزة<sup>(١)</sup> ، حيث كانت معقلا  
للدأويّة<sup>(٢)</sup> ، وكان انتصارهم كبيرا ، فقتلوا وأسروا عددا كبيرا من  
الصليبيين<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ٥٦٧هـ تحيّن صلاح الدين "فرصة مرض" الماضد  
الفاطمي<sup>(٤)</sup> ، فقطع الخطبة له ، وأقيمت شعائر الدعوة العباسية ، ودعي على  
المنابر للخليفة العباسي "المستضي" بنور الله<sup>(٥)</sup> .  
ابتهم "نور الدين" بهذا الكسب السياسي للخلافة العباسية فهو  
في حقيقته جوهر وحدة "مصر والشام" ، حيث قلّده الخليفة العباسي السيفين  
اشعارا بتقليده "مصر والشام"<sup>(٦)</sup> .

- (١) غزة: "مدينة في أقصى الشام من ناحية مصر ، بينها وبين عسقلان فرسخان  
أو أقل . وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان . انظر:  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ .
- (٢) أطلق المسلمون هذا الاسم على جماعة فرسان المعبد (Templers)  
ومؤسسها (Hugh de Payns) سنة ١١١٩م ، وذلك لحماية طريق  
الحجاج المسيحيين بين "يافا" و "بيت المقدس" . ولعب فرسان هذه  
الطائفة هم "الاستبارية" دورا خطيرا في هذه الحروب ، مع أنهم  
كانوا يتظاهرون في البداية بالزهد والتقشف .  
انظر ما كتبه "جمال الدين الشيال" في تحقيقه كتاب "مفرج الكروب"  
ج ١ ، ص ١٨٨ ، هامش رقم ٢ ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، هامش رقم ٢ .
- (٣) انظر في هذه الموقعة :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٥ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٢-١٩٣ .
- (٤) انظر في تفصيل أخباره : حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية .  
(٥) قيل ان أول من دعا في خطبته للخليفة العباسي رجل يعرف بالأمير  
العالم المتوفى سنة ٥٧٥هـ ، وقيل بل هو "شمس الدين بن أبي مضاء  
البعليكي" . انظر في ذلك :  
ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣ .
- (٦) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣-١٩٥ .  
انظر في ذلك :  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١٨-٢١٩ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

كان أمل "نور الدين" من هذه الوحدة أن يستعيد "بيت المقدس"،  
اذ أرسل في جواب الى الخليفة "العاقد" قبل وفاته: "أنه ما أرسلهم واعتمد  
عليهم الا لعلمه بأن "قنطاريات" (١) الفرنج ليس لها الا سهام الأتراك، وأن  
الفرنج لا يخافون الا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الديار المصرية، ولعل الله  
سبحانه وتعالى ييسر بهم فتح بيت المقدس" (٢).  
لكن وفاة "نور الدين" سنة ٥٦٩ هـ (٣)، منعت من تحقيق هذا الهدف  
الكبير.

وفي السنة نفسها، دبّرت مؤامرة كبرى لإعادة الخلافة الفاطمية في  
"مصر"، واشترك فيها الشاعر "عمارة اليميني" (٤)، والكاتب "عبد الصمد" (٥)،  
والقاضي "المويرس" (٦) و"وداعي الدعاة" ابن عبد القوي، وجماعة من السودان  
ورجال القصر. وتم الاتفاق على استدعاء الفرنجة من الشام وصقلية، واتصلوا  
بصاحبهم "سنان" المقيم بقلعة "مصياف"، وذكروا له "أن الدعوة واحدة والكلمة  
جامعة، وأنه ما بين أهلها خلاف يجب به قعود عن نصره، واستدعوا منه من يقوم  
على الملك غيلة، ويشب عليه مكيدة وحيلة" (٧).

- 
- (١) القنطاريات: نوع من الرماح، وهي لفظة معربة عن اليونانية.  
انظر ما نقله عمر موسى باشا عن معجم دوزي في كتابه أدب الدول  
المتابعة، ص ٣٠، هامش رقم ١.
  - (٢) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ١٨٣.
  - (٣) انظر في وفاته: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٣٧.
  - (٤) ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢.
  - (٥) انظر في هذا العهد: ص ٧٧، هامش رقم (١).
  - (٦) في الروضتين عبد الصمد القشه، انظر: ج ١، ص ٢٢٠.
  - (٧) وفي مفرج الكروب عبد الصمد الكاتب، ج ١، ص ٢٤٨.
  - (٨) هو نور الدين الحواري، وكان ناظر الديوان في عهد العاقد. انظر:  
ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٧٥.
  - (٩) انظر:  
ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٤٨-٢٤٩.
  - (١٠) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٢٢-٢٢٠.

افتضح أمر هذه الفئة (١)، فألقى صلاح الدين القبض عليهم ، وصلبوا بين القصرين في القاهرة ، ففضي على المؤامرة في مهدها (٢) .  
يضاف الى هذا الحدث ، أن الصالح اسماعيل (٣) الذي تولّى بلاد الشام بعد "نور الدين" ، كان صغيراً ، وصار دمية في أيدي أوصيائه (٤) في "حلب" و"دمشق" . فشرع الفرنج يهدّون البلاد من جديد ، وحاصروا "بانياس" سنة ٥٧٠هـ ، فعقد معهم صاحبها "شمس الدين" هدنة ، بعد أن قطعوا على المسلمين قطيعة (٥) .

- (١) كان الواعظ زين الدين أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجال المتوفى سنة ٦٠٠هـ بمصر ، كان يناجي هذه الفئة فيما زين لهم من سوء أعمالهم ويدخلهم مطلقاً على أحوالهم ، فأطلع صلاح الدين على نواياهم .  
سنا البرق الشامي ، تحقيق : رمضان ششن ، ص ١٤٧-١٤٨ .
- (٢) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٢-٤٠٤ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .
- (٣) انظر أخباره في :  
ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٦٢ ، ص ١٠-٦ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٧-٢٣٠ .
- (٤) وهم : شمس الدين بن المقدم أمير المساكر في دمشق ، وجمال الدين ربحان والي القلعة ، والقاضي كمال الدين مديراً لمور الدولة . انظر :  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٦٢ ، ص ٨-١٠ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٥ .
- (٥) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢١٩-٢٢٠ .  
انظر :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٠٨ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٦٢ ، ص ٣٥ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

ان هذه الأحداث ، دفعت " صلاح الدين " الى استدراك ما قد يحصل من ضعف وانقسام في الدولة ، وما قد يخسرونه أمام العدو الخارجي الذي يترصد بهم . فتوجه الى " دمشق " (١) ، ولاتى جموع صاحب " الموصل " ، وصاحب " منبج " ، وعساكر " حلب " ، والمناصرين " للصالح اسماعيل " (٢) ، واستطاع أن يتغلب عليهم جميعا قرب " حماة " سنة ٥٥٧٠ هـ (٣) .

وبذلك ينتهي حكم " الزنكيين " لبلاد الشام ، والذين حرروا كثيرا من البلاد ، ووحّدوا الأقاليم العربية ، وكانوا يستمدون سلطتهم من الخليفة العباسي في بغداد ، ويحرصون على ذلك رغم استقلالهم في مناطق نفوذهم (٤) .

- (١) كتب " صلاح الدين " الى القاضي " كمال الدين " قبل توجهه يقول :  
" لو أن نور الدين يعلم أن بينكم من يقوّم مقامي لسلم اليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعمد الى أحد بتربية ولده والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني ، وسوف أصل الي خدمتكم ، وأجازى انعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأجازى كلا منكم على سوء صنيعه في ترك الذب عن بلاده " .  
انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧ .
- (٢) أظن " صلاح الدين " بعد وصوله " دمشق " أنه يريد خدمة الملك الصالح ، لكن مدبرى أمر الملك الصالح أرسلوا يستنجدون ، فقدمت العساكر من " الموصل " ، و " حلب " و " منبج " . انظر:  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨ - ١٠ .
- (٣) انظر في الموقعة: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٠ - ٤١١ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٩ .
- (٤) من الغريب ما ذكره " بطرس البستاني " في " أدبنا العرب " : " أن السلطان نور الدين محمود زنكي صاحب مصر والشام من قبل الفاطميين " وأن الخليفة " العاضد " استنجد " بمامله السلطان نور الدين زنكي " .  
انظر: أدبنا العرب ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .  
ومن المعروف أن " نور الدين " لم يكن عاملا من عمال الفاطميين في بلاد الشام ، وإنما كان يستمد سلطته من خليفة بغداد العباسي .  
انظر تأكيدا لذلك :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢١٨ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٩ .

عمل "صلاح الدين" جاهدا لتوحيد الأمة ، ففي سنة ٥٧٠هـ ضم "حمص" و"حماة" و"بعلبك" ، وحاصر "حلب" (١) . الا أنه لم يستطع توحيد الشام نهائيا حتى بعد وصول تقليد الخليفة العباسي له ، فأرجأ ذلك الى وقت آخر (٢) .  
وتابع جهاده ضد الصليبيين ، لكنه هزم سنة ٥٧٣هـ (٣) في "الرملة" (٤) ، فواصل الصليبيون غاراتهم على "دمشق" سنة ٥٧٤هـ (٥) .  
وفي سنة ٥٧٥هـ ، التقى المسلمون بالصليبيين قرب "مرج العيون" (٦) ، وكان من نتائج الموقعة تخریب حصن "بيت الأحزان" ، وأسر مقدم "الداوية" والاستتارية" (٧) .

- (١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٧-٤٢٠ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١-٢٣ .  
البندارى ، سنا البرق الشامي ، ص ١٨٠-١٨٤ .
- (٢) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٢ .
- (٣) انظر في الموقعة: ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٣ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٨ .
- (٤) الرملة: "مدينة عظيمة بفلسطين" . بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر يوما ، وهي كورة من فلسطين ، استنقذها صلاح الدين من الفرنج ٥٨٣هـ وخرّبها خوفا من استيلاء الفرنج عليها مرة أخرى سنة ٥٨٧هـ .  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩ .
- (٥) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٢-٤٥٣ .
- (٦) مرج العيون: بين حلب وحماة في الشام . معجم البلدان ، ج ٥٥ ، ص ١٠١ .  
ذكر ابن الأثير أن الداوية والاستتارية ، كانوا متحصنين في "بيت الأحزان" (مرج العيون) ، وكان يأتي المسلمين منه ضرر كبير . ففاوض السلطان الفرنج علي هدمه فطلبوا مبلغا يعادل تكاليف بنائه ، فأشار عليه "تقي الدين" أن يبذل هذا المال لأجناد المسلمين ، ويهاجموا الحصن في "مرج العيون" ، وهذا ما حصل . انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ .
- (٧) الاستتارية: هذه هي التسمية العربية لطائفة الفرسان المسيحية الذين ، وهو تحريف ظاهر للفظ الإنجليزي ( Hospitallers ) أو الفرنسي ( Hospitalliers ) ، وكان يطلق في تلك الفترة على طائفة من الفرسان الدينيين ، وقد أسس هذه الطائفة ( Blessed Gerard ) سنة ١٠٩٩م بعد الاستيلاء على بيت المقدس . وقد لعبت هذه الطائفة والداوية دورا خطيرا في الحروب . انظر ما أثبتته جمال الدين الشيال في تحقيق النوادر السلطانية ، ص ٧٧ ، هامش رقم ٥٥ .  
وانظر في نتائج الموقعة: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٦ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٦ . الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨ .



وتمكّن صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ، من توحيد الشام تحت سلطانه ،  
 وبذا أصبحت الدولة بقطريها تحت امرة " الأيوبيين " (١) .  
 وبعد أن أنهى " صلاح الدين " عمليات التوحيد بضمّه الحصون والقلاع  
 الشامية تحت امرته (٢) ، بدأ يتطلّع الى الهدف الأكبر الذي عمل أسلافه من أجله  
 وهو تطهير الديار من الصليبيين وتحرير "القدس" .  
 ففي سنة ٥٨٠ هـ ، هاجم المسلمون " الكرك " ، ثم انتقلوا الى " نابلس " (٣) .  
 وفي سنة ٥٨٣ هـ تمكّنوا من فتح " طبرية " (٤) ، فلاند الصليبيون بتل  
 " حطين " (٥) ، وحجرت موقعة عظيمة ، انتصر فيها المسلمون ، وأسر وقتل عدد  
 كبير من الصليبيين (٦) . ومن بين هؤلاء الأسرى أمير الكرك " أرناط " ،

- (١) انظر في ذلك : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨ ، ٤١١ ، ٤٦٨ ، ٤٣١ ، ٤٦٨ ،  
 ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٧٣ .  
 ابن واصل ، مفجّ الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧٦ ، ٢٢٦ ، ٢٩٦ ، ٣٦٦ ، ٤٦٤ ، ٥٢٤ .  
 (٢) انظر في هذه الأعمال : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٤ ، ٤٩٣ ، ٤٩٩ ،  
 ابن واصل ، مفجّ الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣١ ، ٢٤٢ ، ٢٣٣ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ،  
 انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٠٦ .  
 ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٩٥ .  
 (٤) انظر : العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٢ .  
 (٥) حطين : " قال الحافظان أبو القاسم الدمشقي وأبو سعد المرزوي : انها  
 قرية بين أرسوف وقيسارية وبها قبر شعيب عليه السلام . ويضيف ياقوت :  
 انها بين طبرية وعكا ، وتبعد عن طبرية حوالي فرسخين . وذكر أيضا أن  
 " صلاح الدين " وقع بالافرنج في منتصف ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ وموقعة  
 عظيمة كانت سببا لافتتاحه الساحل . انظر : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .  
 (٦) وصف ابن الأثير وقائع المعركة فقال : " التقى العسكران أول الأمر على  
 جبل دلبرية ، ولم تزل الحرب بينهم الى أن حجز الظلام ، فبات كل فريق  
 في سلاحه . وفي الصباح حاز المسلمون عنهم ماء البحيرة وراءهم ، فلم  
 يبق للفرنج اليه وصول . فاشتد بهم العطش ، وفرغ ما معهم من الماء  
 وأخذتهم سهام المسلمين ، وكثرت فيهم الجراح ، واستولى عليهم الأسر  
 والقتل . فأووا الى جبل حطين ليعصمهم من البلاء بعد أن انهزمت  
 منهم طائفة . وتبعتهم طائفة من المسلمين ، فلم ينج منهم أحد " .  
 وقال ابن الأثير أيضا : " فمن شاهد القتلى ذلك اليوم قال : ما هناك أسير  
 ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل " . ولم ينج في الكسرة من ألوف  
 الفرنج الا آحاد ، وامتلات الأرض بالأسرى والقتلى . انظر :  
 الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .

والملك "جفرى" ، وابن صاحب "الاسكندرونة" ، وصاحب "مرقية" ، كما أسرق قسم كبير من فرسان "الداوية" و"الاستارسة" ومقدّميهم (١) .  
كانت موقعة "حطين" نقطة تحول كبرى في تاريخ الحروب بين المسلمين والصليبيين (٢) . قال "ابن الأثير" في أهميتها : "وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل سنة احدى وتسعين وأربعمائة الى الآن بمثل هذه الموقعة" (٣) .  
وبعد ما حاصر المسلمون "القدس" يوم الأحد في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وبعد محاولات عديدة (٤) ، تمكّنوا من فتح

- 
- (١) انظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٦-٥٣٨ .  
وبالنسبة الى معاملة الأسرى ، ذكر المؤرخون : أن السلطان الناصر أمر بضرب دهليز سرادقه ، فنزل وصلّى لله تعالى ، وأحضر ملوك الفرنجية ومقدّميهم ، وأجلس الملك جفرى الى جانبه ، والبرنس صاحب الكرك الى جانب الملك ، ثم عرض عليهما الإسلام ، ولما رفض صاحب الكرك قتله الناصر وفاء لنذره ، وجزاء على غدره بالمسلمين . انظر :  
العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٣٠-٣٥ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٠-١٩٥ .
- (٢) تمكن المسلمون بعد هذه الموقعة من فتح "القدس" وباقي الثغور الإسلامية مثل : "تنين" و"صيدا" و"بيروت" و"عسقلان" و"نزة" و"الكرك" وغيرها .  
انظر: العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ٩٩-١١٢ .  
ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩-٨١ .
- (٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٤ .
- (٤) قال العماد الأصفهاني في وصف عملية الفتح : "كان في القدس من الفرنج ستون ألف مقاتل ، وحاول الفرنج أول الأمر المقاومة ، إلا أنهم لم يستطيعوا فطلبوا المفاوضة . ورفض السلطان طلبهم ، إلا أن يستولي عليها بالقوة ، كما استولوا عليها قبل احدى وتسعين عاما . لكن الصليبيين هددوا بتخريب الأماكن الإسلامية قبل تسليمها ، ثم بقتل كل الأسرى المسلمين ، مما جعل السلطان يعطيهم الأمان على أرواحهم بشرط أن يدفعوا عشرة دنانير عن الرجل وخمسة عن المرأة ودينارا عن الطفل" . انظر: الفتح القسي ، ص ١٢٤ .

المدينة المقدسة ، يوم الجمعة في السابع والعشرين من الشهر نفسه .  
فخر " صلاح الدين " ساجدا لله ، شاكرًا على هذه النعمة الكبرى (١) .

بعد تحرير " القدس " ، تمكن المسلمون من تحرير مواقع وعصون كثيرة منها ؛  
" بفراس وصفد وعكا وغيرها ، وذلك في الفترة ما بين ٥٥٨٤ - ٥٥٨٧ م (٢) . ثم  
عقدت هدنة مع الفرنج سنة ٥٥٨٨ م (٣) .

(١) وفيما جرى بعد الفتح ، يذكر المؤرخون أن المسلمين لم يتعرضوا لأحد  
بمكروه ، ولم تتعرض دار للنهب ، بينما كان الفرنج يخوضون بالدماء  
عندما احتلوها . ويستغرب المؤرخون ، كيف أن البطريق " هرقل " ،  
يوذي عشرة دنانير ويخادر ، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب  
بينما دفع " باليان " ثلاثين ألف دينار . ويذكرون أيضا ، أن الملك  
العادل طلب من أخيه " صلاح الدين " ، إطلاق سراح ألف أسير  
مكافأة له عن خدماته ، بينما لم تدفع الكنيسة أو الداوية " أو " الاستارية " ،  
شيئا لإطلاق سبل الأسرى . كما أن " صلاح الدين " أطلق الشيخ  
والأطفال والنساء ، حتى ان " هرقل " التمس من الناصر أن يهبه بعض  
الأرقاء ليطلقهم ، فوهبه الناصر سبعمائة أسير . انظر في كل ذلك :

العماد الأصفهاني ، الفتح القسي ، ص ١٤٠ .

ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٠-٤١ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٥-٥٤٩ .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١-٢١٧ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٤-٩٨ .

وانظر مقابل ذلك ، ما جرى عندما احتل " الصليبيون القدس " ،

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١١٨-١١٩ .

انظر في هذه الفتوحات :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٤٦٠-١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، وغيرهما .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٤ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٤ .

انظر :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٨٥ .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

لم تكن طموحات "صلاح الدين" تتف عند هذا المدى، بل كان يريد أن يجدد سيرة الفاتحين المسلمين، فيطبق الآفاق برجاله، ويحكم العالم كله. وما يؤكد هذه النية، قوله لابن شداد، "عندما كان يودع أخاه العادل قرب "عسقلان" وهو عائد إلى "مصر"، في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائره، وأتبعهم فيها حتى لا ألق على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت" (١).  
بيد أن النية عاجلته سنة ٥٥٨٩ هـ (٢)، ففقد نحيبه في "دمشق" دون أن يحقق هذا الحلم الكبير. لكنه حقق أمنية المسلمين بتحرير "القدس"، وتوحيد بلاد "الشام" و"مصر واليمن والحجاز".  
كان موت "صلاح الدين" بمثابة تشتت الوحدة الكبرى التي أقامها بكفاحه المستمر، وكان ذلك إيذانا بانقسام ملكه بين ورثته، فالديار المصرية لابنه العزيز "عماد الدين عثمان" (٣)، والشام لابنه الأكبر الأفضل "نور الدين علي" (٤)، و"حلب" لابنه الظاهر "غياث الدين غازي" (٥).

- 
- (١) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٢٢.  
(٢) انظر في وفاته: المصدر السابق، ص ٢٤٦.  
ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٤١٦.  
ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٩٥.  
ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٥١.  
وقال ابن شداد يصف ذلك اليوم الذي أصيب به المسلمون بوفاة الناصر: "وكان يرما لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون. وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى. وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتضون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم، فأني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفداه الناس بالنفوس".  
النوادر السلطانية، ص ٢٤٧.  
(٣) ولد سنة ٥٦٨ هـ وتوفي سنة ٥٩٥ هـ. انظر أخباره في: أبو شامة المقدسي، تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على الروضتين، ط ٢، ص ١٢٠.  
ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٨٢.  
(٤) ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ، وتوفي سنة ٦٢٢ هـ. انظر أخباره في: أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، ص ١٤٥.  
(٥) ولد سنة ٥٨٨ هـ، وتوفي سنة ٦١٣ هـ. انظر أخباره في: أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، ص ٩٤.

والكرك والشوك وجعبر<sup>١</sup> لأخيه الملك العادل \* سيف الدين محمد \* (١) ، وحماد<sup>٢</sup> وتوابعهما للملك المنصور \* محمد بن تقي الدين عمر<sup>٣</sup> ، وحمص والرحبة<sup>٤</sup> \* لأسد الدين شيركوه الصنير<sup>٥</sup> .

دبّ الخلاف بين ملكي مصر والشام : الأفضل والعزیزه فالأفضل أكبر أبناء صلاح الدين \* وهو المعهود اليه بالملك من بعده ، فأغراه وزيره " ضياء الدين بن الأثير " (٤) بطرد أمراء أبيه ، ففارقوه الى أخويه العزيز والظاهر<sup>٥</sup> . وحرّض الأمراء في مصر الملك العزيز على الاستقلال بالسلطة ، وعزل أخيه ملك الشام ، ووافق عمه الملك العادل على ذلك ، واستطاعا أن ينزعا<sup>٦</sup> سنة ٥٩٢هـ (٦) .

- 
- (١) ولد سنة ٥٣٩هـ ، وتوفي سنة ٦١٥هـ . انظر أخباره في :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١١١ .  
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٦٦ - ١٧٠ .
  - (٢) توفي سنة ٦١٧هـ . انظر :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٢٤ .
  - (٣) توفي سنة ٦٣٧هـ . انظر :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٦٩ .  
وانظر في تقسيم الولايات بين ورثة صلاح الدين :  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٣ - ٥ .
  - (٤) هو الكاتب المشهور ، صاحب المثل السائر . توفي سنة ٦٣٨هـ . انظر :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٦٩ .
  - (٥) انظر في ذلك :  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢٨ .
  - (٦) انظر :  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٢١ - ١٢٣ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .

هكذا استشرى الخلاف بين ورثة "صلاح الدين" (١)، لكن تربيص العدو بهم في الشجور جعلهم يوحدون جهودهم ، فأجمعوا أمرهم على الملك "المادل" حسما لكل خلاف (٢) .

لكن الفرنجة طمعوا بالبلاد من جديد ، فبدأوا بحملة صليبية رابعة وهاجموا "عكا" سنة ٥٩٤ هـ ، ثم قصدوا "بيروت وصيدا" (٣) .  
وزاد طمعهم بالمسلمين بعدما لمسوا تفرقهم ، فشرعوا يتسللون الى داخل البلاد ، حتى أنهم هاجموا "حماة" سنة ٦٠١ هـ ، وأخذوا النساء الفسالات من باب البلد ، ولولا شجاعة ملكها المنصور، لما أبقوا من أهلها أحدا (٤) . كما هاجموا ثغر "دمياط" (٥) سنة ٦١٥ هـ ، بيد أنهم هزموا شر هزيمة (٦) .

وبعد وفاة الملك "المادل" سنة ٦١٥ هـ ، تفاقم الخلاف بين أولاده ، فتوجه الملك "الكامل محمد" (٧) صاحب "مصر" الى "الشام" ، لينزعه من أخيه الملك "المعظم عيسى" (٨) ، لكنه امتنع عن قصده بعد استنجاد الملك "المعظم عيسى" بأخيه الملك "الأشرف موسى" (٩) صاحب "ميا فارقين والبلاد الجزرية" (١٠) .

- 
- (١) انظر تفصيل هذه الخلافات :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٥٥ ، ١٦٠ ، ١٩٢ ، ٣١٣ وغيرها .  
(٢) انظر : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .  
(٣) انظر : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٣٢ .  
(٤) المصدر السابق ، ج ٢ : ص ١٩٦ .  
(٥) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر ، وهي ثغر من ثغور الإسلام .  
انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٧٣ - ٤٧٥ .  
(٦) انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٨ - ٢٤٢ .  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .  
(٧) توفي سنة ٦٢٧ هـ . انظر :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٦٦ .  
(٨) توفي سنة ٦٢٥ هـ . انظر : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .  
(٩) توفي سنة ٦٣٥ هـ . انظر : المصدر السابق ، ص ١٦٥ .  
(١٠) انظر في هذه الأحداث :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٣٥٠ - ٣٥٢ .  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٤ - ١١٥ .

وفي سنة ٦١٦ هـ ، أخرب الملك " المعظم عيسى " أبراج " القدس " وسورها  
 خوفا من استيلاء الفرنج عليه . فتشرد سكان " بيت المقدس " من المسلمين ،  
 بعضهم توجه إلى " دمشق " ، وبعضهم إلى " مصر " ، وبعضهم إلى " الكرك " (٢) .  
 وفي سنة ٦٢٦ هـ ، اتفق الملك " الكامل محمد " صاحب " مصر " ، والملك  
 " الأشرف موسى " صاحب " ميافارقين والبلاد الجزرية " على خلع ابن أخيهم  
 الملك " الناصر داود " ، وتماد نامع الفرنج " على أن يسلموا اليمم " البيت المقدس  
 ومعه مواضع يسيرة من البلاد ، وتكون باقي البلاد مثل " الخليل ونابلس وطبرية  
 وغير ذلك بيد المسلمين " (٣) .

وبعد أن حرر الملك " الناصر داود " (٤) " القدس " سنة ٦٣٧ هـ (٥) ،  
 اتفق مع الملك " الصالح اسماعيل " صاحب " دمشق " ، على تسليم " القدس " من  
 جديد إلى الصليبيين ، وذلك سنة ٦٤١ هـ (٦) .

- (١) توفي سنة ٦٢٥ هـ . انظر: أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٥٢ .
- (٢) قال أبو شامة في خراب بيت المقدس " ووقع في البلد ضجعة مثل يوم  
 القيامة ، وخرج النساء المخدرات ، والبنات ، والشيوخ ، والمعجائز والشبان ،  
 والصبيان إلى الصخرة والأقصى . فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث  
 امتلأت الصخرة ومخرب الأقصى من الشعور ، وخرجوا هارين وتركوا أموالهم  
 وأثقالهم وما شكوا أن الفرنج تصحبهم وامتلات بهم الطرقات . . . .  
 ومات خلق كثير من الجوع والعطش . وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها .  
 ونهبت الأموال التي كانت لهم في القدس " . انظر:  
 أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٦ .
- (٣) وانظر في خراب بيت المقدس ابن واصل صفح الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٢ .  
 انظر في ذلك: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٢-٤٨٣ .  
 ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧١ .  
 ابن واصل ، صفح الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ .
- (٤) كان سلطان دمشق بعد أبيه نحو من سنة ، ثم اقتصر له على الكرك وأعماله ،  
 ثم سلب ذلك كله فصار متنفلا في البلاد إلى أن مات سنة ٦٥٦ هـ . انظر:  
 أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٥٢-١٥٣ .
- (٥) انظر: مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥ .
- (٦) انظر: ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٩-٣٧٠ .  
 أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٨٦ .  
 مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦ .

وفي سنة ٦٤٢ هـ، تمكن الملك الصالح نجم الدين أيوب (١) من تحرير القدس نهائياً (٢) .  
وهكذا اتسم عهد الأيوبيين المتأخرين بالتناوب والتنازع فيما بينهم، يهاجم بعضهم بعضاً، وأصدق وصف لهم قول القاضي الفاضل: "أما هذا البيت فأن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وأما الأبناء منهم اختلفوا فملكوا" (٣) .  
ويمكن القول: إن الحياة السياسية في هذه الفترة شهدت تتابع دولتين، واستطاعت على الرغم من كل الخلافات الداخلية، أن تؤدي واجبهما كاملاً في هذا الصراع الجبار مع الصليبيين .

- 
- (١) هو أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، كان سلطان دمشق، وكانت وفاته سنة ٦٤٧ هـ - ١٢٥٠ م انظر: أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، ص ١٨٣ .  
(٢) انظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٧٠ .  
(٣) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢ .



## المظاهر الاجتماعية العمامة

لن نستطيع الألمان بمختلف النواحي لنشاط الفرد في هذه الفترة، وإنما سنكتفي بالتحدث عن فئات المجتمع والمذاهب الفقهية والمقائد، ونختم حديثنا بتناول بعض أخلاق العصر .

### أولاً: - فئات المجتمع

قام الزنكيون (١) فحكموا البلاد بعد أن أسس الصليبيون أربع ممالك لاتينية هي: الرها وأنطاكية وطرابلس والقدس (٢) . ولم يكن هدف الصليبيين استخلاص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين فقط، وإنما كانوا يهدفون إلى الاستيطان في الشرق الإسلامي كله . وقد تبين ذلك في الخطاب الذي ألقاه البابا أوربانوس في مدينة "كليرمونت" الفرنسية سنة ١٠٩٥م وجاء فيه: "إنها ليست لاكتساب مدينة واحدة، بل لا متلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا حجة البيت المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين، وامتلكوا أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار، فمذه الأرض - كما قالت التوراة - تفيض لبناً وعسلاً" (٣) .

كان الزنكيون موالي للسلاجقة الأتراك، فآق سنقر "جد نور الدين"، كان ملوك السلطان السلجوقي عضد الدولة "ألب أرسلان" (٤) . فلا عجب أن يعتمدوا على الأتراك كثيراً، حيث ورد في جواب "نور الدين" إلى الخليفة العاضد الفاطمي: "قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، وأن الفرنج لا يخافون إلا منهم" (٥) . واستطاع الزنكيون أن يعيدوا الاطمئنان إلى المسلمين، بعد تفاقم خطر الفرنجة وتهدد يدهم الشرق الإسلامي كله . فكان أكبر نصر أحرزه "عماد الدين" هو فتح "الرها" سنة ٥٣٩هـ (٦) . وتبلغ البلاد أوج قوتها في عهد "نور الدين"، وذلك بوحدة مصر والشام (٧) .

- (١) امتد حكمهم من سنة ٤٨٩هـ - ٥٧٧هـ .
- (٢) انظر: ابن القلانسي، دليل تاريخ دمشق، ص ٢١١ .
- ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٦٢٢ .
- (٣) انظر: ستيفن رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ١٦١ - ١٦٢ .
- أحمد بيلي، حياة صلاح الدين، ص ٥٢ .
- (٤) انظر: أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٤ .
- ابن واصل، مفرح الكروب، ج ١، ص ١٨٣ .
- (٦) انظر: ابن الأثير الحزري، تاريخ الدولة الأتابكية، ص ٦٦ .
- ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٩٨ .
- (٧) انظر: ابن واصل، مفرح الكروب، ج ١، ص ٢١٨ .
- أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٩٩ .

وقد اتصف هذان القائدان بالعدل والشجاعة . فعماد الدين كان منصفا بين القوى والضعيف ، وقد اهتم ببناء دور المملكة بالموصل<sup>(١)</sup> ، وكان شجاعا جريئا ، تشهد له بذلك فتوحاته ، وقد شغف بالصيد وله الجوارح الكثيرة<sup>(٢)</sup> .  
و"نور الدين" هو أول من بنى دار العدل بدمشق ، وكان يحلس فيها في كل أسبوع عدة أيام وعند العلماء والفقهاء<sup>(٣)</sup> . وبنى أسوار الشام ، والمدارس في حلب وحماة وحمص ودمشق وغيرها . وبنى الجوامع في جميع البلاد . وشيّد البيمارستانات ، ومن أعظمها مارستان دمشق . وبنى الخانات في الطرق ، وبنى "بدمشق" دارا للحديث ، ومكاتب للأيتام<sup>(٤)</sup> . هذا بالإضافة الى علمه واطلاعه وتواضعه ، وبلغ من ذلك أن أمر بأسقاط القابه في الدعاء على المنابر<sup>(٥)</sup> . وقد أبطل أذان "حي على خير العمل" فأما البدعة<sup>(٦)</sup> .  
فشهدت البلاد في عهد القائدين فترة من الاستقرار النسبي ، ورأى المسلمون فيها أملا حديدا ومثالا للحكام الصالحين .

وحكم الأيوبيون (٧) فترة من الزمن . وتحققت وحدة البلاد في عهد الناصر صلاح الدين ، وظرد الصليبيون من القدس<sup>(٨)</sup> . ورغم الخلافات التي حصلت بين وريثة الناصر، إلا أنهم حققوا حلم المسلمين بتحرير القدس<sup>(٩)</sup> ، فشملت دولتهم : بلاد الشام ومصر والحجاز واليمن<sup>(١٠)</sup> .

- (١) انظر: ابن الأثير الحزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٧٧ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٢ .
- (٢) انظر وصف أسامة له : أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٣٩ .  
وانظر في خصال عماد الدين : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٧٩ .
- (٣) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧ .
- (٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٠ .
- (٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٨ .
- (٦) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٧٨ .  
ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠١ .
- (٧) امتد حكمهم من سنة ٥٧٨ هـ - سنة ٦٤٨ هـ .
- (٨) كان ذلك أول مرة سنة ٥٨٣ هـ . انظر:
- (٩) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ١١٦ .  
كان ذلك في المرة الثانية سنة ٦٤٢ هـ . انظر:
- (١٠) أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٨٦ .  
انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

وقد حرم الناصر وكثيرون من خلفائه على بناء المدارس والجوامع (١) .  
واهتموا بالعلماء ومجالسهم (٢) . ويكفي أن نثبت النص التالي للعماد الكاتب في  
رثاء " صلاح الدين " ، لنذكر على خصاله ومدى تعلق الأمة به : " مات لموت  
السلطان الناصر الرجال ، وفات بقواته الأفضال ، وفاضت الأيادي ، وفاضت الأعادي  
وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجعون ، وعاب الملاحون ، وطردت  
الضيوف ، وأنكر المعروف ، وفجع الزمان بواحدة وسلطانه ، وزىء الإسلام بمشيد  
أركانه ، كان رحمه الله - حسن الأخلاق ، طيب الأعراق ، ضحوكا بمهابة ، محوما  
بجلالة ، يرشد الى الهدى ، ويهدي الى الرشاد ، معصب الكبار ، ولا يسامح  
بالصفائر ، العاملون في عدله ، والعاملون في فضله ، والبلاد في أمنه ، والعباد  
في منته ، والإسلام في حماية حميته ، والدين في اداة دولته (٣) .

(١) انظر:

البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٢) انظر في سيرة الناصر وخلفائه من بعده :

ابن واصل ، مفرج الكروب ، جميع أجزاء الكتاب في أخبارهم .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، جميع الجزء الثاني .

أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، صفحات متفرقة في أخبار

خلفاء صلاح الدين .

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، جميع الكتاب .

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

ونلمح في المجتمع أيضا ، بروز القضاة والفقهاء المسلمين . فوليت طائفة الوظائف العامة التابعة للحكام ، كأمانة السروكتابة التوقيع وتولي ديوان الأنشاء ، والأشراف على الدواوين السلطانية (١) . وشغلت طائفة وظائف التدريس والقضاء والخطابة (٢) .

وكثيرا ما كان العلماء المسلمون يعرضون بالحكام اذا آنسوا منهم خروجا على الدين أو تجاوزا على المصلحة العامة . فالقاضي "كمال الدين الشهرزوري" (٣) كان يقاضي "نور الدين" كئأى فرد من أفراد الرعية (٤) . و"عزالدين بن عبد السلام" (٥) ترك الدعاء على المنبر للملك "الصالح اسماعيل" بسبب تحالفه مع الصليبيين (٦) . فعزله الملك "الصالح اسماعيل" عن الخطابة وسجنه ، لكنه عاد وأفرج عنه خوفا من نقمة المسلمين (٧) . وعندما توجه الشيخ "عزالدين" مع "جمال الدين أبي عمرو بن الحاجب" الي "الكرك" ، تلقاهما "الناصر داود" وأكرمهما ، وطلب اليهما البقاء عنده ، فأجابه الشيخ "ابن عبد السلام" هذا بلد ضيق عن علمي" (٨) . ولما وصل "الناصر" تلقاه "الصالح أيوب" وفوض اليه الخطابة في الجامع العمري ، وولاه قضاء "مصر" ، ولم يلبث أن اختلف معه لوجود حانة تباع فيها الخمر ويرتكب الناس فيها المنكرات (٩) . وهكذا لم يكن العلماء المسلمون معزولين عن قضايا الأمة الاسلامية ، بل كانوا ملتزمين بهنومها ، ويدافعون عن مصالح المسلمين وحقوقهم .

- (١) ومن هؤلاء القاضي الفاضل ، انظر: أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٧ .
- (٢) ومنهم السخاوي ، انظر: المصدر السابق ، ص ١٧٧ .
- (٣) انظر في أخباره : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧-٨ .
- (٤) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .
- (٥) انظر في أخباره : أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٧٢ .
- (٦) انظر: السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ٨٠ .
- (٧) انظر: المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٨٣ .
- (٨) انظر : ما نقله عمر موسى باشا عن رفع الأصر (مخطوط) في أدب الدول المتتابعة ، ص ٦٩ ، هامش رقم (٢) .
- (٩) انظر: المرجع السابق ، ص ٧٠ ، هامش رقم (٢) .

ويبدو أن أغلب الناس كانوا يعملون في الفلاحة والصناعة والتجارة .  
لكن الفلاحين يشكلون السواد الأعظم من الأمة . وقد كانوا يعملون في الأقطاعات  
والأراضي مقابل أخذهم نصف إنتاج الأرض التي يفلحونها ، والنصف الآخر لملك  
الأرض . ويؤكد ذلك ما رواه "أسامة بن منقذ" على لسان بستاني من أهل "معة  
النعمان" : " أن هذا البستان نصفه لي بحق عملي ، ولمحمد بن مسعر نصفه  
بالملك " (١) .

ورغم أن هذه الفئة كانت تأخذ حقها كاملاً مقابل الفلاحة ، إلا  
أن بعض الناس كانوا ينظرون اليهم نظرة احتقار ، فيذكر "أسامة بن منقذ" أن  
والدته فضلت أن تقتل أخته الكبرى على أن تراها " مع الفلاحين والحلّاجين " (٢) .  
ويبدو أن هذه النظرة لم تقتصر على عصر دون آخر ، " فابن خلدون يصف هذه  
الطائفة قائلاً : " الفلاحة معاش المستضعفين ، ويختص منتحلها بالذل والمسكنة  
وإذا أراد أحدهم أن يشتم الآخر نعتة بكلمة فلاح " (٣) . وبذلك تطورت هذه  
اللفظة حتى صارت خاصة بالشتم والسباب .

ونلاحظ اهتمام "عماد الدين" باقطاع الأراضي للامراء والأجناد ،  
كما فعل بعد استيلائه على "حلب" سنة ٥٢٢ هـ (٤) . ولم تكن غايته تشجيع نظام  
الأقطاع ، بل كان يربي إلى قيام المقطع بآدارة شؤون الولاية باعتباره والياً من  
قبله ، أو لأبماده الشخص الذي يرى في وجوده باحدى الولايات خطراً على الأمة ،  
أو مكانة لأحد المخلصين واعترافاً له بخدمته ، أو لتشجيع بعض المناوئين له على  
تسليم حصونهم مقابل إعطائهم بعض المناطق (٥) .  
وقد حافظ "نور الدين" على ما كان يقطعه جنده ، فإذا قتل أحدهم  
وخلف ولداً ذكراً أقر الأقطاع عليه ، وإن كان قاصراً جعل عليه وصياً حتى يدرك  
سن الرشد (٦) .

- 
- (١) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٧٢ .
  - (٢) المصدر السابق ، ص ١٢٥ .
  - (٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٩٤ .
  - (٤) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٦٤٩ - ٦٥٠ .
  - (٥) انظر : ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٠ .
  - (٦) انظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .

وكان الصناع وأصحاب المهن الحرّة يؤثفون فيما بينهم ما يشبه النقابة ، ولهم شيخهم الذي يدافع عن مصالحهم لدى أصحاب الأملاك الواسعة أو الحكام (١) .

ويبدو أن التجار كانوا أحسن حالا من السابقتين . وقد وصف أسامة<sup>(٢)</sup> حالهم على لسان صديقه الأفرنجي فقال : " هذا رجل برجاسي ( تاجر ) لا يقاتل ولا يحضر القتال " (٢) .

ولم يكن الحكام يميزون فئة عن غيرها ، بل كانوا يعاملون الجميع معاملة واحدة ، سواء في مجال فرض الضرائب أو في رفعها عن المسلمين (٣) . وما يذكر أن التجار قاموا بدور مهم في حروب المسلمين وجهادهم الصليبيين ، إذ كانوا يقومون باقراض الدولة للجياد ، كما حدث أن أقرض بعض التجار " صلاح الدين " ليدراً ، هجوم الفرنجة (٤) .

وأما بالنسبة إلى أهل الذمة ، من نصارى ويهود ، فقد كانوا يعيشون مع المسلمين في حصونهم وقلاعهم ، يحتمون بهم من غارات الأعداء ، مقابل تأديتهم الجزية . فذكر<sup>(٥)</sup> ابن واصل عن " نور الدين " : " وكان رسم نفقته الخاصة في كل شهر من جزية أهل الذمة مبلغ ألفي قرطاس مصرية " (٥) .

وكان أهل الذمة يتجمسون أحيانا في أحياء أو قرى خاصة . ذكر ابن جبيرة<sup>(٦)</sup> عن مدينة " دنيسر " ، أنه بعد منادرتة لها مر على قرية كبيرة " تصرف بتل عقاب " هي للنصارى المعاهد من الذميين " (٦) .

(١) انظر: أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٣) مما يذكر أن الملك العادل والملك الأفضل خلفا سبعمائة ألف الرعية بالمكوس . انظر: أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٤٥-١٥٢ .

ويذكر أيضا أن بعض السلاطين كانوا يعفون الناس من المكوس ، حيث أعفى نور الدين وصلاح الدين من بعده الناس من المكوس ، واكتفى كل منهما بالخراج والجزية . انظر:

ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٤) انظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٢ .

(٥) انظر: ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ٢٨٤ .

(٦) ابن جبيرة ، رحلة ابن جبيرة ، ص ١٩٤ .

## ثانياً: المذاهب الفقهية والعقائد

نجد في بلاد الشام مظاهر دينية متباينة الاتجاهات ، تتوضّح في المذاهب السنية والمذاهب الشيعية وتيار كبير من التصوف .

اهتم الزنكيون بأحياء المذاهب السنية بعامة والمذهب الحنفي بشكل خاص ، وجعلوه مذهباً ولتتهم الرسمي . ويذكر أنه بعد تسلّم " عماد الدين " المعرّة من الفرنجة سنة ٥٣٩ هـ ، استفتى " عماد الدين " فقهاء الحنفية بشأن تسليم الأملاك لأصحابها الذين كانوا قد أخرجوا منها ، فأفتوه : أن الكفار إذا استولوا على بلد وفيه أملاك للمسلمين ، خرجت تلك الأملاك من ملك أصحابها ، بصيرورة البلد دار حرب ، فإذا عاد البلد بعد ذلك إلى المسلمين كانت تلك الأملاك لبيت المال (١) . لكن " عماد الدين " رفض هذه الفتوى وأرجع كل أرض إلى صاحبها بشرط أن يأتي بكتاب يثبت أنه مالك الأرض (٢) .

وكان " نور الدين " على المذهب الحنفي أيضاً . وقد اختار الزنكيون قاضياً واحداً في بلاد الشام وهو " كمال الدين الشهرزوري " ، كما أسندت إليه بالإضافة إلى هذا المنصب أمور الديوان والوزارة ، وعلق عليه تنفيذ الأحكام (٣) . وناب عنه في القضاء " حلب " ابنه القاضي " محيي الدين أبو حامد محمد " ، وأسندت إليه أيضاً أمور النظر في الديوان . وناب عنه في حماة وحمص قاضيان من بني الشهرزوري (٤) .

أما في العصر الأيوبي فقد ساد المذهب الشافعي ، حيث كان " صلاح الدين " شافعيًا (٥) . وقام بتطهير البلاد من طوائف الشيعة الفاطميين ، وبخاصة بعد المؤامرة التي حاكوها ضده سنة ٥٦٩ هـ (٦) .

- (١) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٧٤ .
- (٢) انظر: المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (٣) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٦-٧ .
- (٤) انظر: المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٤-١٦ .
- (٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٠-٥١ .
- (٦) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩-١٢٠ .
- (٧) انظر في المؤامرة : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٨-٢٤٩ .
- أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .

لكن "صلاح الدين" لم يعزل "كمال الدين" قاضي القضاة الحنفي ، فلم يرد سلبه منزلته ، ولكن بعد وفاته (١) عيّن "شرف الدين" (٢) قاضياً للقضاة ، و"محيي الدين محمد بن الزكي" (٣) نائبا ، وبذا كان هذ هب الدولة الرسمي هو الشافعية (٤) .

واحتار "صلاح الدين" بعد أن اجتهد الفقهاء في عدم جواز قضاء "شرف الدين" لأنه كان كفيفا (٥) ، فأشار عليه القاضي الفاضل بأن يفوض القضاء الى ولده "محيي الدين أبي حامد محمد" ويظهر أنه نائب عن أبيه مع أنه القاضي الفعلي ، فأخذ الناصر برأى الفاضل (٦) .

وقد كان عدد مدارس الشافعية سبعا وخمسين ، والحنفية احدى وخمسين ، والحنابلة عشرا ، والمالكية أربعاً (٧) .

- 
- (١) كانت وفاة كمال الدين سنة ٥٧٢ هـ . انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥-٣٧٨ . ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٦ .
  - (٢) هو شرف الدين أبو سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن مطهر بن علي بن أبي عصرون الشافعي قاضي القضاة بدمشق . وكانت وفاته سنة ٥٨٥ هـ بحلب . انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٥٦-٢٥٩ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٣ .
  - (٣) هو محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكي الدين ، كان من رؤساء الشافعية في عصره ، وهو الذي خطب بالمسجد الأقصى بعد أن حرره صلاح الدين . صار قاضي القضاة بدمشق وتوفي بها سنة ٥٨٨ هـ . انظر: العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم التلم ، ج ٢ ، ص ٣٢٩-٣٣٩ . البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ٢٢٩ .
  - (٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ، ص ٣٦٤-٣٧١ . ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٢٣ . انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥٠-٥١ .
  - (٥) انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٥٦-٢٥٩ .
  - (٦) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٥١ .
  - (٧) انظر ما أثبتته عمر موسى باشا عن محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق في : أدب الدول المتتابعة ، ص ٩٣ ، هامش رقم (٣) .



أما فرقة الشيعة ، فقد كانت منتشرة في بلاد الشام ، وكانت في صراع مع المذاهب السنية (١) . وحاول السلاجقة القضاء عليهم أول الأمر فلم يفلحوا ، وزاد أمرهم بعد أن حل الفاطميون محل السلاجقة ، فعين "الحاكم بأمر الله" ولي عهده على بلاد الشام (٢) .

ومما يشير إلى انتشار هذه العقيدة ، اطمئنان "ابن جبير" عندما دخل "منبج" ووجد أهلها سنيين فقال : "وهي مطهرة بهم من أهل المذاهب المنحرفة والعقائد الفاسدة ، كما تجده في الأكثر من هذه البلاد" (٣) . ولكن في عهد الزنكيين والأيوبيين ، لم يكن لهذه الفرقة شأن ، بل حرص السلاطين على التضييق عليهم ، وإبطال آذانهم (٤) ، وقطع الخطب عن أئمتهم (٥) ، ومحاولة القضاء عليهم كما حصل في عهد "صلاح الدين" (٦) . وأما فرق الشيعة فمنها "الاسماعيلية والنصيرية والدرزية" (٧) ، ولا مجال للتفصيل عنها في هذا المضمون .

- (١) انظر: كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٥٢ .
- (٢) انظر تفصيل ذلك :
- (٣) محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية . كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٢٥٨ .
- (٤) انظر: ابن القلانسي ، نيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠١ . ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٧٨ .
- (٥) كما حصل سنة ٥٦٧ هـ حينما قطع صلاح الدين الخطبة عن العاضد الفاطمي . انظر: ابن تغري بردي ، النجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٤٣ . أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٣ - ١٩٥ .
- (٦) وذلك سنة ٥٦٩ هـ ، عندما حكم صلاح الدين على جماعة منهم بالأعدام لمحاولتهم الثورة عليه . انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٤٨ . أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٢ . انظر أخبار هذه الفرق بالتفصيل :
- (٧) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية . محمد عبد الله عنان ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية .

وبالنسبة الى التصوف فقد انتشر في هذه الفترة حتى شمل بعض السلاطين وكثيرا من العلماء .

ويبدو أن الغزو الصليبي لبلاد الشام ، وما عملوا من قتل ودمار (١) ، ثم ما انتشر في البلاد من كوارث طبيعية وأوباء وجاعات (٢) ، كل ذلك كان من عوامل اتخاذ التصوف سبيلا ، وانتشاره بين الناس .

وقد لقي التصوف كل تشجيع من " نور الدين " ، فبنى لهم الخوانق في البلاد ، وقرّبهم من مجالسه (٣) .

وكان " صلاح الدين " يستمع الى أقوالهم وأناشيدهم ، روى ابن شداد أنه لما سار الناصر من حلب قاصدا دمشق اعترضه ابن أخيه " تقي الدين " فأصعده الى قلعة " حماة " ، واصطنع له طعاما حسنا ، وأحضر له سمع الصوفية (٤) .

ومما يذكر أنه كان للصوفية دور كبير في تحريض المسلمين على الجهاد ومقاومة الصليبيين الغزاة (٥) .

- 
- (١) انظر في أعمال الصليبيين هذه :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٦-٢٧٨ .  
ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٦ .  
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .  
ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٥ ، ص ١٨٤ .
  - (٢) انظر: ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ ، ٢١٢ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٤٠ .
  - (٣) انظر: ابن واصل ، مفتح الكروب ، ج ١ ، ص ٢٦٢-٢٦٣ .
  - (٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٧ .
  - (٥) انظر في مكانتهم أيضا وصف ابن حبير لبيوتهم :  
" وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر " .  
رحلة ابن حبير ، ص ٣٣٣-٣٣٤ .

## ثالثاً: أخلاق العصر

- شهدت هذه الفترة تمازجاً بين أنماط عديدة من الحياة و طريقة حياة أهل البلاد الأصليين ، ثم ما جلبه الوافدون من الأتراك ، وطريقة الفزاة الصليبيين .
- كان " عماد الدين " شديداً في حكمه لا يتهاون في أمر المنكرات ، فقد كان شديد الخيرة على نساء الأجناد (١) . ذكر ابن واصل أن عامله على قلعة الجزيرة تعرض للحرم ، فأمر حاجبه " صلاح الدين الباغسياني " صاحب " حماة " أن يعاقبه بقطع ذكره وقلع عينيه عقوبة له ثم بصلبه ، فكان ذلك عبرة للناس جميعاً (٢) .
- وكان " نور الدين " يأمر بتحريم الخمر في جميع أنحاء البلاد ويمنع ادخالها ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ولا يستثنى من الناس أحداً (٣) .
- وكان " صلاح الدين " يعاقب الزناة ومروجي الحشيش والزنادقة (٤) . ومن عادات أهل الشام إكرامهم الغرباء ، " وأهل هذه البلاد من الموصل لذي ياربكرو ديار ربيعة إلى الشام " على هذه السبيل من حب الغرباء وإكرام الفقراء " وأهل قراها كذلك " (٥) .
- وكان المسلمون يتزيون بالشباب الزاهية الألوان في حفلات الزواج ، حيث تزوج أحدهم وخرج إلى إحدى المعارك " وهو لا يلبس وفوق درعه ثوب أحمر من ثياب العرس " (٦) .
- وكانوا يحتفلون في مناسبات دينية معينة ، كعيدى الفطر والأضحى ، وكانوا ييتمجون بإقامة الموالد النبوية (٧) ، وكان السلاطين يبذلون في سبيل أحياء هذه الأعياد الأموال الكثيرة ، ويمدون الفقراء ويوزعون عليهم الحلوى وغيرها (٨) .
- وكانوا يحتفلون بموسم الحج ، فينزل الأمراء في مواكب ، ويحتشد الناس لمشاهدتهم (٩) .

(١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٧٣ .

(٢) ابن واصل ، مفرح الكروب ، ج ١ ، ص ١٠٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٤ .

(٤) انظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .

(٥) ابن جببير ، رحلة ابن جببير ، ص ٢٣٣ .

(٦) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣٦ .

(٧) انظر: رحلة ابن جببير ، ص ٢٨٠ .

(٨) المصدر السابق ، ص ٢٧٥ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٢٨١ .

وكان الصيد من الدوايات الأثيرة لدى الكثيرين من أبناء العصر وأمرائه ، وكتاب الاعتبار غني بالمشاهد التي تصور هذه الهواية (١) . كما أن اللعب بالكرة ، من هوايات " نور الدين وصلاح الدين " وغيرهما من الأمراء والسواد (٢) .

ولم تتوقف النساء المسلمات عن المشاركة في الميادين التي شاركت فيها المسلمات الأوائل ، كميدان الحرب ، فحدث في الواقعة بين الأسمايلية " وبنو منقذ بشير " أن دخل انسان " عليه زرديّة وخوذة ومعه سيف وترس . . . فوضع الخوذة وإذا هي أم ليث الدولة يحيى " (٣) . وقامت بعض النساء بواجب السقاية في معركة بين المسلمين والفرنج (٤) .

وكانت للصليبيين عادات غريبة على أهل البلاد ، لا سيما فيما يختص بالاختلاط بين الجنسين ، فلم تجد قبولا بين المسلمين ، إذ نرى "أسامة" يستهجن أشد الاستهجان ما يراه من الحرية التي تتمتع بها النساء الفرنجيات ، ويصف رجالهن تبعاً لهذا بقلة النخوة : " وليس عندهم من النخوة والفيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ يد المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث فإذا طوّلت عليه خلاها مع المتحدث ومضى (٥) .

وقد حددت حرية نساء الفرنج هذه نظرة المسلمين اليهن ، فلم يعيروهن كبير تقدير (٦) .

وكان للفرنج عاداتهم وتقاليدهم في الزفاف ، ففي رحلة ابن جبير " وصف لحفلة زفاف عندهم في " صور " خرج فيها جميع النصارى والمسلمون ينظرون اليهم (٧) .

(١) انظر: أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ .

(٢) انظر: ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٣٣ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٥٢ .

(٣) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٥) المصدر السابق ، ص ١٠٠ .

(٦) انظر قصة في ذلك : الاعتبار ، ص ١٠١ .

(٧) قال ابن جبير في وصف الحفلة : " خرج جميع النصارى رجالاً ونساءً واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة والبوقات تضرب والمزامير

وجميع الآلات اللهوية حتى خرجت تتنادى بين رجلين يمسكانهما من

يمين وشمال كأنهما من ذوى أرحامها ، وهي في أبيسى زى وأفخر

لباس . . . والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم

سماطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك . فساروا بها حتى

أدخلوها دار بعلمها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة " .

رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

وكان النصارى يحتفلون بعيد الفصح ، وكان المسلمون يتفرجون عليهم في أعيادهم كما ذكر أسامة<sup>(١)</sup> .  
ومما يذكر أنه لم يتم التآلف بين الفرنج والمسلمين بالنسبة الى التزاوج فيما بينهم ، فقد أهدى " مرشد بن منقذ " جارية الى الأمير " شهاب الدين مالك بن سالم " صاحب قلعة " جعبر " ، فاتخذها لنفسه وولدت له ولدا تولى أمر " جعبر " بعده ، ولم تفعل السنين وبهجة الحكم فعلمها في نفس الفرنجية ونزلت تتحين الفرص حتى تمكنت من الهرب الى بلد من بلاد الفرنج وتزوجت بافرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة " جعبر " (٢) .  
ونلمس في هذا العصر أيضا انتشار الأباحية واللممو والمجون (٣) ، وانتشار تماطي الحشيش بين الناس (٤) ، كما ظهرت الزندقة بسبب الاحتكاك بالفلسفات الأخرى (٥) . لكن السلاطين كانوا يعاقبون الخارجين عن التعاليم الإسلامية ، دون أن يفرقوا بين شخص وآخر (٦) .  
ونقول أخيرا انه غير متوقع أن يحدث انصهار لهذه الأجناس في بوتقة واحدة ، وبخاصة أن الأمة كانت في حالة حرب طويلة مع الصليبيين الغزاة .

- 
- (١) انظر: أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٢٥ .
  - (٢) المصدر السابق ، ص ٩٦ .
  - (٣) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
  - (٤) انظر ما نقله عمر موسى باشا عن كتاب رفع الاصر لابن حجر (مخطوط) ، في كتابه أدب الدول المتتابعة ، ص ١١٥ ، هامش رقم (١) .
  - (٥) انظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .
  - (٦) انظر: ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ١ ، ص ١٠٥ .
- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٦ ، ص ٢٦٤ .  
ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٨٠ .

(٨)

## الحالة الاقتصادية

جلب الغزو الصليبي متاعب اقتصادية للمنطقة . فقد كانوا يفرضون أتاوات على الأمراء مقابل عقد هدنة معهم ، كما كان بعض السلاطين يضطرون الى فرض ضرائب لمجابهة الاحتلال ، هذا علاوة عن خراب المناطق الزراعية الكثيرة ، وتدميرها بسبب الحروب . وكل ذلك كان يقع على كاهل الأهالي ، فتستنزف أموالهم .

ففي سنة ٥٠٣ هـ ، توصل " طغتكين " والفرنج الى هدنة ، على أن يكون للصليبيين الثلث من استغلال البقاع (١) .

كما اضطر " رضوان بن تشر " صاحب " حلب " ، الى مهادنة صاحب " أنطاكية " ، مقابل عشرين ألف دينار في كل سنة ، وعشرة رؤوس من الخيل (٢) . وكان لصاحب " أنطاكية " مقاطعة سنوية على " شيزر " تبلغ عشرة آلاف دينار (٣) .

وفي سنة ٥٠٤ هـ ، قرر ملك الفرنج على " صيدا " نييفا وعشرين ألف دينار ، أفقرتهم واستغرقت أموالهم (٤) .

فكانت حالة البلاد الاقتصادية مرتبطة بهذه العهود والمواثيق بين الفرنج والمسلمين . فما دامت هناك حروب وأتاوات تدفع ، يظل الأهالي في ضنك ، اذ تؤدي الحروب الى أحلال الخراب بالحصون والمدن والمحاصيل الزراعية ، وينتج عن ذلك الغلاء من حين الى آخر (٥) . كما أنها تجعل طرق التجارة غير مأمونة ، وتستلزم نفقات الجيوش والأتاوات جزءا كبيرا من أموال الولاية (٦) .

- (١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٧٦ .
- ابن القلانسي ، نذيل تاريخ دمشق ، ص ١٦٥ .
- (٢) انظر: المصدر السابق ، ص ١٧١ .
- (٣) انظر: المصدر السابق ، ص ١٨٣ .
- (٤) انظر: المصدر السابق ، ص ١٧١ .
- ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ .
- (٥) انظر: المصدر السابق ، ج ١٠ ، ص ٤٤٠ .
- ابن القلانسي ، نذيل تاريخ دمشق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٢١٢ .
- (٦) انظر: المصدر السابق ، ص ٢٠٢ .

وعندما كانت تقع المهادنة ، يخف نير الضائقة الاقتصادية ، فيذكر أنه بعدما وقعت المهادنة بين صاحب " حلب " والفرنج سنة ٥١٤ هـ ، رفع صاحب " حلب " المكوس والكلف والمؤمن ، فقبول ذلك بالثناء من الناس (١) . وكانت هذه الحروب تنبظر بعض السلاطين الى الاقتراض من التجار ، مما كان يحتمل خزينة الدولة (٢) . وفي فترات السلم كان بعض السلاطين يرفعون المكوس عن الناس ، كما حصل في عهدى " نور الدين وصلاح الدين " ، حيث اكتفى كل منهما بالخراج من المسلمين ، والحزبة من أهل الذمة (٣) . يضاف الى ذلك ، فان لعوامل الطبيعة أثرا كبيرا على المحاصيل الزراعية واقتصاد البلاد ، فكانت تحدث زلازل وفيضانات تذهب بجهد الناس طوال السنة .

ففي سنة ٥٥٤ هـ ، حدث زلزال " بحلب " زرع مواضعها السكنية ، وحدث زلزال آخر في " دمشق " خرب الكثير من الجسور (٤) . وفي سنة ٥٦٥ هـ ، حدثت زلزلة كبرى عمّت بلاد الشام كلها ، وامتدّت الى مصر والجزيرة ، فخربت أسوار المدن والقلاع ، مما أثر على إنتاجها (٥) . وفي سنة ٥٧٠ هـ ، سقطت أمطار وثلوج كثيرة ، كان لها مردود سيء على المحاصيل (٦) .

ورغم كل هذه الظروف ، فلم يكن الوضع الاقتصادي العام سيئا ، إذ يحدثنا أسامة بن منقذ عن اهتمام العصر باقتناء أفخر الأدوات ، ولبس أحلى الزينات ، وبناء أفخم القصور (٧) .

- 
- (١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٢ .
  - (٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٠٢ .
  - (٣) ابن واجبل ، مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .
  - (٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٠ .
  - (٥) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٨٤ .
  - (٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣٩ .
  - (٧) انظر في ذلك :  
 أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣٠ ، ٦٥ ،  
 واندلر في ذلك أيضا :  
 رحلة ابن جبير ، ص ٢٤٠ ، ٢٧١ .

ومما يشير الى هذا الوضع الاقتصادي الجيد أنهم كانوا يتفننون في بناء البيوت والأسواق والمدارس، كما كانوا يتفننون في بناء المارستانات والجوامع. فيصف ابن جبير بيوت دمشق "المكوّنة من ثلاث طبقات (١)، ويصف أسواق حلب" وحوانيتها قائلاً: "وأسواق حلب من أوسع الأسواق وأبهاها ٠٠٠ وأكثر حوانيتها خزائن من الخشب البديع الصنعة قد اتصل السماط خزانة واحدة، وتخلّلتها شرف خشبية بديعة النقش، وفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر" (٢). ويصف ابن جبير "مدرسة الحنفية في حلب" قائلاً: "وكانت غريبة الصنعة جدارها القبلي مفتوح كله بيوت وغرف ولها طيقان يتصل بعضها ببعض، وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مشرعنياً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متدلياً أمامها فيمد الساكن فيها يده ويحتنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة" (٣).

وأما جامع حلب فمن أجمل الجوامع، استغرقت الصنعة القرنية جهدها في منبره ٠٠٠ واتصلت الصنعة الخشبية منه الى المحراب ٠٠٠ وارتفع كالتاج العظيم على المحراب وعلا حتى اتصل بسطح السقف وقد قوس أعلاه وشرف بالشرف الخشبية القرنية وهو مرصع كله بالماج والآبنوس" (٤). ويحدثنا المؤرخون عن زيادة الإنتاج الزراعي، والتوسع في المجالات الاقتصادية المختلفة، ففي عهد عماد الدين، كان الإنتاج الزراعي جيداً فكثرت الفاكهة في البلاد، بعد أن كانت قليلة جداً (٥). وفي عهد "نور الدين"، سقطت المكوس عن الناس (٦)، وكثرت المدارس والمارستانات والجوامع (٧)، وازدهرت صناعة الكتان وأنواع النسيج والخزف (٨). وفي عهد صلاح الدين، راجت صناعة الصابون، وصناعة الجلود، وأدوات القتال (٩). وتوسعت العلاقات التجارية مع مختلف البلاد (١٠)، وتعددت الأسواق ومعاهد العلم (١١)، وبسبب تحسن أوضاع الناس العامة فقد سقطت المكوس عن الناس (١٢).

- (١) رحلة ابن جبير، ص ٢٧١.
- (٢) المصدر السابق، ص ٢٤٠.
- (٣) المصدر السابق، ص ٢٤١.
- (٤) المصدر السابق، ص ٢٤٠.
- (٥) انظر: ابن الأثير الجزري، تاريخ الدولة الأتابكية، ص ٧٨.
- (٦) انظر: ابن واصل، مفرح الكروب، ج ١، ص ٢٦٩.
- (٧) انظر: رحلة ابن جبير، ص ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٧٢.
- (٨) انظر: المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٤٣٤ - ٤٤١.
- (٩) المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٨، ج ٢، ص ٢٣٢.
- (١٠) انظر تفصيل ذلك: حسن إبراهيم حسن، تاريخ الاسلام، ج ٤، ص ٤٠٠.
- (١١) انظر: النعمي، المدارس في تاريخ المدارس، ج ١، ص ١١، ١٧٨، ٤٠١.
- (١٢) انظر: ابن واصل، مفرح الكروب، ج ١، ص ٢٦٩.



## الحالة الثقافية

شجع الزنكيون العلم والعلماء ، فكثر في بلاد الشام دور العلم .  
وقد عرف عن " نور الدين " أنه كان لا يتصرف في شيء من هدايا الملوك الكثيرة ،  
وإذا اجتمع منها شيء يصرفه ويخرجه الى مجلس القاضي ، فيحصل ثمنه وينفق  
في عمارة المساجد المهجورة (١) .

لم يقتصر اهتمامه على بيوت الله وإنما تجاوزه الى انشاء المدارس  
المنظمة (٢) ، فاستدعى من "سنجار" شرف الدين بن أبي عصرون (٣) ، وبنى له  
المدارس بحلب وحماة وحمص وحلب ، وفوزر اليه " نور الدين " أن يولي فيها  
التدريس من يشاء (٤) ، فلم يكتف " شرف الدين " بما شيده " نور الدين " ، وإنما  
أنشأ مدرستين أولاً بحلب ، وأخيراً في " دمشق " (٥) .

واهتم " نور الدين " بالعديد من النبوي الشريف ، فأنشأ مدارس خاصة  
به ، ولم يعرف في التاريخ من سبقه الى ذلك ، وسميت باسمه منها : النورية الكبرى ،  
والنورية الصغرى (٦) .

أما النورية الكبرى فوقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بالحديث ،  
وولّى مشيختها امام المسجد في زمانه " الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر " (٧) .  
وأما النورية الصغرى فكانت خاصة بالحنفية ، وقد درس فيها " بهاء  
الدين عياك " (٨) .

- (١) انظر: ابن واصل ، مفتاح الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨١ .
- (٢) انظر في كثرتهما : انظر  
النعماني ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٠١ ، ٤٧٣ ، ٥٨٥ .
- (٣) انظر ترجمته في : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٢ .
- (٤) من خلائكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .
- (٥) انظر: النعماني ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٤٠١ .
- (٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤١١ .
- (٧) انظر: المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦٤٨ .
- (٨) انظر ترجمته في : أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٢٠ .  
وصف ابن جبير هذه المدرسة فقال : " انها قصر من القصور الأنيقة ،  
ومن أحسن مدارس الدنيا منظرًا " . رحلة ابن جبير ، ص ٣٢٣ .
- (٩) انظر: النعماني ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٦٤٨ .

- وأنشأ " نور الدين " في " حماة " مدرستين : الأولى للحنفية والثانية للشافعية (١) .
- وأسس الأيوبيون بدورهم في الاهتمام بدور العلم ، وقد ذكر الرحالة " ابن جبير " أنه رأى " دمشق " عندما زارها عشرين مدرسة ومارستانيين ، وله المساجد الكثيرة ، تقوم بالإنفاق على من يؤمها طلبا للعلم من الأوقاف الكبيرة (٢) .
- ومن هذه المدارس ، المدرسة الصلاحية التي أنشأها " صلاح الدين " في " القدس الشريف " (٣) .
- وأسس أخوه " أسد الدين شيركوه " الصغير مدرسة في " دمشق " للحنفية والشافعية (٤) . وأنشأ المظفر " تقي الدين عمر " المدرسة التقوية في " دمشق " ، وكانت تسمى نظامية الشام (٥) ، وأسس في " حماة " المدرسة المظفرية (٦) .
- وسار خلفاء " صلاح الدين " على سنته في الاهتمام بالمدارس ، فمن المدارس التي عمت في عهد " الملك الظاهر صاحب حلب " ، المدرسة الظاهرية البرانية في " دمشق " سنة ٦١٣ هـ (٧) .
- كما أجرى " الظاهر " الأوقاف الكثيرة على المدارس ، فعندما أنشأ " ابن شداد " المدرسة الصلاحية في " حلب " ، قرّر لها اقطاعا جيدا ، واستدعى لها الفقهاء من كل الأمصار (٨) .
- وجاء " الملك العادل " فأسس المدارس الكثيرة ، منها العادلية الكبرى ، والعادلية الصغرى (٩) .
- وأنشأ " الملك الناصر " ابن الملك العادل للحنفية المدرسة المعظمية ، حيث كان على مذهب " أبي حنيفة " (١٠) .

- (١) انظر: أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٠-٢٣ .
- (٢) انظر: رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .
- (٣) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤٠٧-٤٠٨ .
- ويذكر المؤرخون قصصا كثيرة تدل بوضوح على اهتمام صلاح الدين بالعلم والعلماء ، وبالمجالس التي تدور حول القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة . انظر:
- ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٨٦ ، ١٠٣ .
- ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٥٦ .
- (٤) انظر: النعماني ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٥٢ .
- (٥) + (٦) انظر: ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٧٦-٣٧٧ .
- (٧) انظر: النعماني ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٤٠ .
- (٨) انظر: أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ٩٤ .
- (٩) انظر: النعماني ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٥٩ .
- (١٠) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٨٥ .

وإذا كان "نور الدين" رائد المهتمين بالحديث النبوي فسي  
العصر الزنكي ، فإن "الأشرف موسى بن العادل" رائدهم في العصر الأيوبي .  
فيذكر أنه أسس مدرستين كبيرتين خاصتين بدراسة الحديث النبوي وهما :  
دار الحديث الأشرفية الجوانية ، ودار الحديث الأشرفية البرانية (١) . وقد درس  
في الأولى كبار علماء الشام من محدثين وغيرهم أمثال : أبي شامة المقدسي والنووي  
والسبكي وابن كثير (٢) . وأما الثانية فقد بناها وقرر أن يدرس فيها "جمال الدين  
المقدسي" ، لكنه توفي سنة ٦٥٩ هـ قبل أن يدرس فيها ، فعمين القاضي "شمس  
الدين بن أبي عمر" (٣) .

وقد أسس "الملك الناصر يوسف بن العزيز" ملك "دمشق وحلب" ،  
دار الحديث الناصرية ، والمدرسة الناصرية الجوانية ، وتم الفراغ منها سنة ٦٥٣ هـ  
ودرس فيها القاضي "شمس الدين بن خلكان" (٤) .

ولم يقتصر الاهتمام ببناء المدارس ودور الحديث على الملوك الأيوبيين ،  
وإنما تعداهم إلى نساءهم من الأميرات الخواتين (٥) . فيذكر منهن : ست الشام  
الخاتون أخت الناصر صلاح الدين التي أنشأت مدرستين للشافعية ، وهما :  
الشافعية البرانية والشافعية الجوانية . وقد شرطت في وقفها ألا يجمع المدرس  
بينها وبين غيرها ، وأن يكون المدرسون من أهل الخير والعفاف والسنة وغير  
مفسوين إلى بدعة (٦) .

ومن هؤلاء الخواتين أيضا "زهره خاتون زوجة" تاج الملوك بوري " ،  
التي بنت المدرسة الخاتونية البرانية للحنفية بصنعاء الشام (٧) . كما أنشأت الخاتون  
"عصمة الدين" بنت الأمير "معين الدين أنر" زوجة "نور الدين" ثم "صلاح  
الدين" من بعده ، وأنشأت المدرسة الخاتونية الجوانية ، وكانت خاصة بالحنفية (٨) .  
وأما "مؤنسة خاتون" بنت الملك المظفر صاحب "حماة" ، فقد أنشأت فيها مدرستها  
الخاصة بها ، ووقفت عليها وفقا جيدا وكتبا كثيرة (٩) .

- 
- (١) انظر: النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ١٩ .
  - (٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
  - (٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٩ .
  - (٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٥٩ .
  - (٥) قال الرحالة ابن جبير : "ومن الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة ، وتنفق فيها الأموال الواسعة ، وتعين لها من مالها الأوقاف" . رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٥ .
  - (٦) انظر: النعمي ، الدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .
  - (٧) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٣ .
  - (٨) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٧ .
  - (٩) كرد علي ، خطط الشام ، ج ٦ ، ص ١٢٦ .

ومن العلماء الذين أسسوا في بناه المدارس " زكي الدين بن رواحة الحموي " التاجر العالم ، حيث أنشأ مدرستين كبيرتين للشافعية ، أحدهما في " دمشق " والأخرى في " حلب " . وشرط ألا يدخل المدرسة يهودى ولا حنبلي حشوى (١) .

وامتاز هذا العصر بظهور مدارس للطب ، منها المدرسة الدخورية ، الواقعة قبلي الجامع الأموي ، وأنشأها " مهذب الدين عبد الرحيم بن حامد المعروف بالدخوار " سنة ٦٣١ هـ (٢) . والمدرسة الدنيسرية ، وقد أنشأها " عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عباس الربيعي " الطبيب الحاذق ، وقد سميت باسم المدينة التي ولد فيها وهي " دنيسر " (٣) .

وكانت هذه المدارس الطبية تمد الممارسات بمن يتخرج من طلبتها . ويبدو أنهم وصلوا الى مستوى رفيع في الطب ، فيذكر في إحدى العمارك مع الفريخ أنه تلقى أحد رجال " أسامة " ضرباً سيف على وجهه " فقطع حاجبه وجفن عينه وخده وأنفه وشفته العليا فتدلى جانب وجهه على صدره " ، فحمله أصحابه الى " شيزر " فجاء " الجراحي " فخييط وجهه وداوى جراحه فبرأ وعاد الى ما كان عليه إلا أن عينه تلفت " (٤) .

ويذكر أنه كان للأطباء دكاكين يستقبلون فيها المرضى ، فقد كان " لأبي جعفر عمر بن علي بن البزخ " الطبيب " دكان عطر بالبادين يجلس فيها ويعالج من يأتي اليه أو يستوصف منه ، وكان يميء عنده أدوية كثيرة مركبة . . . . . يبيع منها " (٥) .

وكانت الممارسات تلقى كامل العناية ، فسأحد " بدمشق " جرايته " في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً ، وله قومة بأيديهم الأزمة المحتوية على أسماء المرضى وعلى النفقات التي يحتاجونها من الأدوية والأغذية وغير ذلك " بوله الأطباء المعينون " يبكرون اليه في كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون ما يصلحهم من الأدوية والأغذية " (٦) .

(١) النعمي ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٢٦٥-٢٦٦ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٦٥ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٤) أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٥٧ . وانظر حادثاً شبيهاً في الاعتبار ،

ص ١٢١ . وانظر في مدى تقدمهم أيضاً : رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ .

(٥) انظر ما نقله فاروق جرار عن طبقات الأطباء ، ج ٣ ، ص ٢٥٧ ، في

كتابه ، محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره ، ص ٤٨ ، هامش رقم (١٢٨) .

(٦) رحلة ابن جبير ، ص ٢٧٢ .

ويذكر بعض المؤرخين أن المسلمين كانوا يتبادلون الخبرة الطبية مع الصليبيين (١) . ويظهر أن طب المسلمين كان متفوقا على طب الفرنج ، فبينما يقوم أطباء المسلمين بإجراء العمليات الدقيقة ، نرى الفرنج يلجأون الى أساليب واهية في المعالجة ، فقد طلب صاحب "المنيطرة" الفرنجي الى ابن منقذ صاحب "شيزر" أن ينفذ اليه طبيبا يداوى مرضى من أصحابه ، وذهب الطبيب - ويدعى ثابتا - فأحضره عنده " فارسا قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقتها نشاف" فعمل للفارس " لبيخة ففتحت الدملة وصلحت " ، وحمى المرأة ورطب مزاجها ، غير أن الطبيب الفرنجي لم تعجبه طريقة " ثابت" في المعالجة ، فأمر بأحضار فأس قاطع وفارس قوى ، ووضع ساق الفارس المريض على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها . فضربه ضربة واحدة ما انقطعت ، ضربه ثانية فسال منه: مع الساق ومات من ساعته " . ثم نزل الى المرأة فقال : " هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مواكيلهم اللحم والخردل ، فزاد بها النشاف فقال : الشيطان قد دخل في رأسها ، فأخذ موسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت في وقتها" (٢) .

كانت لهذه المدارس الكثيرة أنظمة خاصة تتعلق بالدراسة وهيئة التدريس والطلاب . أما رأس المدرسة ، فكان الشيخ الذي يعين من السلطان ، أو من ينوب عنه بتعيينه ، وكان في الأغلب من المدرسين القداما والراسخين في العلم والدين (٣) .

وقد فرّق السبكي بين المدرس والمعيد ، فقال عن المدرس : " وحق عليه أن يحسن القاء الدروس وتفهمه للحاضرين ، ثم ان كانوا مبتدئين فلا يلقي ما لا يناسبهم من المشكلات ، بل يدرسهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، الى أن ينتهوا الى درجة التحقيق " (٤) . وأما المعيد " فعليه قدر زائد من سماع الدرس من تفهم بعض الطلبة ، ونفعهم ، وعمل ما يقتضيه لفظ الأعادة والا فهو والفقيه سواء " (٥) .

- (١) انظر: أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٩٨-٩٩ .
- (٢) المصدر السابق ، ص ٩٧-٩٨ .
- (٣) نلاحظ ذلك من خلال أسماء المدرسين الذين عينوا في هذه المدارس .
- (٤) السبكي ، معيد النعم وصبيد النقم ، ص ١٠٥ .
- (٥) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .

أما الطلبة المتفهمة فكان عددهم محدودا بحسب شرط الواقف (١) .  
وينقسم الطلاب الى أقسام بحسب قدمهم في الدراسة والاختصاص ، فمنهم الفقيه  
المفيد (٢) ، وعليه أن يعتمد ما يحصل فيه بالدرس ، فائدة من بحث زائد على  
بحث الجماعة . ومنهم الفقيه المنتهي (٣) ، وعليه من البحث والمناظرة فوق ما  
على من دونه (٤) . أما سائر الطلاب ، فهم الجماعة العامة ، وهم فوق بعض  
درجات ، يتلقون مختلف العلوم الدينية وغيرها من العلوم اللغوية والتاريخية  
والجدلية (٥) . وأما الصبيان فيبدأون بالقرآن تلاوة ، وبالشعر حفظا وخطا (٦) .  
وهكذا يتدرج الطالب في مراحل تعلمه حتى يصبح فقيها منتبيا ،  
يختص بعلم من العلوم التي يوثقها ، وينال اجازته العلمية ويشهد المدرس لطلبه  
أنه أتم دراسته ، وأصبح أهلا للتدريس والفتوى ، فيمنحه الأجازة العلمية ، ويذكر  
فيها اسم الطالب وشيخه المجيز ومذهبه وتاريخ الأجازة (٧) .  
وهناك أنواع أخرى من الأجازات العلمية ، منها الأجازة بعرضة  
الكتب ، فيحفظ الطالب كتابا في الفقه أو الحديث أو الأدب أو النحو أو التاريخ ،  
ثم يعرضه على مدرسه فيختبره فيه في عدة أماكن من الكتاب ، فإذا أحسن الأجابة  
ولم يخطئ فيه ، كتب له الأجازة في ذلك وقال فيها : " عرض علي فلان . . . " .  
أو " عرض علي وكتبه فلان " (٨) .

- (١) شرطت ست الشام الخاتون أخت الناصر صلاح الدين عند انشائها  
المدرسة الجوانية ، ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفهمة في المدرسة  
على عشرين رجلا من حملتهم معيدها وامامها ، وذلك خارج عن المدرس  
والمؤذن والقيم . انظر:  
النصيمي ، المدارس في تاريخ المدارس ، ج ١ ، ص ٣٠٣ .
- (٢) يمكن أن يكونوا معادلين لطلبة الماجستير في الوقت الحاضر .
- (٣) لعله يعادل طالب الدكتوراة في وقتنا الحاضر .
- (٤) انظر: السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٠٥ .
- (٥) المصدر السابق ، ص ١٠٥ .
- (٦) انظر: رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .
- (٧) رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٣ .
- (٨) وانظر كذلك : السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ١٠٥-١٠٧ .  
القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الأنشاء ، ج ١٤ ، ص ٣٢٦ .

نشطت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطا ملحوظا ، ويضيق بنا البحث لو حاولنا الألام بكل الاتجاهات العامة ، وجميع المصنفات في مختلف نواحي العلم . لكننا سنذكر أبرز العلماء ، وأهم المصنفات في هذه العلوم .

لقيت العلوم الدينية كل الأهتمام في تلك الفترة ، نتيجة اقبال العلماء على تفقه أمور دينهم ، ولما لسوءه من تشجيع السلاطين والأمراء ، لذا ظهرت حركة تأليفية نشيطة في أصول الدين وفرعه ، وكان نتيجة كل ذلك أن حدثت ثورة اصلاحية دينية كان على رأسها امام العصر ابن تيمية .

أما الذين صنفوا في تفسير القرآن فكثيرون منهم : " سليم بن أيوب (١) ، ومحمد بن ظفر (٢) ، وعز الدين بن عبد السلام (٣) ، وسبط بن الجوزي (٤) وغيرهم كثيرون . ومن المحدثين والمصنفين في الحديث : " ابن عساكر الدمشقي (٥) ، ومحمي الدين النووي (٦) ، وجمال الدين بن أبي الزمر (٧) ، والقطب اليونيني (٨) وغيرهم .

ومن العلماء الفقهاء : " النيسابوري (٩) ، وعز الدين بن عبد السلام ، و" ابن تيمية (١٠) ، و" الشهرزوري (١١) ، و" ابن قدامة (١٢) ، و" ابن العديم (١٣) وغيرهم .

- (١) كانتوفاته سنة ٥٤٧هـ ، صنف مجلدا كبيرا في تفسير القرآن ، انظر: أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٠٩ .
- (٢) كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ، ص ٤١ .
- (٣) كانت وفاته سنة ٥٦٥هـ ، انظر أخباره في : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١١٤ .
- (٤) السبكي ، طبقات الشافعية ، ج ٥ ، ص ١٥٣ .
- (٥) توفي سنة ٦٦٠هـ ، انظر ترجمته في : أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٧٢ .
- (٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١١٥ .
- (٧) توفي سنة ٧٢٨هـ ، وانظر ترجمته في : الذيل على الروضتين ، ص ٢١٤ .
- (٨) المتوفى سنة ٥٧١هـ ، انظر: المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .
- (٩) ومن مصنفاته المعروفة اليوم : شرح مسلم ، ومثن الأربعين حديثا النبوية في الأحاديث النبوية الصحيحة النبوية .
- (١٠) انظر أخباره في : الذيل على الروضتين ، ص ٢٣٥ .
- (١١) المتوفى سنة ٦٥٨هـ ، انظر: المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .
- (١٢) المتوفى سنة ٥٧٨هـ .
- (١٣) ومن مصنفاته ، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية ، ورفع الملام عن الأئمة الأعلام .
- (١٤) انظر ترجمته في : الذيل على الروضتين ، ص ٣٥ .
- (١٥) انظر: المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
- (١٦) المتوفى سنة ٦٧٧هـ ، انظر: النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٩ .

اهتم علماء العصر أيضا بدراسة علم اللغة العربية ، فهي الوسيلة  
 لدراسة القرآن الكريم ، فصنفوا في اللغة والصرف والبلاغة والعروض .  
 ففي اللغة والصرف : ألف ابن مالك<sup>(١)</sup> المثلث في اللغة ، والاعتقاد  
 في الظاء والضاد ، والأرجوزتين للكهري والصغرى ، وألف ابن الأثير<sup>(٢)</sup> النهاية  
 في غريب الحديث ، و"ياقوت الحموي" معجم البلدان ، وابن يعقوب<sup>(٣)</sup> شرح المفصل  
 للزمخشري ، وشرح تصريف الملوكي<sup>(٤)</sup> لابن جني ، والسخاوي<sup>(٥)</sup> المفصل في شرح  
 المفصل . . . وغيرهم كثيرون .

وفي البلاغة والعروض : ألف عبد القاهر الجرجاني<sup>(٦)</sup> أسرار البلاغة  
 ودلائل الإعجاز ، و"المسكوي" (٧) الصناعتين ، وابن الأثير<sup>(٨)</sup> المثل السائر ،  
 وأسامة بن منقذ<sup>(٩)</sup> البديع ، وشرح ابن واصل<sup>(١٠)</sup> قصيدة ابن الحاجب في  
 العروض والقوافي .

وشهدت البلاد حركة نشيطة في العلم التاريخية والاجتماعية ، وكان  
 للتطورات السياسية والأحداث الحربية التي شهدتها الأمة أثر كبير على ذلك .  
 وبلغ تقدم المؤرخين أن لا يرووا خبرا ان لم تكن الرواية موثوقة .

- 
- (١) انظر ترجمته في ،
  - ابن شاکر الکتبی ، فوات الوفیات ، ج ٢ ، ص ٢١٤ .
  - (٢) انظر أخباره في ،
  - ياقوت الحموی ، معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ١٥٢ .
  - (٣) انظر : مقدمة معجم البلدان .
  - (٤) انظر : ابن شاکر الکتبی ، فوات الوفیات ، ج ٢ ، ص ٢٨٤ .
  - (٥) انظر أخباره في : الذیل علی الروضتین ، ص ١٧٧ ، ١٨٢ .
  - (٦) انظر : کتابه أسرار البلاغة ، تحقيق : محمد رشيد رضا ، القاهرة سنة ١٩٤٧ .
  - (٧) انظر : کتابه الصناعتین ، تحقيق : علي البهاوی ومحمد أبو الفضل  
 ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
  - (٨) انظر كتابه البديع في نقد الشعر ، تحقيق : أحمد أحمد بدوي  
 وحامد عبد المحيد ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
  - (٩) انظر كتابه مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ، تحقيق : جمال الدين  
 الشيال ، القاهرة ، ١٩٥٦ .



ومن أشهر المؤرخين : "ابن شداد" (١) ، الذي ألخ حياة "علاج الدين" في كتابه النوادر السلطانية والمحاسن الميوسنية ، وألمهو شامة القدسي (٢) الذي ألف الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، والذي على الروضتين ، وابن الأثير (٣) الذي صنف الكامل في التاريخ ، و"سيط بن الجوزي" (٤) صاحب مرآة الزمان ، وأبو الفداء "صاحب المختصر في أخبار البشر" ، والعماد الكاتب "الذي ألف خريدة القصر وحريرة المعصر ، والفتيح القسي في الفتح القدسي" ، وابن واصل "صاحب مفرج الكرب في أخبار بني أيوب" .

ومن كتب التراجم والطبقات: تاريخ دمشق لابن عسكرة وطبقات الملماة لابن أبي طي (٥) ، وعميون الأنبا في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة الدمشقي ، ووفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن كتب الفلسفة والمنطق : فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ، وتهافت التهافت لابن رشد . كما أن هنالك علماء كثيرين أخذوا بنصيب وافر من الفلسفة والمنطق (٦) .

- 
- |    |   |
|----|---|
| ١١ | انظر كتابه النوادر السلطانية ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .  |
| ١٢ | انظر كتابه الروضتين ، تحقيق ، محمد أحمد حلي ، القاهرة ، ١٩٦٢ .  |
| ١٣ | انظر كتابه الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٦٥ .   |
| ١٤ | انظر كتابه مرآة الزمان ، دائرة المعارف العثمانية ، الهند ، لا . ت .   |
| ١٥ | انظر أخباره في الذيل على الروضتين ، ص ١٦١ .   |
| ١٦ | ومن هؤلاء الملماة ، ابن واصل مؤلف مفرج الكرب ، حيث درس المنطق ، وحضر مجالس خاصة في المناظرة . انظر ترجمته في مقدمة كتابه مفرج الكرب . |

تلك ، كانت صورة عن الحالة الثقافية في فترة الحروب الصليبية . وكان من عوامل ازدهار الثقافة ، تشجيع السلاطين والأمراء للعلماء ، بتقريبهم من مجالسهم (١) ، وكفايتهم مؤنة العيش (٢) ، والأكثر من دور العلم (٣) . كما أن انفتاح دار الإسلام ، وعدم وجود حواجز سياسية بين الولايات ، سهّل عمليات انتقال العلماء والرحلة في طلب العلم (٤) .  
وان عصرا يمشي أهله حالة حرب مع الغزاة المحتلين ، ثم يظهر فيه هذا القدر من العلماء ودور العلم والمصنفات ، لا يمكن أن يوسم بالجمود والأنحطاط (٥) .

- (١) ذكر ابن واعل أن " نور الدين " كان يقرب العلماء ويمنع أذى الناس عنهم ، وكان يجمعهم للبحث والنظر . كما أنه كفاهم مؤنة عيشهم فأجرى عليهم الأدارات الكثيرة والصلات العظيمة . انظر: مفتح الكروب ، ج ١ ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .
- (٢) ذكر ابن شداد أن " صلاح الدين " كان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوى الأقدار . انظر: النوادر السلطانية ، ص ١٨ .
- ويوضح هذا الأمر ما جاء في كتاب بعث به الى القاضي الفاضل : " وما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمام في دولته اقطاعا وراتبا يتجاوز مائتي ألف دينار بشهادة الله ، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار " . انظر: كرد علي ، خطط الشام ، ج ٤ ، ص ٣٩ .
- (٣) ان ما بيناه سابقا كاف لتأكيد قولنا .
- (٤) ومن العلماء الذين قدموا الى بلاد الشام من مناطق مختلفة: قاضي قضاة دمشق ابن خلكان ، والمرادى أحد أئمة اشبيلية ، وغيرهما كثيرون . انظر: رحلة ابن جبير ، ص ٢٢٢ .
- (٥) درج الدارسون في تقسيم عصور الأدب العربي على اعتبار هذه الفترة بداية الأنحطاط والجمود . انظر إشارة محمود ابراهيم أيضا في : صدى الفزرو الصليبي في سفر ابن القيمراني ، ص ٤ .

## الفصل الثاني

طبيعة الصراع ودور الشعير في هذه المرحلة

غزو صليبي وجهاد اسلامي

القوة والسوحسة

اشادة بالمجاهدين واستهزاء بالصليبيين

استشارة وتحريض لتحرير بيت المقدس

## غزو صليبي وجهاد اسلامي

وصف "ابن الأثير" حقيقة الحروب التي قام بها الصليبيون ضد المسلمين فقال: "ان الحرب الصليبية كانت استمرارا للحرب في اسبانيا والتي نقلها الأوروسيون الي افريقيا ثم الي آسيا". وأبان عن الدافع الحقيقي بقوله: "وذلك للعداء الذي يكنه الغرب المسيحي للشرق الإسلامي" (١).

وقول "ابن الأثير" هذا دليل كبير على أن الحرب كانت عقائدية وما يؤكد ذلك ما ورد في خطبة البابا في اجتماع "كليرمونت"، واتهامه المسلمين بالكفر، وطرحه الشعار الديني في هذه الحروب (٢). وكذلك ما نلحظه من امجة مؤرخيهم الذين اشتركوا في هذه الحروب، من مشاعر العداء للعقيدة الاسلامية وللمسلمين (٣).

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) من جملة ما ورد في خطبة البابا هذه قوله: "انها ليست لاكتساب مدينة واحدة، بل لامتلاك أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا حجة البيت المقدس، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين، وامتلكوا أديم خالصة لكم من دون أولئك الكفار"، وقال أيضا: "ينبغي أن يسير الأغنياء والفقراء بسواء، ينبغي أن يكفوا عن قتل أحدهم الآخر، وأن يباشروا عوضا عن ذلك القتال الحق، فيؤدون ما أمر الله به أن يعمل، وسوف يكون مرشدا وهاديا لهم. ومن يلق مصرعه في المعركة، تحلل من ذنوبه وغفر الله أخطاه". انظر:

(٣) ستيفن رنسيان، تاريخ الحروب الصليبية، ج ١، ص ١٦٠-١٦٢. ورد في كتاب المؤلف المجهول واصفا شماتة الغزاة قوله:

"انهم يستعملون سلاحا ملاءما للحرب، ويحملون صليب المسيح على أحد الكتفين أو فيهما بينهما، وأما متافهم الذي يردونه جميعا في نفس واحد فهو هكذا أراد الله". انظر:

مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ٢٥.

وفي وصفه قتل المسلمين بعد احتلال القدس قال: "وتعالت أكوامهم حتى حازت البيوت ارتفاعا، وما تأتي لأحد أن سمع أو رأى مذبحه كبذرة المذبح التي ألقت بالشعب الوثني. وجمعت أكوام من العطب كأنها الأعلام ولا يعلم أحد غير الله كم عددها".

مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ص ١١٩-١٢٠.

وإذا كان الصليب شعار الفزاة في حربهم ، فقد طرح المسلمون شعار الجهاد لتحرير المقدسات من الفزاة الصليبيين . وقد عبر الشعراء عن هذا الصراع العقدي بطرق مختلفة :

“ فابن الخياط ” (١) ، ينعت الأعداء بالكفر والشرك في مدحه  
 “ مجد الدين آبق ” (٢) :

وشرُّ الضَّفَّائِنِ مَا أَقْبَلَتْ      لَدَيْهِ الضَّفَّائِنُ بِالْكَفْرِ تَحَدَا  
 بنو الشرك لا يُنْكِرُونَ الفسادَ      ولا يعرفون مع الجور قصدا (٣)

وهي محاولة من الشاعر ، لاستثارة وجدانيات المسلمين على حرب  
 المشركين ، لأن الفساد والجور ملازمان للشرك والكفر .

والشعراء وسوا الفزاة بالكفر منذ احتلالهم “القدس” ، حيث  
 قال أحدهم (٤) :

أَحَلَّ الكُفْرَ بِالْإِسْلَامِ ضِيغًا      يطولُ عليه للدين النَّحِيبُ (٥)

وهذا موقف واضح من الشاعر تجاه الأعداء ، إذ يدرك بأن احتلال  
 “القدس” ، انتصار للكفر على الإيمان . وهي وسيلة أيضا لإثارة الحمية الدينية  
 ضد الصليبيين الفزاة .

(١) هو أبو عبد الله ، أحمد بن محمد المعروف بابن الخياط الدمشقي .

ولد في دمشق سنة ٤٥٠هـ ، وتوفي فيها سنة ٥١٧هـ . قال عنه  
 صاحب الخريدة : “ كان جيد الشعر رقيقه ، له فضله على شعر غيره ” .  
 ثم أورد له أشعارا كثيرة . انظر :

العماد الكاتب ، خريدة القصر وجريدة مصر ، قسم شعراء الشام ،  
 ج ١ ، ص ١١٥ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

(٢) انظر أخباره في :

ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ١٤ ، ص ٢١١ .

ابن واصل ، يفتح الكروب ، ج ١ ، ص ١٢٥ .

(٣) ديوان ابن الخياط ، ص ١٨٢ .

(٤) لا تعرف اسم هذا الشاعر ، لكن الفترة التي قيلت فيها هذه

الآبيات معلومة وهي بعد الاحتلال الصليبي لبيت المقدس ٤٩٢هـ .

(٥) ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

ويظهر الطابع العقائدي بشكل واضح ، في وصف الشعراء انتصارات المسلمين ، وتمجيدهم الأبطال المجاهدين ، وتنديدهم بالصلبيين وهزائمهم .  
 فبعد أن أحرز " تاج الملوك بوري " (١) صاحب " دمشق " انتصارا على الصليبيين سنة ٥٢٣ هـ (٢) ، وصف " ابن القيسراني " (٣) الفزاة بـ " المشركين " ،  
 حتى اذا ما أحاط المشركون بنا كالليل يُلْتَمِهمُ الدُّنيا لَهُ ظُلمُ

وقائد المسلمين عند الشاعر محوط بعناية الله ورعايته :

يَحُوطُكَ اللهُ صَوْنًا عَنْ عِيُونِهِمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَنْ بِاللهِ يَعْتَصِمُ  
 وخيل المسلمين هي " خيل الله " ، ومطلب المجاهدين الشهادة في القتال :

وَالنَّصْرُ دَانٍ وَخَيْلُ اللهِ مُقْبِلَةٌ نرجوا الشهادة في الميِّجا وتفتنمُ  
 وربط الشاعر بين هزيمة الصليبيين واستسلامهم للمسلمين ، وبين هزيمة شعائهم الدينية ، وبقاء القران والصلبان خلفهم في ساحة الوغى :  
 ففادروا أكثرَ القرَّبانِ وأنجفَلُوا وخَلَّفُوا أكبرَ الصُّلبانِ وأنهمزُوا  
 مستسلمين لأيدى المسلمين وقد أغرى الفنا بتمادى حُطْفَمُ نَهْمُ (٤)

- (١) انظر أخباره في : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٧٨-٤٧٩ .  
 ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٣٠-٢٣٣ .  
 (٢) انظر الموقعة في : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٤ .  
 هو أبو عبد الله ، محمد بن نصر بن صغير القيسراني العكاوي .  
 ولد في عكا سنة ٤٧٨ هـ ، انتقل مع أهله الى قيسارية بعد استيلاء الفرنج على بلده فنسب اليها . استقر بادي الأمر في دمشق ، الا أن خلافه مع حكام دمشق " آل طغتكين " جعله يتوجه الى الزنكيين في حلب . نظم أشعارا في الأحداث الجارية بين المسلمين والصلبيين . وكانت وفاته في دمشق سنة ٥٤٨ هـ . انظر ترجمته في :  
 الصماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٩٦ .  
 ومن الترجمات والدراسات الحديثة :  
 محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،  
 فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره .  
 أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٤ . (٤)

وبعد انتصار عماد الدين زنكي على الصليبيين سنة ٥٣١هـ ،  
واستيلائه على حصن "بارين" ، مجد "ابن القيسراني" هذا الانتصار وقدّم  
القائد وجنده المجاهدين منصورين بنصر الله وتأييده :

وَأَيْنَ يُنْجُو مُلُوكُ الشَّرِكِ مِنْ مَلِكٍ      مِنْ خِيَلِهِ النَّصْرُ لَا بَلْ جُنْدُهُ الْقُدْرُ  
فالنصر ليس انتصار شخص أو جماعة ، وإنما يمثل انتصار  
الدين على الكفر وغيونه :

وَأَصْبَحَ الدِّينُ لَا عَيْنًا وَلَا أَثْرًا      يُخَافُ ، وَالْكَفْرُ لَا عَيْنٌ وَلَا أَثْرٌ

وحتى يستثير مشاعر المسلمين ، ربط بين إعادة الساحل الشامي  
المحتل الى الحضيرة الاسلامية ، وبين شخصية اسلامية كبيرة ، هي شخصية  
"عمر بن الخطاب" (رضي الله عنه) ، الذي ارتبط اسمه بالفتوحات الاسلامية الاولى :

حتى تعود نفوس الشام ضاحكة      كأنما حلّ في أكنافها عمر (١)

وعندما انتصر عماد الدين "في" شيزر سنة ٥٣٢هـ ، كان البطل  
في شعر "ابن قسيم الحموي" (٢) ، يمثل النور القابس في ساحة الوغى ، بينما  
قائد الفرنج يمثل الشيطان الذي فرض الله رجمه :

كأنك في الحجاج شهاب نور      توقد وهو شيطان رجيم

واستعمل الشاعر الفاظ لها أبعاد ودلالات كثيرة في الاسلام ،  
فقارن بين المجاهد والعدل ، وبين المدو والظلم :

وما أحييت فينا العدل حتى      أميت بسيفك الزمن الظلم

وعليه فأن جنات عدن مصير المجاهد ، بينما النار مصير الأعداء :

تُزَخْرِفُ لِلْأَمِيرِ جَنَاتِ عَدْنٍ      كَمَا لِعَدَاةٍ تَسْتَعْمِرُ الْجَحِيمَ

وطا لما أن المجاهد يقاتل في سبيل الله ، فأن الشاعر يدعو  
الله أن يجيره على أعماله ويدخله جنات النعيم :

وَأَنْ تَكُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تُشْقَى      فَعِنْدَ اللَّهِ أَجْرُكَ وَالنَّعِيمُ (٣)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٢) هو أبو المجد ، مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي التنوخي .  
كان ثالث القيسراني والطرابلسي في زمانهما . ذكر صاحب الخريدة  
أن ابن قسيم سبقهما في هذا الميدان ، وكانت وفاته سنة ٥٤٢هـ .  
العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤٣٣-٤٨٠ .  
وانظر : ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٨٢ .

(٣) العماد الكاتب ، الخريدة ، ج ١ ، ص ٤٧١ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ .

وعندما استرد "عماد الدين زنكي" الرها سنة ٥٣٩هـ ،  
مجده "ابن منير الطرابلسي" (١) باعتباره مجاهدا في سبيل الله ، ويخوض  
الحرب بسيف الله فينصر بنصره ، وهو بالتالي متفرد بهذا الانتقاء الرائي ،  
وليس له شبيهه من الملوك :

يا صارماً بيمينِ الله قائمُهُ      وفي أعالي أعادي الله حُداهُ  
أصبحت دون ملوكِ الأرضِ مُنفرداً      بلا شبيهٍ ان الأملِكُ أنبأهُ  
ويظهر الشاعر شماتته بما لحق الأعداء من ذل وهوان ، ويعيّرهم  
لأن الله مع المجاهدين فنصرهم ، وخيب آمال المشركين فحرّمهم النصر ؛  
قلْ لِلْأَعَادِي أَلَا مُوتُوا بِهِ كَمَدّاً      فاللهُ خيبتهمُ واللهُ أعطاهُ

وقد استعمل تعابير خاصة مرتبطة بالتاريخ الإسلامي والعقيدة  
الاسلامية ، وذلك لتترك انطباعات معينة في النفس ، ولتحدث ايحاءات خاصة ؛  
أينِ الخلائفُ عن فتحِ أُتَيْحَ لَهُ      فظللُ أفقَ الدنيا جناحاهُ  
على المنايرِ من أنبائه أرجهُ      مقطوبةً بفتيقِ المسكِ رِيَاهُ  
فتحُ أعادٍ على الإسلامِ بهجته      فافتَرَّ ميسمُهُ واهتزَّ عطفاهُ

ان هذه المعاني الاسلامية التي عبّر عنها الشاعر ، بانتصار الدين ،  
وبهجة منابر الاسلام ، تعود به الى أن يتذكر المعمارك الاسلامية السابقة بقيادة  
المسلمين المجاهدين . فربط بين هذا الفتح وطله ، وبين عمورية\* وبطلها "المعتصم" ؛

يَهْدِي بِمَعْتَصِمٍ بِاللَّهِ فَتَكْتُمُهُ      حَدِيثُهَا نَسَخَ الْمَاضِي وَأَنْسَاهُ  
ان الرها غير عمورية وكذا      من رامها ليس مغزاهُ كمغزاهُ (٢)

- (١) هو أبو الحسين ، أحمد بن منير بن مفلح بن أحمد الطرابلسي .  
ولد في طرابلس سنة ٤٧٣هـ ، وكانت وفاته في حلب سنة ٥٤٨هـ .  
كان شاعراً هجاء معارضاً لابن القيسراني ، فهما كجربير والفرزدق .  
وكان من الشيعة الغلاة . أقام بدمشق ثم آوى الى شيزر . اتصل  
في آخر عمره بنور الدين محمود . انظر أخباره في :  
العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٧٦-٩١ .  
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٣٩-١٥٠ .  
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٤٦ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٩ . (٢)



وفي قصيدة ثانية "للطرابلسي" ، يؤكد أن فتح الرها عصمة  
للدين من كيد الأعداء المارقين ، وبخاصة أن هذا الفتح المبين تم على يد  
المجاهد "عماد الدين" ،  
بعماد الدين أضحّت عروة السدي  
واستزادت بقسيم الدولة القسي  
من معصوماً بها الفتح المبين  
م من اد حاض كيد المارقين  
وهذه القوة التي اتصف بها البطل ، لا يمنحها الله الا لخير  
القاتحين ، فاختر "عماد الدين" من أهل الشام لأنه لا يخاف أحدا بل يخيف  
الأميين ؛

تلك أفعال رماها الله من  
شام منه الشام برقاً ودقه  
عزمه الماضي بخير القاتحين  
مؤمن الخوف مخيف الأميين  
لا عجب بعد أن يكون القائد مدعوما بقوة الله ، أن يتمكن من القضاء  
على أعدائه ، وأن يفني الكنائس من بقاياهم ، فيصبحوا في حمايته ؛  
كم كنيسة كُنست قد رامها  
منه بعد الروح في ظل السفين (١)  
ولأن "الرها" كانت من الأمارات المهمة عند الصليبيين ، فقد أكثر  
الشعراء من التفتي بفتحها ، والأشادة ببطولها "عماد الدين" ، والأفتخار بعزة  
الأسلام .

ثابن القيسراني ، يعبر عن علو شأن الدين ، بانتصار المجاهد  
الذي يقاتل للذب عن الإسلام بقوله ؛  
سمت تبةً الإسلام فخرًا بطوله  
ولم يك يسمو الدين لولا عماده  
وذاد قسيم الدولة ابن قسيمها  
عن الله ما لا يستطيع زياده  
ويعبر الشاعر عن معاني الفرحة بالنصر ، فيزف البشرى والتمنئة  
لكل المسلمين ، لأن النصر للدين ، وهذا لا يخص أهل الشام وحدهم ؛  
ليهن بني الأيمان أمن ترقمت  
رواسيه عزاً واطمان مهاده (٢)

- 
- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٩-٤٠ .  
(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٥ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧-٢٨ .

و" لابن القيسراني " قصيدة ثانية يمني " فيها القاضي " كمال الدين الشهرزوري " (١) بفتح " الرها " ، ويعبر فيها عن هذه المعاني الإسلامية ، ويقرن الفتح بفتوحات الأنبياء فيقول ،

لله أيةٌ وقفةٌ بدريةٌ      نصرت صحائبها بأيمن صاحب  
وأمدكم جيشُ الملائكِ نُصرةً      بكتائب محفوفة بكتائب  
جنبوا الدبورَ وقد شمَّ ربحُ الصبا      جندُ النبوة هل لها من غالب (٢)

فشيبه هذا الفتح والنصر بانتصار المسلمين في " بدر " ، وإن جيشاً يمدّه الله بكتائب من عنده ، لا عجب أن ينتصر على أعدائه ، لأن جند النبوة لا غالب لها .

وحيثما انتصر " نور الدين " على الصليبيين في " أنب" سنة ٥٤٤هـ عبر " ابن منير الطرابلسي " عن انتصار الدين وهزيمة الضلال ، وانتشاء " دين محمد " ( صلى الله عليه وسلم ) ، وأرساء قواعد الإسلام ، بعد أن كان حزب الضلال مسيطرًا وظاهراً على الهدى ،

أقوى الضلالُ وأقفرَّت عرصاته      وعلا الهدى وتبلّجت قسامته  
وانتاشَ دينَ محمدٍ محموده      من بعد ما غلبت دماً عبراته  
رددت على الإسلامِ عصرَ شبابه      وثباته من دونه وثباته  
أرسى قواعده ومد عمساده      صعداً وشيخاً سورة سوراته  
وأعاد وجهَ الحقِ أبيضاً ناصعاً      أصلاته وصلاته وصلاته

وعلى هذا النحو من الشعور بنشوة الإسلام والمسلمين ، وانتصار الحق والدين ، عبر الشاعر عن كل هذه المعاني الإسلامية ، التي تعزز علاقة المسلم بأركان دينه ، وكفريضة الصلاة وغيرها من القيم والأخلاق التي يتحلى بها المسلم . والشاعر يربط بين هزيمة الأعداء ، وخذلان شعائم الدينية ، وأهم هذه الشعائر صليهم الذي طرحوه دافعا للقتال :

صدم الصليب على صلابة عوده      فتفرقت أيدى سبا خشباته  
كما أن الهزيمة لحقت بأقدس مكان عند الأعداء ، يودون فيه شعائرهم وطقوسهم ، فترك كنائسهم فاضية بعد هربهم لما لحقهم من ضربات السيوف ، ترك الكنائس والكناس لناهب  
بالببيض نهباً ما حواه عفاته (٣)

(١) انظر أخباره في : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧-٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، ج ١ ، ص ٦١-٦٢ .

وحيث فتح " نور الدين " انطرسوس سنة ٥٤٧ هـ ، عرض  
 " ابن منير الطرابلسي " بالأعداء ، فوسمهم بالشرك ، كما نعت شعائرهم بالأوثان ،  
 وحقّر من شأن عقيدة التثليث التي يؤمنون بها فقال :

أخلى ديارَ الشرك من أوثانها حتى غدا ثالوثكُن نكيرا (١)

وعندما انتصر أسطول " طلائع بن رزيك " (٢) على الصليبيين في  
 " عسقلان " سنة ٥٥٣ هـ ، نظم " ابن رزيك " واصفا هذا اللقاء ، ثم نعت  
 جيوش الأعداء بالكفر فقال :

وتغزى جيوشُ الكفر في عُقر دارها ويوطأ جماها والأنوفُ رواغمُ

والشاعر يعبر عن معاني الجهاد في سبيل الله ، فالبكاء لا قيمة  
 له على من يهلك في الحياة دون أن يكون ساجدا ، ولذا فإن المقاتلين باعوا  
 أنفسهم لله :

ولو أننا نبكي على فقد هالك لقلّت له منا الدموعُ السواجمُ  
 ولكننا بعنا الألسنة فوسننا إذا لم تُصَبنا في الحياة العائمُ (٤)

- 
- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٨٦-٨٧ .  
 (٢) الملك الصالح طلائع بن رزيك ، من أصل أرمني ، كان يعيل إلى  
 الفاطميين ، عين أول الأمر على إحدى الولايات العراقية ، وبعد  
 مقتل الظاهر ومبايعة الفايز سار بجنده إلى القاهرة ، وتولى  
 الوزارة سنة ٥٤٨ هـ ، ولقب آنذاك بالملك الصالح . كان على علاقة  
 متينة بأسامه بن منقذ ، حيث كان ابن منقذ يبلغ نور الدين رسائل  
 صديقه التحريضية على الوحدة والجهاد . قتل سنة ٥٥٦ هـ . انظر :  
 أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ٣٠ .  
 ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٩٣ ، ٢٧٤ .  
 (٣) انظر الموقعة في :  
 أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٤-١١٥ .  
 (٤) ديوان طلائع بن رزيك ، ص ١٣٥-١٤٢ .  
 أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٥-١١٦ .

ومن المعاني الدينية ما عبر عنها الشاعر "عمارة اليميني" (١) بعد انتصار "صلاح الدين" على الصليبيين في "غزة" سنة ٥٦٦هـ (٢) فقال:

غزوا عُقْر دَارِ الْمُشْرِكِينَ بِغَزَاةٍ      جِهَاراً وَطَرْفَ الشَّرِكِ خَزِيَانِ مُطْرَقِ  
وَزَارُوا مُصَلَّى عَسْقَلَانَ بِأَرْعُنِ      يَفِيضُ إِذَا الْبَرْمَنُ وَفَهَقِ

فالشاعر يعلن صراحةً منازلة الجيش الإسلامي لجيش المشركين، ولم يعمد إلى التلميح بذكر شي من شعائرهم، بل تحدث مباشرة عن الشرك والأسلام. لكنه كشف عن عقيدة المسلمين من خلال زيارتهم مصلى "عسقلان" وقيامهم بواجباتهم الدينية.

والمشركون تسوروا بخندق حتى لا تنالهم سيوف المسلمين، ولكن لم تنفعهم تلك الأسوار والمناقل، لأن قوة المسلمين خربت كل أعمالهم:

وَمَا عَصَمَتْهُمْ مِنْكَ إِلَّا مَسَاقِلُ      تَأْتُوا عَلَى تَحْصِينِهَا وَتَأْتِقُوا

جَلَيْتَ لَهُمْ مِنْ سُورَةِ الْحَرْبِ مَا لَتَقَى      بُوَادِرُهُ سَوْرَتُهُمْ وَخَنْدَقِي (٣)

فلاحظ اهتمام الشاعر الكبير بالناحية الروحية، والتدليل في شعره من القرآن الكريم، فالجيش الإسلامي أجبر الأعداء على الخندق، وكأنه استحضر لهم هذا السور من السورة في القرآن الكريم، فكانت الواقعة عليهم.

(١) كان عمارة اليميني متشيعاً إلى الفاطميين، وقد رثاهم بقصائد جيدة، وقيل إنها أحسن ما قيل في رثاء الدول. مدح شاور وضرغام، مع أن هذين الوزيرين كانا من مسيبي الفتن والخلافات في الدولة الإسلامية، وهذا بالإضافة إلى تعاونهما مع الصليبيين. تأمر الشاعر مع جماعة ضد صلاح الدين وكان كنز الدولة بن الصنوج على رأس هذه الجماعة، فافتضح أمرهم، وكان هذا سبب إعدامهم جميعاً سنة ٥٦٩هـ. انظر أخباره في:

ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٣٩٨-٤٠١.

ابن تغرى بردى، والنجم الزاهرة، ج ٦، ص ٧٠.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ٥٠٦.

أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢١٩-٢٢١.

انظر الموقعة في:

أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٩٢.

ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٣٦٥.

أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٩٣.

وعندما انتصر "صلاح الدين" في موقعة "مرج العيون" سنة ٥٥٧٥ هـ ،  
 مجّد "الجويني" (١) هذا النصر ، وأغنى قصيدته بالتعابير الإسلامية الدالة .  
 فالله معين للمجاهد ، وهو كفيل لتحقيق رغباته ، فشكره واجب لما حقق من نصر  
 عزيز وفتح مبين :

لك ربّ السماء خير معين      وكفيل لما تحبّ ضمير  
 فله الحمد أي نصر عزيز      قد حبانا به وفتح مبين  
 والله يرى الكفار بأسياف المسلمين مالم يخطر على بالهم من القوة ؛  
 وألهم ربّ السماء بأسيا      فك مالم يجلّ لهم في ظنون  
 وبهذا الفتح المبين تشفى صدور المؤمنين ، وتقرّ عيونهم ؛  
 ان هذا الفتح المبين شفاءٌ      لصدور وقرّة لميون  
 وبعد كل هذه المعاني الدينية ، ربط الشاعر بين هذا الفتح وبين  
 يوم "حنين" ، لما لاقى المسلمون من مصاعب ؛

هو يوم أضحى كيوم حنين      سهّل الله نصره في الحزون (٢)

ان هذه التعابير التي استعملها الشاعر "لك رب السماء" ،  
 نصر عزيز ، فتح مبين ، وقرّة لميون " وغيرها ، قد نجد ما يطابقها معانيها في  
 القرآن الكريم . فعندما اعتبر الشاعر هذا النصر من الله بسيوف المسلمين فتحا  
 مبينا وشفاء للصدور ، فأنا نرتد الى القرآن ونتذكر الآية " قاتلوهم يعذبهم الله  
 بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين " (٣) .

- (١) هو أبو علي ، الحسن بن علي بن إبراهيم الملقب بفخر الكتاب . ولد  
 في جوين من نواحي نيسابور . كان من ندما عماد الدين واتصل  
 بابنه نور الدين محمود . سافر الى مصر في أيام الملك الصالح  
 طلائع بن رزيق ، وتوطن بها الى أن توفي سنة ٥٥٨٤ هـ . انظر أخباره ؛  
 ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .  
 أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩ .  
 ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ٢ ، ص ٧٨ .  
 أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩ .  
 (٢) سورة التوبة ، الآية ١٤ .  
 (٣)

وعبر "ابن الساعاتي" (١) عن معانٍ اسلامية كثيرة في هذه الموقمة .  
فالمجاهد شهاب نور يهدى في جسد مظلم سببه الشرك ، وسيقه طائع لله يحقق  
فريضته :

شهابٌ هدى في ظلمة الشرك ثامبٌ      وسيفٌ هدى في طاعة الله مرهفٌ

والبطل في هجومه على "حصن المخاض" (٢) ، يهدف الى شيء  
واحد وهو الجهاد في سبيل الله ، وهذا موقف حق لا يوازيه موقف :

وقفت على حصن المخاض وانه      لموقف حق ما يوازيه موقفٌ

ويقارن الشاعر بين شعائر العقيدتين ، من خلال وصفه هزيمة الصليبيين  
وانتصار المسلمين . فسقوط الصليب والبيعة ، دليل على هزيمة الأعداء ، وسيادة  
الدين الحنيف والقرآن الكريم دليل على انتصار المسلمين :

كبا من أعاليه صليبٌ وبيعةٌ      وسادُّ به دينٌ حنيفٌ ومصحفٌ

والشاعر يسم الأعداء بالكذب حين يحلفون ، ولذا يستبعد أن يكون  
لهم وطن في أرض الأنبياء :

أتسكنُ أوطانَ النبيين عصبهٌ      تمينُ لدى أيمانها حين تحلفُ

ولذا يقدم الشاعر النصيحة الى الأعداء بأن يتركوا الديار الاسلامية  
لأن الناصر يوسف سوف يقضي عليهم :

نصحتكم والنصح في الدين واجبٌ      ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف (٣)

على هذا النحو يصف الشاعر الأعداء ، ويأبى أن يذكرهم الا بما يشير  
اليهم من شعائر وصفات ، بينما يصرح بذكر المسلمين والدين والقرآن . وكل ذلك  
دليل على حقيقة الصراع الذي كان دائرا بين الصليبيين والمسلمين .

- (١) هو أبو الحسن ، بهاء الدين علم بن محمد بن رستم بن مردوزة  
المعروف بابن الساعاتي . ولد في دمشق سنة ٥٥٣هـ وكان عارفا  
بعلم النجوم ، وخبيرا بصنع الساعات الفلكية . استخدمه نور الدين  
في عمل الساعات التي كانت عند باب الجامع الأموي ومن هنا لقبه .  
اتصل بالسلطين الأيوبيين ومد عمهم وبخاصة الناصر صلاح الدين .  
نظم في الأغراض المختلفة ، وله ديوان شعر مطبوع ، وتوفي سنة ٦٠٤هـ .  
انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٦٢ .  
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ١٣ .  
حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
- (٢) هو حصن بيت الأحزان الذي تمكن المسلمون من السيطرة عليه بين  
حلب وحماة . انظر: ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ٢ ، ص ٢٥ .
- (٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٧٥٥-٧٦١ .

وبعد أن استرجع "صلاح الدين" "طبرية" سنة ٥٨٣هـ ، صور  
 "ابن الساعاتي" عودة "طبرية" الى الحظيرة الإسلامية ، بالهدى الذي يقدم الى  
 "صلاح الدين" فقال :

وما طبرية الا هدى  
 ترفع عن أكفّ التلاميذ

وان "صلاح الدين" في قتاله ، انما يؤدى فرضا من فرائض الاسلام ،  
 وقد استطاع أن يحقق أماني المسلمين وتظنونهم فيه ،

قضيتَ فريضةَ الاسلامِ منسهما  
 وصدقتَ الأمانى والتظنونا (١)

فنلاحظ وضوح الرؤية عند الشاعر ، فالمسلمون لا يقاتلون لعصبيّة ،  
 أو لغنائم أو غير ذلك من أهداف دنيوية ، انما يؤدون فرض الجهاد الذى كتبه  
 الله عليهم ، وهم في هذه الحالة يلتقون مع أهداف المسلمين الأوائل في فتوحاتهم .

ويمكننا بعد ذلك ، أن نستشف حقيقة الصراع الذى دار في

هذه الفترة . فالغزاة طرحوا شعار الصليب دافعا للقتال ، والمسلمون  
 يقاتلون الغزاة ، ويؤدون فرض الجهاد في سبيل الله . من هنا كان الصراع  
 عقديا بين الصليبيين والمسلمين .

وقد عبر الشعراء عن هذا الصراع بطرق مختلفة ، فالجاهد  
 منصور بنصر الله ، وخيل المسلمين هي خيل الله ، والجنود يد الله بطلائكة  
 من عنده ، والتهنئة موجهة الى كل المسلمين ، والنصر للدين لا لفئة أو لشخص  
 والنصر في موقعة يذكر بالفتوحات الإسلامية السالفة ، وبالجاهدين الأوائل .  
 الى غير ذلك من معان إسلامية . كما أن هزيمة الأعداء ، هزيمة للصليب والكنائس ،  
 وهي هزيمة لشعائرهم وطقوسهم .

وبالإضافة الى الدور الوظيفي الذى أداه الشعر بتسجيل حقيقة  
 هذه الحروب ، فقد أدى دورا جهاديا بتوجيه الناس نحو واجبه الديني ،  
 وجمعهم تحت راية الجهاد في سبيل الله ، وهو أقوى دافع للقتال وتحرير المقدسات .

(١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ .

## القوة والوحدة

أدرك الشعراء أن القوة والوحدة سبيلا النصر . فمجّدوا قوّة المسلمين ، وفاخروا بقدرة المجاهدين ، وباركوا عمليّات التوحيد التي قام بها الأبطال ، لأن وحدة الأمة سبب من أسباب القوة .  
ومن مظاهر الاعتزاز بالقوة وتمجيد بسالة المجاهدين ، قول ابن القيسراني " بعد انتصار " عماد الدين " قرب حصن " بارين " سنة ٥٣١ هـ .  
حذارِ منّا وأتسى ينفعُ الحذرُ      وهي الصوامرُ لا تُبقي ولا تُذرُ  
وأين ينجو ملوكُ الشركِ من ملكٍ      من خيله النصرُ لا بل جندُه انقذرُ  
فالشاعر يحذّر المشركين من قوة المجاهدين ، لأنهم يحملون سيوفاً لا تبقي ولا تذر . ولذا ، لا سبيل للنجاة من سيوف المسلمين ومن خيلهم التي ينصرها الله .  
وان المسلمين عندما استلّوا سيوفهم في هذه المعركة ، بقوا يلحقون أعداءهم ضربات متتالية ، حتى ذهبت قوة الصليبيين ، وصاروا في مأزق يكاد يبرق البصر من شدته :

سلّوا سيفاً كما غمادِ السيوفِ بها      صالوا فما غمّدوا نصلاً ولا شهزوا  
حتى إذا ما عمادُ الدين أرهقهم      في مأزقٍ من سناه يبرقُ البصرُ  
ويتابع الشاعر وصف قوة المسلمين ، وما لحق الأعداء من شدة ضرباتهم ، حتى اضطر الأعداء الى الهرب ، وضاعت الأرض عن أن يجدوا مكاناً يلتجئون اليه :

ولّوا تضيقُ لهم ذرعاً مسالكهم      والموتُ لا ملجأً منه ولا وُدُ  
وفي المسافة من دون النجاة لهم      طولٌ وإن كان في أقطارها قصرُ  
وتصل ثقة الشاعر بقوة المجاهدين ، وقدرتهم على متابعة القتال ، الى أن يطلب من البطل " عماد الدين " ألا يحسب حساباً للفرنج بعد هذه الموقعة ، لأن مصيرهم القتل أو الحرب أو الحصار :

فلا تخفْ بعدها الأفرنج قاطبةً      فالقومُ ان نغروا ألوى بهم نَفَرُ  
ان قاتلوا قتلوا أو حاربوا حاربوا      أو طاردوا طردوا أو حاصروا حصروا (١)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٤ .



وفي القصيدة التي نظمها " ابن قسيم الحموي " بعد انتصار عماد الدين " في " شيزر " سنة ٥٣٢ هـ ، يفاخر بقوة المجاهد البطل ، وثقته بهذه القوة ليس لها حدود ، اذ يستطيع القائد أن يذل كل الصعاب ، ويقوم اعوجاج الأمور :

بمزمرك أيها الملك العظيم      تذلل لك الصعاب وتستقيم

هذا العزم والتصميم على قتال الأعداء ، وتلك القوة التي ظهرت في القتال ، جعلت جيش الأعداء في موقف لا يحسدون عليه ، بل يحزن الناظر اليهم ، اذ لم يعودوا يحركون ساكنا :

وابصر في المفاضة منك جيشاً      فأحزن لا يسير ولا يُقيم

ويصل الأمر الى أن يلتصق الفرع عفوا من القائد ، لكن المجاهد مصمم على قطع دابرهم والقضاء عليهم :

أيلتصق الفرع لديك عفوا      وأنت بقطع دابرها زعيم

ان ثقة " عماد الدين " بقوته ، وثقة المسلمين بقدراتهم ، تمكن القائد من القضاء على النفوس التي تكن العدا لل المسلمين :

اذا خطر سيوفك في نفوس      فأول ما يفارقها الجسم (١)

واننا نلمس وهي الشاعر كيفية توجيه العميون نحو القائد ، حتى تتكاتف الأيدي حول بطل واحد ، يجمع قدرات المسلمين ويواجه المحتلين .

كما أن هذا التعلق بالقائد ، وهذه الثقة العارمة بأن القوة وحدها سبيل النصر ، دليل على وضوح الرؤية عند الشاعر .

(١) العماد الأصفهاني ، الخريدة ، ج ١ ، ص ٤٧١ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ .

ويؤكد "ابن القيسراني" أن السيف والقوة طريقا النصر، وذلك بعد أن تم فتح "الرها" على يد "عماد الدين" سنة ٥٣٩هـ فقال:

هو السيف لا يُغنيك إلا جلادُه  
وهل طسوقُ الأملِك إلا نجادُه  
فهذه المدينة بقيت مدة خمسين سنة تحت نير الألفك والعدوان ،  
حتى جاءت سيوف المند وأزاحت عنها حدادها ؛  
مدينة أفلِك منذ خمسين حجّةً  
يفلُّ حديدُ المندِ عنها حدادُه  
ويهدّد الشاعر الأعداء بقوة المجاهدين فيقول :

الى أين يا أسرى الضلالة بعدَها  
لقد ذلَّ غاويكم وعزَّ رشادُه  
وحتى يزيد من حماس المجاهدين ، ويضيف الى قوتهم مزيدا من الثقة والأمل بانتصارات كثيرة ، ينصح ملوك الكفار بالرحيل ، وتسليم البلاد لأصحابها :

وقلْ لملوكِ الكفرِ تسلِّمِ بعدَها  
ممالكها ان البلادُ بلادُه (١)  
وفي المناسبة نفسها ، قال "ابن القيسراني" مهنئا "كمال الدين الشهرزوري" بهذا الفتح :

ان الصفائحَ يوم صانحتِ الرها  
عظفتَ عليها كلُّ أشوسِ ناكبِ  
فهو يعتز بقوة المجاهدين ، وينبذ بما حلَّ للصليبيين . ومن أجل استثارة الحماس في النفوس ، يقتل من شأن الأعداء ، إذ لم يعد لهم مجال للهرب :

لا أينَ يا أسرى المهالكِ بعدَها  
ضاقَ الفضاءُ على نجاةِ الحاربِ  
واعتبر الشاعر هذا الفتح ايذانا بالنصر الكبير الذي سيتبعه ، وشبه ذلك باستعدادات الليث ، الذي يزمع على الانقضاض على فريسته :

واذا رأيتَ الليثَ يجمعُ نفسه  
دون الفريسةِ فهو عينُ الوائبِ (٢)  
وعندما هنا الشاعر "أبا جعفر محمد بن علي الأصهباني" بفتح "الرها" الثاني على يد "نور الدين" سنة ٥٤١هـ (٣) ، عبر الشاعر عن ايمانه بقوة السلاح طريقا لتحرير الأرض والمقدسات فقال :

الى كم يغبُّ ملوكُ الضلال  
سيفٌ بأعناقِها كافل  
فلا تحفلنَّ بصوتِ الذئبِ  
ب وقد زارُ الأسدُ الباسل

- (١) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٥ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٧-٣٨ .  
(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ .  
(٣) انظر الموقعة في : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١١٤ .

والدين لن يحميه الا فتى قوى ، آمن بأُن القوة واعمال السيف  
 في الأعداء سبيل الى النصر؛  
 وهل يمنع الدين الا فتىً يصول انتقاماً فيستأصل (١)

ان تجيد القوة على هذا النحو ، من شأنه تحميس المجاهدين ،  
 ولقتاً نظار المسلمين الى الوسيلة الصحيحة لتحرير المقدسات .  
 وتزداد نغمة التفتي بالقوة مع اشتداد الممارك واحتدامها ،  
 فعندما انتصر " نور الدين " في " أتب " سنة ٥٤٤هـ مجتد " ابن القيسراني "  
 عزيزة القائد ، وشدة وقع ضربات المجاهدين على الفزاة فقال :

هذي المنزائم لا ما تدعي القُضْبُ وذى الكارم لا ما قالت الكُتْبُ  
 وهذه العممُ اللاتي متى خَطَبْتُ تمثرت خلفها الأشعارُ والخطبُ

فالشاعر يضع جانباً أقوال الكتب ، ويعلي من شأن السيف لأعادة  
 الحق الى نصابه . فلا قيمة لكل الأقوال والأشعار ، بجانب القوة التي تودي  
 بأعناق الأعداء .

ولذا يعمد الشاعر الى الافتخار بقوة القائد ، حتى يزيد من حماسه  
 ويواصل الجهاد :

لله عزمك ما أمضى وهمك ما أقضى اتساعاً بما ضاقت به الحقبُ

ثم نرى الشاعر يلجأ الى التهديد والوعيد ، حتى يرفع من معنويات  
 المجاهدين ، ويحطم من مشاعر الأعداء فيقول :

قل للطفاة وان صمت مسامعها قولا يصم القنا في ذكره أربُ  
 ما يوم أتب والأيام دائلة من يوم (بغرا) بعيد لا ولا كتب (٢)

فهو يذكر الأعداء بانتصارات المسلمين السابقة في " بغرا " ، وكل ذلك  
 لتحقيق غاية التشجيع للمجاهدين ، وتقليل قيمة الأعداء .

(١) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٩ .  
 بغرا : من المواقع المهمة للصليبيين في حلب . وكان الصليبيون  
 قد انتصروا على المسلمين في هذا الموقع ، ولكن سنة ٥٤٣هـ انتصر  
 المسلمون ، فتغنى الشعراء بهذا النصر . انظر :  
 ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣٠٤ .  
 ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣١ .

(٣) وانظر في الأبيات : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨ .  
 العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١١٢-١١٤ .

ونكاد نسمع ضربات المجاهدين في هذه الموقعة من شعر ابن  
منير الطرابلسي الذي يقول:

حُطَّ القوامصُ فيه بعد قُصاصها      ضربٌ يصلُّ في الطلجِ صعقاته

فقد ترك الأعداء أسلحتهم ، وختلوا لأسد اعتاد على حمل  
السلاح ، وركوب الخيل ، فصارت الرماح غاية من غاياته:

نبتوا السلاحَ لضيغم عاداته      فرسُ الفوارسِ والقنا غاياته

ان هذه القوة التي اتصف بها البطل ، تذكر الشاعر بقوة الخليفة  
"عمر بن الخطاب" (رضي الله عنه) ، وبغزوات المعتصم ضد الروم المتواصلة:

لمجربٍ عمريةٌ غضبانته      لله معتصمةٌ غزواته (١)

فلاحظ حرص الشاعر على تذكير الأبطال ببطولات المجاهدين  
السابقين ، والذين كان لهم دور في حرب المشركين ، مما يشير الى تصور الشعراء  
بأن هذه الحروب استمرار لحروب المسلمين الأوائل ، في أهدافها وفي صبغتها  
الدينية .

واعترض "طلائع بن رزيك" بقوة جيشه ، بعد أن لاقى الصليبيين  
في "عسقلان" سنة ٥٥٣هـ فقال:

ألا هكذا في الله تمضي المعزائمُ      وتمضي لدى الحربِ السيوفُ الصواممُ

وتستنزلُ الأعداءُ من طودِ عزهم      وليس سوى سمرِ الرماحِ سلامٌ (٢)

فالشاعر مؤمن بأن الجهاد في سبيل الله واستعمال القوة ، حتى  
تكون الرماح سلام توصل الى الأهداف ، هي الوسائل الوحيدة لطرد الفزاة  
وتحرير المقدسات .

ولذا فإن غزو الأعداء في أماكنهم ، أمر ضروري لتحقيق الغايات ،  
وكبح جماح الفزاة:

وتغزى جيوشُ الكفرِ في عقرِ دارها      ويوطأ حماها والأنوفُ رواغمُ

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٢) ديوان طلائع بن رزيك ، ص ١٣٥-١٤٢ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٥-١١٦ .

وإذا كانت القوة العامل الرئيسي في الحروب ، فإن وحدة الأمة ،  
 وتجميع قدراتها وطاقاتها عامل رئيسي في هذه القوة .  
 ويمكن أن يكون تأخر النصر الكبير ، رغم المواجهات العسكرية  
 المتكررة ، عائد إلى التشتت الذي كانت تعاني منه الدولة الإسلامية .  
 أدرك المجاهدون هذه الحقيقة ، فبدأ الأبطال يخططون  
 للقضاء على التمرد في الإمارات والحكام ، وانهاء الخلافات القائمة ،  
 وتوحيد الجهود المبذولة ، للوقوف صفا واحدا أمام الصليبيين الغزاة .  
 وكان للشعراء دور كبير في الدعوة إلى هذه الوحدة ، وذلك  
 بأساليب متعددة .

ومن هذه الأساليب ، الحضرة المباشرة على الوحدة ، كما نجده  
 في رسائل " ابن زريك " ، من دعوات مخصصة لتحقيق الوحدة بين بلاد الشام  
 ومصر . وكان " ابن زريك " يرسل هذه الرسائل إلى " أسامة بن منقذ " ، حتى  
 يقوم بأبلاغها " نور الدين " . ومنها قوله :

لمعرى ان المناصم للدد	ين على الله أجره محسوب
وجهاد المد وبالفعل والقو	ل على كل مسلم مكتوب
فانهض الآن مسرعا فبأمشا	لك ما زال يدرك المطلوب
والقينا رسالة عند نور الد	ين ما في القائهما ما يريب
قل له دام ملكه وعليه	من لباس الأقبال يرد قشيب
أيها العادل الذي هو للدد	ين شباب وللحروب شبيب
والذي لم يزل قدما عن الأسلا	م بالعزم منه تجلى الكروب
وقدا منه للفرنج اذا لا	قوه يوم من الزمان عصيب
غيرنا من يقول ما ليس يرضي	ه بفعل وغيرك المكذوب
قد كتبنا اليك فأوضح الآن	بماذا عن الكتاب تجيب
قصدا أن يكون منا ومنكم	أجل نفسي مسيرنا مضروب
فدينا من العساكر ما ضا	ق بأدناهم القضاء الرحيب
وبحول الآله ذاك ومن غا	لبارسي فإنه مقلوب (١)

(١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ١٦٤-١٦٦ .  
 ومما يذكر أن هذه القصيدة لم تثبت في ديوان طلائع بن زريك ،  
 الذي جمعه : محمد هادي الأميني ، سنة ١٩٦٤ م .

أكد الوزير الشاعر رغبته في الوحدة مع "نور الدين" ، حتى يتمكن المسلمون من مجابهة الأعداء . وهو مؤمن بأن هذه الأعداد الكبيرة من الجنود ، لن تستطيع التفوق على الغزاة الا بجمع صفوفها ، وتوحيدها تحت شعار الجهاد في سبيل الله .

ومن هنا فإن الشاعر يجمع في نظريته بين الأعداد واتخاذ كافة الأسباب المؤدية الى القوة ، وبين التوكل على الله ، الذي ينصر من يشاء . وهذه نظرة عميقة من الشاعر ، تدل على تمثل في الرؤية الى الجهاد في سبيل الله ، ولتحرير الأرض والمقدسات .

ويبدو أن الشاعر لم يشغل نفسه بالتعبير عن هذه المعاني بطريقة فنية موحية . فقد عرض مقصوده بعبارات مباشرة ، دون الالتفات الى جمالها النفسي . لكن أهمية هذه القصيدة ، تكمن في هذه الدعوة المباشرة والصادقة الى الوحدة والجهاد .

ومن مظاهر اهتمام الشعراء بوحدة الأمة ، أنهم كانوا يباركون عمليات ضم المدن والقلاع الى الحضيرة الإسلامية .

فعندما تمكن "نور الدين" من ضم "دمشق" سنة ٥٤٩هـ ، انطلق "ابن القيسراني" ، مهنتاً "دمشق" التي أصبحت تحت امره "نور الدين" فقال :

ليهن دمشقاً أن كرسى ملكها      حبي منك صدراً ضاق عن همه الصدر  
وأنت نور الدين مذ زرت أرضها      سميت بك حتى انحطت عن نبرها النسر

ويقارن بين وضع "دمشق" السابق ، حيث كانت ثغراً عابساً ، ثم أصبحت باسمه ضاحكة بعد أن عادت الى وضعها الطبيعي ضمن السلطة الإسلامية ؛

هي الثغر أسمى بالكراديس عابساً      وأصبح عن باب الفراديس يفتراً

والشاعر يعتز بأرادة البطل وتصميمه ، حتى استطاع امتلاك "دمشق" ، وذلك بعد أن جرت الدماء ، وخضبت صدور الخيل نتيجة لذلك ؛

فأما وقفت الخيل نائمة الصدى      على بردي من فوقها الورق النضر  
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغى      وأصدرتها البيض من علق حُمر

وحتى في مجال ضم المدن وتوحيد القوى ، فإن الشاعر مؤمن بأن القوة سبيل لتحقيق هذه الغاية . لذا يفاخر بجريان الدماء وتقديم الشهداء ، حتى جرى نهر العاصي<sup>(١)</sup> ، لما لكثرة التضحيات ؛

وقد شرقت أجرافه بدم العدى      الى أن جرى العاصي وضحاحه غمر<sup>(١)</sup>

(١) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شمراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

وبعد انتزاع " منبج " من صاحبها " ابن حسان " (١) سنة ٥٦٣هـ (٢) ،  
 أنشد " العماد الأصفهاني " (٣) مبشرا كل الممالك الإسلامية بعملية الضم :  
 بُسِّرِي الممالكِ فتحَ قلعةٍ مُنْبِجٍ      فليهنِ هذا النصرُ كلَّ متوجِّحٍ  
 وتأكيدا لأهمية عمليات التوحيد هذه ، فإن الشاعر يرى فيها مفتاحا  
 يمكن البطل من وئج كل الأبواب الصعبة :  
 أعطيتَ هذا الفتحَ مفتاحا به      في الملكِ يفتحُ كلَّ بابٍ مرتجِعِ  
 وظالما أصبح الأمر بيد المجاهد ، يحرضه الشاعر لأكمال الفتح :  
 وأسي يُبشِّرُ بالفتحِ وراءه      فانهضُ اليها بالجيوشِ وعرِّجِ  
 وهذه فرصة أيضا لتذكير البطل " ببيت المقدس " ، عمل " منبج " تكون نموذجا له :

أبشِّرُ نبيتَ القدسِ يتلو منبجاً      ولمنْبِجٍ لسواهُ كالنموذجِ (٤)

وهكذا كانت كل عملية ضم الى الحضيرة الإسلامية ، تلاقي استبشارا وبهجة من الشعراء . وكانوا يتطلعون الى ذلك اليوم الذي تطهر فيه " القدس " من الغزاة . وهذا شعور بوحدة الإمارات الإسلامية ، التي يذكر بعضها ببعض .

- (١) انظر أخباره في : البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ٦٩ .  
 (٢) ذكر أبو شامة المقدسي ، أن صاحب قلعة منبج " ابن حسان " ساءت أفعاله ، فأرسل اليه نور الدين من انتزعها منه . انظر : الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٠ .  
 (٣) هو أبو عبد الله ، محمد بن أبي الفرج بن حامد . ولد في أصبهان سنة ٥١٩هـ ، وذهب الي بغداد في حداثة سنّه ، وتعلّم في المدرسة النظامية . توجه بعد ذلك الى دمشق سنة ٥٦٢هـ في عهد نور الدين ، ودرس في المدرسة النورية الشافعية ، ثم صار مشرفا على الديوان سنة ٥٦٨هـ ، ورحل بعد ذلك الى مصر . وكان له دور كبير في الحروب بين الصليبيين والمسلمين ، وتوفي سنة ٥٩٧هـ وله آثار كثيرة منها : خريدة القصر وجريدة العصر ، والفتح القسي في الفتح القدسي . انظر ترجمته في : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٩٧ .  
 وانظر المقدمة المفصلة التي وضعها : جميل سعيد ومحمد بهجت الأثرى للخريدة ، قسم شعراء العراق .  
 (٤) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

وتبلغ بهجة الشعراء بالوحدة ذروتها ، عندما تمكّن "أسد الدين شيركوه" (١) من ضم "مصر" الى بلاد "الشام" سنة ٥٦٤هـ ، بعد أن قضى على الوزارة الفاطمية .

وقد أشاد "العماد الأصفهاني" بهذه الوحدة ، وبارك العمل الذي قام به "شيركوه" . وعبر الشاعر عن كل ذلك بهذه البداية الموحية ، والتي تحمل أبعاداً فنية كثيرة :

بالجسدِ أدركتَ ما أدركتَ لا اللعبِ      كم راحةٍ جنيتَ من دوحَةِ التعبِ

وكان الشاعر يتنفس الصعداء عن البطل ، بعد أن جدد وتعب حتى حقق هذا الهدف الكبير الذي عمل من أجله الأبطال .

وان قائداً يستطيع تحقيق هذه الأمانة ، لجدير بكل الشناء والتقدير ، وبخاصة أن الملوك بركضهما لا تستطيع تحقيق ما حققه "شيركوه" بخبيبه :

جرى الملوكُ وما حازوا بركضِهِمْ      من المدى في الصّلا ما حُزّت بالخَبِّبِ

وكعادة هؤلاء الشعراء ، سرعان ما يتذكرون "بيت المقدس" ، بعد كل نصر وفتح . فنجد "الأصفهاني" يطلب من البطل أن يمرّ على "بيت المقدس" ، وكأنه يدرك تماماً أن وحدة الأمة هي السبيل لذلك :

فتحتَ مصرَ وأرجو أن تصيرَ بها      ميسراً فتحَ بيتَ القدسِ عن كُتُبِ (٢)

(١) هو أخو "نجم الدين أيوب بن شاذي" ، والد الملوك الأيوبيين . أقام بادي الأمر في "دوين" ، وهي في أدنى بلاد أذربيجان ، مما يلي الرم ، ثم انتقل مع أخيه الى الموصل ، فلقبهما "عماد الدين زنكي" وأكرمهما ، وشهدا معه معارك كثيرة . اتصل "شيركوه" بعد ذلك ب"نور الدين" ، فحمله في خاصته لما عرفه عن شجاعته ووفائه ، واختاره ثلاث مرات للتوجه الى "مصر" . وبعد أن استلم الوزارة بشهرين ، كانت وفاته سنة ٥٦٤هـ . انظر أخباره في :

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٥٥-٢٥٨ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٨ ، ٣٢٤ ، ٣٣٥ ، ٣٤٠ .

ابن تغرى بردى ، والنجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣-٥ .

(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

البنداري ، سنا البرق الشامي ، القسم الأول ، ص ٧٩ .



وبعد أن تمكّن " صلاح الدين " من ضم " حمص وبعليبك " سنة ٥٥٧٠هـ (١) ،  
أنشد " العماد " معبرا عن فخر الأسلام واستقرار بلاد الشام :

بفتحِ عَصْرِكَ يَفْخِرُ الأَسْلَامُ      وينور عَصْرِكَ تُشْرِقُ الأَيَّامُ  
ويفتحِ قَلْعَةَ بعليبك تَهْدَبُت      هذي الممالكُ واستقرَّ الشَّامُ (٢)

وهذا شعور بأهمية ضم كل مدن الشام الى الحضيرة الأسلامية ،  
لأن في ذلك نصرا للأسلام ، وفخرا لكل الممالك التي عادت الى وضعها الطبيعي .  
وأما " وحيد الأسدي " (٣) ، فقد عُدَّ هذا العمل مبيّثا بانتصارات  
متتالية ، ستمقّب عملية التوحيد هذه فقال :

قد جاءك السعدُ والتوفيقُ فاصطحبا      فكن لأضعافِ هذا النصرِ مُرتقبا  
ويتوحيد بلاد " الشام " كما وحدت " مصر " من قبلها ، فإن هذا  
بداية لسيادة العدل بعد أن فقد في بلاد " الشام " :

أحييتَها مثلَ ما أحييتَ مصرَ فقد      أعدتَ من عدلِها ما كانَ قد نُهِبَا  
والشاعر يرى في الوحدة هذه نصرا للأسلام على أعدائه ، وكأنه  
يتطلع الى ذلك اليوم الذي يقضي فيه على الصليبيين ، لذا ينذر الأعداء بالذل  
واهانة صليبيهم :

هذا الذي نصرَ الأسلامَ فاتضحتُ      سبيلُه وأهانَ الكفرَ والصُّلبَا (٤)

- 
- (١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤١٧-٤٣١ .  
ابن تغري بردي ، والنجم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤-٢٥ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٧-٢٢ .  
(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٠ .  
(٣) هو أبو الوحش ، سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن  
سعيد الأسدي الفقعسي . ولد سنة ٥٠٤ هـ . ذكر صاحب الخريدة  
أنه كان شاعرا مطبوعا ، وأنه التقى به وسمع منه قصائد كثيرة ، منها  
في مدحه ومدح الناصر . ثم أثبت له العماد قصائد في أغراض مختلفة .  
انظر: العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .  
(٤) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

وبعد وفاة الملك "الصالح اسماعيل" تمكن الناصر صلاح الدين من السيطرة على "حلب" وضمها الى الامارات الشامية سنة ٥٧٥هـ (١) ، وبذا تكون كل بلاد الشام تحت سيطرة صلاح الدين .  
فبعد "ابن الفراهي" (٢) هذه الوحدة الكبرى ايذانا حقيقيا بالانتصارات المرتقبة على الفزاة المحتلين :

سرى ما بيننا سر الفيوب      يثترنا بنصرِك عن قريب

وبهذه الوحدة ، فقد تبسّمت كل الشفوس ، بعد أن كانت موحشة قاطبة :

تبسّمت البلادُ اليك أنسا      وكانت قبلُ موحشة القطوب

والشاعر لا يستغرب قتال حكام حلب لصلاح الدين لأنهم رهط خارجون عن الاسلام ، لكن صلاح الدين هو ناصر الاسلام ومعليه ؛  
عصت حلبٌ وقاتل ساكنوها      وليس قتالهم لك بالمجيب  
لأنك ناصر الاسلام حقاً      وهم رهط المغيرة أو شبيب

وثقة الشاعر بالناصر وقوته ليس لها حدود ، اذ يجعله على علم مسبق بأنه سينتصر ويحقق غرضه بضم حلب ؛

وقد قالت سمودك عن قريب      اليك أسوقهم سوق الخبيب (٣)

ان ذكر الشاعر لسمود البطل ، مؤشراً الى اهتمام الشعراء في هذه الفترة ، بذكر سمود الأبطال ، وتوقعاتهم لما تخفيه الأيام ، وما يضمه المستقبل .

(١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٨٤ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١١٠ .  
هو أبو عبد الله ، شمس الدين ، محمد بن محمد بن موسى ، ويعرف بابن الفراهي ، من أهل دمشق . ذكر صاحب الخريدة أنه كان كثير

الفضل ، رجيح العقل ، جامعاً بين علم الأحكام والحكم . وكان قاضي العسكر في عهد نور الدين ، وأمين خزانة صلاح الدين فيما بعد . وأورد له العماد مقطوعات من شعره . انظر :

(٣) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٨٩-٣٠٦ .  
العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٣٠٠-٣٠٤ .

ويصير " سعادة الأعمى " (١) عن بهجة أهل الشام كلهم بضم كل  
الممالك ، ويقارن بين وضعهم المعبوس السابق ، وبين وضعهم البسام بعد  
عودة الثغور إلى مكانها الطبيعي :

وما ضحكك ثغور الشام إلا وفيها من محاسنكم رضاباً  
وصار وجه الناصر كوكبا ينير للشام ، كما أن يد به مشارب عذبة لسكانها :  
فأوجهكم كواكبها الدراري وأيديكم مشاربها العذاب

وان القوة والمنعة التي تتمتع بها هذه الثغور بعد ضمها ، تحول  
دون أن ينال منها أي مهاجم ، مهما كانت قوته :

عصمتم بالعواصم كل شفير بذبلاً لا يقل له ذباب  
ويستشرف الشاعر ذلك اليوم ، الذي يتغلب فيه الناصر على الأعداء ،  
أطرتم عنه عادية الأعادي كما طارت من الريح الذباب (٢)

وهكذا كان الشعراء يترقبون عمليات ضم الثغور إلى الحظيرة  
الاسلامية ، ويشيدون بالأبطال بعد كل عملية ، ويحثون على المضي في التوحيد ،  
حتى تتحقق الوحدة الشاملة . وان مشاعر الشعراء هذه ، تعبير عن مشاعر  
الامة بالبهجة والفح لعودة الممالك الى وضعها الطبيعي ، وخضوعهم لسلطان  
واحد .

- 
- (١) هو سعيد بن عبد الله ، المعروف بسعادة الأعمى . كان مملوكا  
لبعض الدمشقيين . قال عنه العماد في الخريدة : " قد توفرت  
بصيرته وان ذهب بصره ، وأقرحت قريحته وشببت فكره ، لقيته بحمص  
مرارا ، وسافر الى مصر في أول ملكة السلطان الناصر ، وعاد بوفر  
وافر وغنى ظاهرا . وهو محظوظ مرزوق من نظم الأشعار . ثم وصف  
شعره بالجودة ، وأثبت له الكثير من المدائح في صلاح الدين .  
انظر: العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤٠٦ .  
العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤٢٦-٤٢٨ .
- (٢)

وبالإضافة الى ضرورة خضوع الإمارات والثغور لبطل واحد ، فقد كان الشعراء يحسون بسوجوب التبعية للخلافة العباسية ، باعتبارها تمثل السلطة الدينية ، كما أنها دليل على الوحدة التي تجمع الأمة . فعندما قطع صلاح الدين الخطة عن الفاطميين ، وأرجعها الى العباسيين سنة ٥٦٧ هـ (١) ، أنشد " العماد " معبرا عن سرور المسلمين بالانضواء تحت لواء العباسيين ، وخذلان الفاطميين :

قد خطبنا للمستضي بمصر وارث المصطفى امام العصر  
 وخذلنا لنصرة العنيد العا ضد والقاصر الذي بالقصر  
 ويمند الشاعر هذا العمل ميثرا بقرب النصر على الأعداء ؛  
 وأشعنا بها شعار بني العبد باس فاستبشرت وجوه النصر  
 ثم يذكر الخليفة العباسي " المستضي " بالله الذي دعي له على المنابر ؛  
 ووضعنا للمستضي بأمر ال له عن أوليائه كل أمر  
 ويمرض بالفاطميين وادعاهم الخارجة عن الإسلام ؛  
 وتركنا الدعي يدعوتورا وهو بالذل تحت حجر وحصر  
 وطالما تحقق كل ذلك ، فإن المنابر ستتهج بالدعاء للعباسيين ؛  
 لأنهم ينتسبون الى الأسرة الهاشمية ؛  
 وتباهت منابر الدين بالخط بة للهاشمي في أرض مصر  
 فتحويل الخطبة الى العباسيين نصر ديني ، تفتخر به المنابر  
 في مصر . ولذا ينهي قصيدته بالدعاء للعباسيين وأن يدم النصر بملكهم ؛  
 دام نصر الهدى بملك بني ال عباس حتى يقوم يوم الحشر (٢)

(١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨

ابن تفرى بردى ، والنجم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٣

ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ١ ، ص ٢٠٠

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٧-٢٠٠

(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء العزاق ، ج ١ ، ص ١٤-١٧

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٨

وبعد وفاة " العاصم الفاطمي " سنة ٥٦٧ هـ (١)، أنشد " المرقلة الكلبية " (٢) مشيدا بالأيوبيين ومعرضا بالفاطميين؛  
 أصبح الملكُ بعد آل علي مُشرقاً بالملوك من آل شاذي (٣)  
 ويجسد القوة التي كانت العامل الرئيسي في القضاء على الفاطميين؛  
 ما حوَّها الا بحزم وعزم وصليل الفولان في الفولان  
 ويعرض بالحكام الفاطميين الذين يشبه حكمهم حكم " فرعون "،  
 أمثال " العزيز وكافور الأخشيدي " فيقول؛  
 لا كفرعونَ والعزيرَ ومن كما ن بها كالخصيب والأستان (٤)  
 ولاهتمام الشعراء بالوحدة والانضواء تحت لواء العباسيين، عند  
 بعض الشعراء (٥) الفاطميين كفاراء، بل زنادقة يخفون الكفر ويظهرون التشيع؛  
 أستم مُزلي دولته الكفر من بني عبيد بمصر ان هذا هو الفضل  
 زنادقة شيعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل  
 يسرون كفرا يظهرون تشيماً ليستتروا شيئاً وعمهم الجهل (٦)  
 وكل ذلك تعبير عن فرحة المسلمين بالقضاء على الحكم الذي لا  
 يرتضونه، ودليل على نظرة جمهور المسلمين الى هؤلاء الحكام ومبادئهم التي  
 كانوا يبشرونها ببيس الأمة.

- (١) انظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٣٦٨.  
 ابن واصل، مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٠٠.  
 (٢) هو أبو الندى، حسان بن نمير، المعروف بعرقلة الكلبية، ولد في دمشق سنة ٤٨٦ هـ. ذكر صاحب الخريدة أنه التقى به وسمع من أشعاره. وهو حلوا الصنادمة، لطيف النادرة. لازم الأيوبيين حيث كانوا مشغوفين بنكته، وله فيهم مدائح. نظم في الأغراض الشعرية المختلفة، وشبه نفسه بأبي نواس حيث قال؛  
 الحمد لله السميع المحيب قد هلك الشرك وضل الصليب  
 يا ساكني أكناف مصر أنا أبو نواس والصلاح الخصيب  
 انظر: العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ١٨٠.  
 (٣) آل علي؛ يقصد بهم بني عبيد الذين نسبوا أنفسهم الى الهاشميين.  
 انظر: أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٠٠.  
 يعني بالاستان؛ كافور الأخشيدي.  
 (٤) لم يذكر أبو شامة المقدسي صاحب النص حين أورد، لكننا نعرف الفترة التي قيل فيها النص، وتدرك المناسبة أيضاً.  
 (٥) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٠٢.

وقد عبر "العماد الأصفهاني" عن مشاعر البهجة بانقضاء عهد الدعاة  
الفاطميين، وبداية عهد "الناصر صلاح الدين" الذي أزال البدعة والأحكام  
الفرعونية فقال:

توفي المناضدُ الدعيُّ فما      يفتحُ ذو بدعةٍ بمصرٍ فما  
وعصرُ فرعونِها انقضى وغدا      يوسُفها في الأمورِ محتكما

ولأن الفاطميين كانوا خارجين عن مذهب جمهور المسلمين، عدّهم  
الشاعر فئة من الفؤاة، بل قرنهم بالمشركين:

وانطفأت جمرَةُ الفؤاةِ وقد      باحَ من الشركِ كلما اضطرما

وبالقضاء على هذه الزمرة، فقد انتظمت "مصر" بعقد سديده  
كما انتظم شمل الأمة بهذه الوحدة:

وصار شملُ الصلاحِ ملتئماً      بهما وعقدُ السدادِ منتظما

وعبر الشاعر عن الفرحة الكبرى بإعلان شعار بني العباس،  
الذي يمثل الحق، والقضاء على الفاطميين الذين يمثلون الباطل:

لما غدا مُعلنًا شعارِ بنيِ ال      عباسِ حقًا والباطلُ اكتما

وبهذا الانتصار، فإن مذهب التوحيد سائد منتصر على دعاة الأشرار:

وسات داعي التوحيدٍ منتصرًا      ومن دعاةِ الأشرارِ منتقمًا

فالنصر للدين الذي اعتلت رايته بهد أن هضمه الفاطميون:

واعتلت الدولة التي اضطهدت      وانتصر الدينُ بعدما اهتضما

وبذا فقد عاد الإسلام جذلان باسما، وتوحد الأيمان وابتسم بالنصر:

واعترَّ عطفُ الإسلام من جَدِل      وانترَّ نغصُ الأيمانِ وابتسما

وان عطية الوحدة هذه، من شأنها تجميع القوى الإسلامية وتوجيهها

نحو الهدف الكبير، وهو اخراج الصليبيين من الديار. فليندم الكفار على أعمالهم  
وليستعدوا للرحيل:

واستبشرت أوجهُ الكُدى نرحا      فليقرع الكفرُ سنه نُدما. (١)

هكذا عبّر الشاعر عن انتصار الدين من جهتين: الأولى بالقضاء

على العلوتين الدعاة، وانتصار مذهب أهل السنة، مذهب التوحيد.

والثانية بوجود سلطة واحدة تستطيع توحيد القوى وتوجيه سلاحها إلى الفزاة.

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٩٥.

وان اهتمام الشعراء بالتبعية للخلافة العباسية ، دليل على رغبة الأمة بتحقيق الخلافة ، لأنها رمز كبير الى معاني الوحدة الإسلامية ، وعدم الخروج عن النظام الإسلامي الذي اتبعه الخلفاء الراشدون .

وقد أدى الشمر دورا كبيرا في التعبير عن مشاعر الأمة العدائية تجاه الفاطميين ، وبمجتها بالوحدة الإسلامية ، التي تهيج لطردهم الفزاة المحتلين ، ومن مظاهر اهتمام الشعراء بالوحدة أيضا ، ذمهم المفسدين ومسببي الفتن ، والذين يمثلون خطرا على الأمة ، لما يقومون به من مسببات للخلافات وبث الفرقة داخل الأمة .

فعمدا ما تمكّن " صلاح الدين " من القضاء على " عمارة اليمني " وجماعته سنة ٥٦٩ هـ ، بعد أن حاولوا الخروج على الأيوبيين ، نظم " تاج الدين الكندي " (١) ، ومعرضا بعمارة الشاعر ، ومشييرا الى خطورته على الإسلام والأمة ،

عمارة نبي الإسلام أبدى جنابة  
وباع فيها بيعة وصليبا (٢)

فهو في نظر الشاعر يقع في دائرة الشرك ، لأنه يبغض سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، كما أن خروجه عن جمهور المسلمين يجعله في دائرة الصليبيين ، الذين احتلوا ديار المسلمين ،

وأملئ شريك الشرك في بغض أحمد  
فأضح في حب الصليب صليبا (٣)

ويتعمق الشاعر باطن " عمارة " ، فيسمه بالخبت والنفاق ، وهذه من سمات الصليبيين الفزاة ، وبذا يلتقي معهم في أخلاقتهم أيضا ،

وكان خبيث الملتقى ان عجمته  
تجد منه عودا في النفاق صليبا (٤)

وطالما أنه مشرك بخروجه عن اجماع الأمة ، وفي التقائه مع الصليبيين بصفاتهم ، فإن مصيره النار عقابا على هذه الأعمال ،

سيلقى غدا ما كان يسعى لاجله  
وسقى صديدا في لثلي وصليبا (٥)

بانتظار شعرا الصليبيين في دار الضرب ،

(١) هو زيد بن الحسن بن زيد الكندي . كان شيخا مثقالا ، وتولى

ديوان الجامع والمواريث الحشرية ودار الضرب ، وغير ذلك من

أعمال . انظر أخباره : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ٧١ -

ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج ١١ ، ص ١٧١ - ١٧٥ .

أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ٢٣٧ .

(٢) صليب : نار .

(٣) الصليب الأولي : شعار الصليبيين المعروف . والثانية : مصلوب .

(٤) صليب : من الصلابة .

(٥) الصليب : الصديد الذي يسيل من أهل النار .

وانظر الأبيات : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

واننا نلمس نظرة الشاعر الدينية في حكمه على الخارجيين عن الأمة  
ومسببي الفتن . فهم مشركون وسيلا تون العذاب في الآخرة بالإضافة الى العقاب  
الديني الذي لا قوه .

وكل هذا مؤثر الى مشاعر الأمة آنذاك ، تجاه العصابة الضالّة  
التي حاولت الخروج على مذهب التوحيد ، وتشببت المذهب العلوي .  
وقد عبّر الشعراء عن ذوبان الأجناس المختلفة في ظل الأمّة  
الاسلامية ، وقتالهم تحت شعار الجهاد في سبيل الله . فمن المعروف أنّ  
كان ضمن المجتمع الاسلامي عناصر من الأتراك والأكراد بالإضافة الى العرب ،  
لكنهم جميعا انصهروا في بوتقة الاسلام وقاتلوا تحت راية الدين .  
فقال " العماد الأصفهاني " عندما انتصر " نور الدين " في " طبرية "  
سنة ٥٦٢ هـ (١) :

للروم والأفرنج منك مصائبٌ بالتسركِ والأكرادِ والمُربانِ  
ان هذه العناصر كانت صفا واحدا أطم الغزاة ، وقد افتخر الشاعر  
بعذه الوحدة ، وكأنما يبارك وجودها ويحض على استمرارها .  
وعندما فتح " صلاح الدين " حلب سنة ٥٧٩ هـ ، قال " ابن  
سناء الملك " (٢) :

بدولة الترك عزّت ملّة العربِ وبابنِ أيوبِ ذلّت شيعَةُ الصُلبِ (٣)  
فالشاعر يعبر عن اعتزازه بهذه الوحدة التي جمعت أجناسا مختلفة ،  
ووحّدتها تحت راية الدين ، فجمعت قواها وجابهت الصليبيين الغزاة .  
ويصف " طلّاح بن رزيك " هذه الوحدة قائلا :  
اذا ما أثاروا النقعَ فالشفرُ عابِسٌ وان جردوا الأسيافَ فالشفرُ باسِمٌ  
ولما وطوا أرضَ الشامِ تحالفتُ فأضحت جميعا عربها والأعاصِمُ  
وواجهوا جمعَ الفرنجِ بحمليّةٍ تمونُ على الشجعانِ منها الهزائمُ (٤)

- (١) انظر الواقعة في : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٨ .  
ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٣ .  
(٢) هو أبو القاسم ، هبة الله بن القاضي الرشيد جعفر بن المعتمد  
بن محمد بن هبة الله السعدي المعروف بابن سناء الملك . ولد  
في دمشق سنة ٥٥٠ هـ ، ونشأ في أسرة نعمت بالعلم ، وكانت تحب  
العلم والأدب . فحفظ القرآن ودرس اللغة والنحو ، واتجه الى الاسكندرية  
ليدرس الحديث . اتهم بالتشيع ، وكانت وفاته سنة ٦٠٨ هـ بوله ديوان  
مطبوع . انظر : ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٢٨ . وكذلك ؛  
محمد ابراهيم نصر ، ابن سناء الملك حياته وشعره ، القاهرة ، ١٩٦٨ .  
(٣) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٦١ .  
(٤) ديوان ابن رزيك ، ص ١٣٥ ، ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٢٢ .



وان الشعراء بفخرهم وتمجيدهم وحدة الأجناس، انما يشجعون على استمرارها، وبقاء الإسلام شامخاً موحداً أهدافهم وآمالهم . وهذا المنطلق من قبل الشعراء ، يسير في خط واحد مع المبدأ الإسلامي ، ان لا يفرق لعربي على عجمي الا بالتقوى . والإسلام هو الوشيجة الكبرى التي توطئ كل الأجناس وهذا هو المقياس الإسلامي ، الذي تنتفي على أساسه وضع امتيازات خاصة لعناصر معينة .

على النحو السابق ، نجد الشعراء القوة ، وعدوها العامل الرئيسي في النصر . وكان للشعر دور كبير في الحث على الوحدة التي هي سبب من أسباب القوة .

وليس هنالك وحدة أسمى وأشمل من الوحدة الإسلامية ، حيث امتزجت فيها الشعوب في بوتقة إسلامية واحدة ، والتفت الأمة حول سلطة تشريعية واحدة ، فتحقق التوافق الفكري والروحي بين الأمة . وهذا ما يفسر تعلق الشعراء بالخلافة العباسية ، رغم أنها كانت ضعيفة آنذاك . فالارتباط بها ايناس نفسي بالوحدة ونبتذ الفرقة . كما أنها تمثل السلطة الدينية السنية ، بينما كانت الفاطمية تمثل خروجاً عن الدين ومبادئه الحنيفة . هذا بالإضافة الى أن بعض الفاطميين كانوا يتعاونون مع الصليبيين ، أمثال " شاور وضرغام " .

من هنا كان لابد من الدعوة الى خليفة واحد ، يمثل المذهب السني الإسلامي ، حتى يكون هنالك منطلق موحداً يجمع الأمة والسلطة ، ولم يترك الشعراء فرصة الا استفلتوها لتأكيد أهمية الوحدة ، فمن الحث المباشر ، الى متابعة الأحداث والأشادة بضم المدن والقلاع ، وغير ذلك من مجالات ظهرت لنا من الأشعار السابقة . وكان الشعراء بذلك ، معبرين عن مشاعر الأمة الصادقة تجاه الوحدة الإسلامية ، كما كانوا مخططين وموجهين لاتخاذ أسباب القوة ، من أجل مواجهة الغزاة المحتلين .

## اشادة بالمجاهدين واستهزاء بالصليبيين

في الفترات التي تعيش فيها الأمة محنة من المحن الكبرى ،  
وتخوض خلالها معارك كثيرة ضد الأعداء الخارجية ، يتوقع من الشعراء  
أن يتابعوا أحداثها ، فينظموا أشعارا حماسية تشيد بالأبطال ، وتضخم من  
انتصاراتهم ، وتقلل من شأن الأعداء ، وكما سنبهم . فهل قام الشعر بهذا الدور؟

من المعروف أن الأمة كانت تتطلع الى بطل يستطيع جمع قواها  
ويوحد صفوفها ، وبجابه الغزاة الصليبيين . وكان "عماد الدين زنكي" أول  
مجاهد تطلعت اليه الأمة ، وأملت أن يحقق أمانها ، بتطهير البلاد .  
لذا نجد الشعراء يتوجهون اليه في قصائدهم ، ويمجدون خصاله وبطولاته ،  
ويصفون معاركه وانتصاراته .

فعندما فتح حصن "بشرين" سنة ٥٣١ هـ ، اعتر "ابن القيسراني"  
بقوة البطل ، وعده سيوفه لا تذر أحدا من الأعداء :

حذارِ منّا وأنسى ينفعُ الحذرُ      وهي الصواميرُ لا تُبقي ولا تُذرُ

وإذا كان المجاهد يتصف بكل هذه القوة ، فإن الصليبيين لا  
ملجأ لهم الا الحرب ، حتى ينجوا من سيوفه :

حتى اذا ما عمادُ الدين أرهقهم      في مأزق من سناه يُبرقُ البصرُ  
ولوا تضيقُ لهم ذرعا مسالكهم      والموتُ لا ملجأ منه ولا وزيه

ورغم أنه بإمكان الأعداء النجاة بطريق الحرب ، الا أنهم ينظرون  
الى المسافة القصيرة ، وكأنها طويلة لشدة الخوف من بأس البطل ،

وفي المسافة من دون النجاة لهم      طولٌ وان كان في أقصاريها قصر

ويصل استهزاء الشاعر بالأعداء ، أن يجعل المزيمة ملازمة لهم  
في جميع مجالات الحرب :

ان قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حُربوا      أو طاردوا طُردوا أو حاصروا حُصروا (١)

ورغم أهمية هذا النصر الذي أحرزه "عماد الدين" ، الا أن الشاعر  
يضخم ويبالغ من أهميته ، وذلك بطريقة الشعراء الخاصة . وهذه ناحية ايجابية  
ودور كبير يؤديه الشعر في الحروب .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٤ .

ويعبر "ابن منير الطرابلسي" عن تعلق الأمة بعماد الدين بعد هذا النصر، فجعل الملوك وأيامهم فداءً للمجاهد وأيامه. ودعا إلى الله بدوام قدرة البطل على نقض ما يبرمون من أمور لا يرضى عنها. وتمنى أن تنزل أقدام الملوك الصليبيين أمام ثبات قدمه فقال:

فدنتك الملوك وأيامها      ودام لنقضك أبرامها  
وزلت لعيشك أقدامها      وزال لبطشك اقدامها

ثم حضر الشاعر على أن يسلم المسلمون أمورهم للمجاهد، لأن ذلك دليلا على صدق إيمانهم:

ولو لم تسلم اليك القلوب      هداها لما صمّ اسلامها (١)

ان انتصار عماد الدين "في" بارين"، يمثل أولى عمليات التحرير الإسلامي ضد الصليبيين، فكان لهذا النصر قيمة كبيرة. ومن هنا لا بد أن يوجه الشعراء المسلمين إلى قائدهم، من خلال هذه الأشعار الحماسية، التي تزيد من ثقة البطل بنفسه، وتزيد من التفاف المسلمين حوله.

— واستهزأ "ابن قسيم الحموي" بالصليبيين بعد أن انتصر عليهم "عماد الدين" في حصن "شيزر" سنة ٥٣٢هـ، حتى أنه وصف قائدهم بالكلب:

ألم تر أن كلب الروم لعا      تبين أنك الملك الرحيم

وكشف الشاعر عن أطماع الصليبيين التوسعية، واستعداداتهم الكبيرة لتحقيق غاياتهم:

فجاء يطبّق الفلوات خيلاً      كأن الجحفل الليل البهيم

ولكن بعد أن أوقع المجاهدون فيهم قتلا كثيرا، أجبروا قسما منهم على الحرب، وأما الذين قتلوا فصاروا نهبا للطيور:

أراد بقاء مهجته فولّى      وليس سوى الحمام له حميم

ويتضح استهزاء الشاعر بقائد الفرنج، حين يقارن بين وضعه قبل المعركة، حيث كان معتدا بملكه وقوته، وبين وضعه بعد المعركة حيث صار السقيم أفضل منه:

فسار وما يعادله مليك      وعاد وما يعادله سقيم (٢)

وكل تلك الأبيات، تدل على موقف الشاعر العدائي من الصليبيين الذين احتلوا الديار، وتبين شماتته بما لحقهم من ذل وهوان.

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٣٥.

(٢) العماد الأصفهاني، الخريدة، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ٤٧١.

أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٣٢.

وفي سنة ٥٣٩هـ ، حَقَّق "عماد الدين" نصراً كبيراً على الصليبيين في "الرها" . وقد أشاد الشعراء بهذا النصر الكبير حيث كانت "الرها" من الأمارات المهمة للصليبيين . فقال "ابن القيسراني" :

لقد كان في فتحِ الرها دلالةٌ  
على غير ما عند الملوحِ اعتقادهُ  
فمويبين مدى أهمية هذا الفتح بالنسبة إلى المسلمين ، وينتقد  
بمعتقدات الفرنج (الملوح) حول مكانة "الرها" عندهم .

ثم نجد أنه يعرض ببعض معتقداتهم ، وبخاصة حول ميلاد سيدنا عيسى (عليه السلام) ، وإيمانهم بأنه سينصرهم بعد ولادته من جديد :

يُرجون ميلاد ابنِ مريمِ نصرَةً  
ولم يُفخِر عند القومِ عنه ولادُهُ

فهزيمتهم هزيمة لشعائرهم ، وانتصار للقرآن والدين :

ولا منبراً الا ترتج عودُهُ  
ولا مصحفاً الا ابارُ مدادُهُ

وقد وصلت ثقة الشاعر بقوة المجاهدين ، أن يطلب من الصليبيين أن يستلموا البلاد لأصحابها ويرحلوا :

وقل لملوك الكفر تسلم بعدُها  
ممالكها ان البلاد بلا دة (١)

وأشاد "ابن منير الطرابلسي" ببطولة "عماد الدين" في هذه المعركة ، حتى صار الموت الذي ينقض على الكافرين :

قل لقوم غرهم امهاله  
سند وقون شذاه بعد حين

انه الصوت الذي يدرك من  
فر منه فسحاً للعالمين

ولذا فإن من يطيع البطل ينجو من الموت ، ومن يبقي ماكراً فإنه يكون عبرة لغيره من شدة ضربات القائد :

من يطع ينج ومن يمكر يكن  
من غداة عبرة للأخرين

والشاعر يتطلع إلى ذلك اليوم الذي يتمكن فيه البطل من السيطرة على الأرض كلها ، حتى يفيض العدل في أقطارها :

أقسم الجد بأن تبقى لكبي  
تملك الأرض يمينا لا يمين

وتفيض العدل في أقطارها  
منسيا مؤلم عسف الجارئين (٢)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٠ .

فقد رأى الشعراء في "عماد الدين" القائد العسكري الذي يتطلعون اليه لتحقيق الآمال . كما رأوا فيه البطل العادل ، الذي يزيل الظلم والفساد ، ويحقق الأمن والرخاء .

وبعد وفاة "عماد الدين" ، توجهت الأنظار الى "نور الدين" ، الذي سار مسيرة والده في مقارعة الأعداء ، والعدل بين المسلمين . فجمع الشعراء في مدحه بين صفتي الشجاعة والتقوى ، وهما من خصال القائد المسلم . فبعد أن انتصر على الصليبيين في "انب" سنة ٥٤٤هـ ، تغنى الشعراء بهذا النصر ، وأشادوا بشجاعة "نور الدين" ، واستهزأوا بحال الصليبيين . فقال "ابن القيسراني" مفتخرا بضرقات البطل وشدة وقعها على الأعداء :

أغرث سيوفك بالافرنج راجفةً      فواد رومية الكبرى لها يجب  
ويظهر الشاعر شماتته بما حصل لصاحب أنطاكية<sup>(١)</sup> ، حيث كان قتله من نتائج المعركة :

ضربت كبشهم منها بقاصمةٍ      أودى بها الصلْبُ وانحطَّتْ بها الصُّلْبُ  
ثم يصف وصفا دقيقا ما حصل بخيولهم وسيوفهم ونبالهم التي تعطلت عن أداء مهمتها في المعركة فيقول :

والخيلُ من تحتِ قتلاها تقرُّ لها      قوائمُ خاننهنَّ الرُكضُ والخبُّ  
والنقعُ فوقَ صقالِ البيضِ منعقدٌ      كما استقلَّ دخانُ تحته لصبُّ  
والسيفُ هامَ على هامِ بمعركةٍ      لا البيضُ ذومةٍ فيها ولا اليلبُّ  
والنبيلُ كالويلِ هطالٌ وليس له      سوى القسيِّ وأيدٍ فوقها سحُبُ  
خانوا فخانت رماحُ الطعنِ أيديهم      فاستسلموا وهي لا تبع ولا غرب

فلنلاحظ مشاعر العنف والقوة التي يتغنى بها الشاعر لما ائصف به المجاهدون من شجاعة وبأس ، كما نلمس مشاعر الكره والعداء للمحتلين . لذا يظهر شماتته لما لحقهم من ضرب وقتل ، حتى انهم لم ينتقموا بأدوات الحرب التي أعدت لها لملاقاة المجاهدين .

وتبلغ مشاعر البهجة والافتخار ببطولات المجاهدين عند الشاعر إلى أن يضحك من نتائج الموقعة النهائية ، حتى انه لم يبق من الأعداء الا كما يبقى من الحية بعد قطع رأسها :

لم يبقَ منهم سوى بيضٍ بلا رمقٍ      كما القوى بعد رأسِ الحيةِ الذنْبُ (١)  
وهي صورة ساخرة تنم عن استهزاء وتحقير للأعداء ، واعتماد بالمجاهدين المسلمين .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩ .

وقد أكثر الشعراء من وصف هذه الموقعة ، وبخاصة ما حل "للبرنس" (ريموند) ، صاحب أنطاكية" ، فكانت قصة قتله مجالا كبيرا للشعراء ، كي يفاخروا بنهايته وقتله على يد "نور الدين" .

فمن قصيدة "ابن منير الطرابلسي" ، يرسم صورة كاريكاتورية لكيفية قتله ، حيث حمل رأسه على سنان الرمح :

وسقى البرنس وقد تبرنس ذلّة  
فانقاد في خطم المنية أنفسه  
ومضى يؤتّب تحت اتّب همّة  
أسدّ تبوّ كالغرنف فجآته  
بالروح عقر ما جنت غدائه  
يوم الخطيم وأقصرت ثرواته  
أمت زوافر غيها زفراته  
فتبوّات طرف السنان قناته (١)

فهذه صورة ساخرة قاسية رسمها الشاعر لرأس من رؤوس الفرنج . وهي صورة تدل على ما تركه الخروب في النفوس من كره للأعداء . ونلمس منها مظاهر شماتة الشاعر بما حل "للبرنس" . وقد برّر الشاعر كل ذلك ، بأن ما لحق به كان نتيجة غدره ومكره . ومن المعروف أن صاحب أنطاكية كان غادرا غائيا على المسلمين ، كما يقول "أبو شامة المقدسي" ، وقد أصيبت النصرانية بقتله . فلا عجب أن يتغنى الشعراء بهذا الحدث ، وبخاصة أن قصته مجال رحب لخيال الشعراء .

وبعد مقتل أمير أنطاكية سنة ١١٠٦ ، تمكن "نور الدين" من أسر "جوسلين" أميرها الثاني . ويذكر المؤرخون أنه كان يهدد المسلمين في مواقع كثيرة . فتغنى الشعراء بأسره ، كما تغنّوا بمقتل سابقه . فقال "ابن القيسراني" مشيرا الى قصتي قتل الأول وأسر الثاني :

أتى رأسه ركضاً وغودر شلسوه  
وقد كان في استبقائه لك منّة  
كما أهدت الأقدار للقمص أسره  
طفى وبغى عدواً على غلوائه  
وليس سوى عافي السور له قبر  
هي الفتك لولم تفضب البيض والسمر  
وأسعد قرن من حواء لك الأسر  
فأوبقه الكفران ، عدواه والكفر (٢)

ينمت الشاعر المقتول والمأسور بالفدر ، ويبين أن "جوسلين" كان متصفا بالعدوان والكفر في آن واحد . فهو يستحق القتل كصاحبه ، لكن "نور الدين" من عليه باستبائته حيا .

واننا نلمس استخفاف الشاعر بالعدو ، وزرايته به الى درجة السخرية .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٥ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٣ .

العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

ويشير "ابن منير الطرابلسي" أيضا الى الحادتين فيقول:  
 صمق البرنس وقد تلاً لا برقه  
 وأطار ساكن جاشه ارعاده  
 مستلماً مستلماً لا عدّه  
 رد المنا عنه ولا استعداده  
 ولجوسلين احتشمن فأصحت  
 نهمي لمن بلا دّه وتلاده  
 جاء به بعد الشماير عوابس  
 قود يلين لعنفمن قياده (١)

على هذا النحو كانت القصتان مجالاً كبيراً لاستهزاء الشعراء  
 والسخرية. بالأعداء. وان مشاعر الشماتة التي نلصها، تعبیر عن بهجة الأمة  
 آنذاك بموقف الأعداء الضعيف أمام المجاهدين. وهو شعور طبيعي لدى  
 الأمة التي تحس بغلبتها وقوتها، بعد أن لاقت العنت والشدة من المحتلين.  
 وان لمثل هذا الشعر قيمة كبيرة في تشجيع المقاتلين ورفع معنوياتهم،  
 فتضاعف ثقتهم بقوتهم على أعدائهم، بعد أن يشعروا بسخف أعدائهم،  
 وقلّة شأنهم.

وبعد فتح "انطرسوس" سنة ٥٤٧هـ، أشاد "ابن منير الطرابلسي"  
 ببطولة "نور الدين"، حيث تمكّن من إخلاء البلاد من أوّثان الأعداء. ثم  
 عرض بمقيدة التثليث التي يؤمن بها الصليبيون:

أخلى ديار الشرق من أوّثانها حتى غدا ثالوثين نكيرا  
 وبيالغ الباعر في قوة البطل، الذي تمكّن من بناء القصور على  
 أنقاض جثثهم، بعد أن جعل قصورهم قبورا:

رفع القصور على نضائد هامهم من بعدما جعل القصور قبورا  
 وبالإضافة الى صفات الشجاعة والفروسية التي يتحلّى بها "نور  
 الدين"، فقد وصفه الشاعر بالمبشر والنذير:

ضحكت لك الأيام وكتاب العنا قلقا فجنّت مبشراً ونذيرا  
 وهو الملك على هذه الأرض، الذي اتخذ الكتاب "وزيرا"  
 لا ملك الا ملك محمود الذي اتخذ الكتاب مظاهراً ووزيرا  
 وهو يجمع بالإضافة الى الملك الأحكام الصحيحة، التي تدل على  
 مقدرة وتبصر في الحكم:

تمشي وراء حدوده أحكامه شأنهم فيحكم التقديرا

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٥-٢٦.

وأن صفة العدل من الخصال الأساسية التي تنشدها الأمة في القائد ، وقد توفرت هذه السمة في " نور الدين "؛

يقظانٌ ينشرُ عدلَه في دولةٍ جاءت لمطوى السماح نُشورا  
وطالما أن المجاهد يتمتع بصفات القوة والعدل و ضبط الحكم ،  
وهي صفات الحاكم المسلم التقي ، فلا يجد الشاعر حرجا من نعته بألقاب عديدة ؛  
البرِّ والمعصومُ والمهدىُّ والمأْمونُ والسفاحُ والمنصورا (١)

على النحو السابق مجتد الشعراء أخلاق البطل " نور الدين " ،  
ورأوا فيه مثالا للحاكم المسلم الصالح ، الذي يجمع بين البطولة والتقوى ، ورغم  
تضخيم الشعراء لهذه الخصال ، وذلك بما يتوافق مع الطريقة الشعرية في  
المبالغة ، فإن هذه الصفات لا تتجاوز حدود الواقع ، وما نجد في كتب التاريخ  
عن هذه الشخصية (٢) .

وعندما صد " صلاح الدين " هجوم الصليبيين على " دمياط " سنة ٥٦٥هـ ، أشاد " الشاغوري " (٣) بقوة المجاهدين ، وهزى من الصليبيين ،  
حتى أن المشركين كانوا يقضون عليهم لو لم يؤثروا خائبين ؛

ولا غروا أن عاد الفرنج هزيمةً ولولم تعد لم يبق للشرك ساحل  
وقد أيقن الأعداء أن مصيرهم القتل أو الأسر ، لذا آثروا العودة  
على هذا المصير المرير ؛

فقد أيقنت أعداؤه أن حظهم لديه رماحٌ أشرعت أو سلاسل

ويقارن الشاعر بين استعدادات الصليبيين واستعدادات المسلمين ،  
فيشير إلى كثرة عدد الأعداء ، بالإضافة إلى الآلاف من الخيول ، وهم على  
كثرتهم ، إلا أنهم شعروا بوجود أسود تحمل الرماح والسيوف المحكمة أمامهم ؛

ولما أتوا دمياط كالبحر طامياً وليس له من كثرة القوم ساحل  
يزيد عن الأحصاء والعدد جمعهم ألوف ألوف خيلهم والرواحل  
رأوا دونهم أسداً بأيديهم القنا

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٨٦ .

(٢) انظر في أخلاق نور الدين ؛

ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٣٧ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(٣) هوفتيان بن علي الأسدى الدمشقي والمعروف بالشاغوري . ولد في

بانياس سنة ٥٣٠هـ ، وذكر صاحب الخريدة أنه كان شاعرا مطبوعا ،

حيث التقى به وسمع منه أشعارا كثيرة . له ديوان مطبوع ، وتوفي سنة ٦١٥هـ .

انظر: العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٤٧ .

ابن خلدكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤٠٨ . الأعلام ، ج ٥ ، ص ٣٣٦ .



وزيادة في تمجيد المجاهدين ، وتحقير الصليبيين ، فإن الشاعر  
يسخر من وضع الأعداء وهم منهزمون . فهم كالأنعام بل أكثر ذلاً . ومن شدة  
خوفهم ، لم يأملوا أن يصلوا بلادهم ، ليلجأوا إليها من ضربات المجاهدين ؛  
فعادوا على الاعتقاد منها هزيمة<sup>١</sup> كأنهم ذلاً<sup>٢</sup> نعماً بجوافيل  
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم لتعصمهم مما رأوه المعاقل (١)

بالإضافة الى قيمة هذه الأبيات في بث الحماس في نفوس المجاهدين ،  
وتقليل قيمة الأعداء ، فإن لها قيمة تاريخية ، إذ تشتمل على وصف تفصيلي  
لاستعدادات الجيوش المتحاربة ، وكيفية بداية القتال ، ونتائج الموقعة ، وغير  
ذلك من تفصيلات تظهر في الأبيات .

وبعد انتصار المسلمين في " غزة " سنة ٥٦٦ هـ ، أنشد " سمادة  
الأعمى " واصفا استعدادات المجاهدين في غزوتهم ، فكانوا فرساناً وراجلين ؛  
فتسّى<sup>٣</sup> قد غزا بالخيل والرجل غزة<sup>٤</sup> نأى من نواحيها الرضا ودنا السخدل  
ان المجاهدين الذين يقودهم " صلاح الدين " ، أسود ليس لهم  
مرايض ولا أماكن مقيدين فيها ؛

رماهم بأسد<sup>٥</sup> ما لهم<sup>٦</sup> مرايض<sup>٧</sup> ولا أجسم<sup>٨</sup> الا الذي<sup>٩</sup> يثبت الخط<sup>١٠</sup>

ويشير الشاعر الى اشتراك العنصر التركي في هذه الموقعة ، مما يدل  
على نوبان الفوارق بين الأجناس ، حيث كانوا موحدين جميعاً في ظل  
الاسلام ضد الأعداء ؛

وعات<sup>١١</sup> ضواحيها ضحى<sup>١٢</sup> بكتائب<sup>١٣</sup> من الترك<sup>١٤</sup> لا ردم<sup>١٥</sup> ضفام<sup>١٦</sup> ولا قببط<sup>١٧</sup>

ويذكر الشاعر نتائج الموقعة ، وكثرة القتلى من الأعداء ؛

وطاحت على<sup>١٨</sup> تلك الرمال<sup>١٩</sup> جسومهم<sup>٢٠</sup> ففي كل سقط<sup>٢١</sup> من جماجمهم سقط<sup>٢٢</sup> (٢)

(١) ديوان فتیان الشاغوري ، تحقيق : أحمد الجندی ، ص ٣١٥-٣١٧ .

(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

وعندما انتصر "صلاح الدين" على الصليبيين قرب "ميج العيون"  
 سنة ٥٧٥هـ، عرض "ابن سناء الملك" بأسرى الصليبيين، وذكر أسماء الملوك  
 الأسرى أمثال "بادويل والكند واليسكند"، وهم من مقدمي "الداوية والاسبتارية" (١)؛  
 وأضحى أسيراً ببادويل وغيره قرونٌ ملوككم أبادوا لهم قرنا  
 أسارى جباري لا يرجون فدية ولا يأملون الدهر فكنا ولا أمانا  
 وهل زادهم بالسجن ضيقاً عليهم وقد جعل الأرض الفضا لهم سجنا  
 بكى الكند واليسكند لا وحشة لهم ولكن على نفسيهما أسبلا الجفنا

على هذا النحو يسخر الشاعر بمقدمي "الداوية والاسبتارية"، فزيادة  
 على سجنهم، فإنهم لا يأملون الخروج بفدية، بل ان الشاعر يجعل مستقبلهم  
 بالسجن، أفضل من بقائهم خارجه ماذ أن كل الأرض صارت سجنا لهم.  
 ويدقق الشاعر في وضع "بادويل"، إذ صار يلعن نفسه،  
 وهذه اللعنة حق لنفسه عليه؛

غدا بادويل وهو يلعن نفسه وحق لتلك النفس أن تريم اللعنا

ويبالغ الشاعر في الصورة الكاريكاتورية المزرية للأسير، حتى صار  
 يخاف من الفجر والليل، فلم يمد هناك فرق بين نهاره وليله؛

بروعه الصبح المنير إذا بدا ويوحشه الليل البهيم إذا جنا

وتحول شرابه الى دم لكثرة الدموع، وطره الى لحن حزين من القيد؛  
 ويشرب لكن ان جرى دمه دماً ويطرب لكن ان شيدا قيده لحننا

وتبلغ السخرية ذروتها، عندما يجعل قيوده تزف اليه فتحن وتطرب  
 كما طرب حزنا على وضعه المؤلم؛

وقد ريشما زفت عليه قيوده فحننت وأنت مثل ما حن وأنا (٢)

وهكذا سخر الشعراء من الأسرى، وأظهروا شماتتهم بما حل بهم،  
 كما هزأوا قتلاهم في أشعار كثيرة، وهذا من شأنه بث الحماس في نفوس المجاهدين،  
 وتحقير الأعداء، وتقليل قيمتهم.

(١) انظر في هؤلاء الأسرى :

ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٥٥.

ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٢، ص ٧٥.

أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ٢، ص ٨.

ديوان ابن سناء الملك، ج ٢، ص ٧٥٥.

(٢)

من كل ذلك، يمكن القول ان الشعر كان متابعاً لانتصارات  
المجاهدين ، وقد قدم هذه الانتصارات بطريقة ترضي الأبطال ، وتحقق  
أغراض الأمة الإسلامية . فكانت أشعاراً غنيّة بالثقة في النفس ، ومعبرة عن  
التفاؤل الكبير والانتشار بالنصر .

لكن الأمة كانت في حالة حرب طويلة مع الفزاة الصليبيين ،  
ولم تكن مواجهاتهم العسكرية تكفل بالنجاح في جميع المواقع .  
ومن هنا نتوقع من الشعراء ، أن يؤدوا دوراً في حالات العزيمة ، كما أدوا  
دورهم في فترات الانتصار .

فعندما انهزم المسلمون في حصن " الأكراد " سنة ٥٥٨ هـ (١) ،  
انطلق " ابن الدهان " (٢) كمتذرا عن " نور الدين " بطريقة مريحة لنفسيات المجاهدين .  
فأدوات الحرب التي جهّز بها " نور الدين " جيشه ، بالإضافة الى عزمه على  
القتال ، وما يتمتع به من قوة ، كل ذلك كفيلاً لاسترجاع ما حازه  
الأعداء من غنائم قليلة :

ظُبِيّ المواضي وأطرافُ القنا الذبيلُ      ضوامنُ لك ، ما حازوه من نفل  
وكافلُ لك كافٍ ما تحاولُهُ      عزّ وعزمٌ وبأسٌ غير متحل

يقتل الشاعر من قيمة مكاسب الأعداء ، حتى يبعث الثقة الى  
نفوس المجاهدين ، ثم يبرر موقف المجاهدين ، بأن الذي أحرزه الأعداء  
كان بطريق الغدر والخداع ، وبهذه الطريقة قد تؤسر الأسود ، ولذا فإن  
ما حصل لا يضير المجاهدين ، وليس وصمة عار عليهم :

وما يعيبُك ما حازوه من سلبٍ      بالختلِ قد تؤسرُ الأسادُ بالحيل

(١) كان هدف نور الدين من مهاجمته حصن الأكراد ( وهي الوقعة  
المعروفة بالبقية ) ، أن يقصد طرابلس ، لكن الفرنج اجتمعوا  
واتفقوا على مهاجمة المسلمين نهارة ، فانهزم المسلمون . انظر :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٧ .  
هو أبو الفرج ، عبد الله بن أسعد بن علي بن عيسى بن الدهان  
الموصلّي . ضاقت به الحال في الموصل ، فانتقل الي مصر . اتصل  
بالمك الصالح طلائع بن رزيق ومدحه ، كما اتصل بنور الدين  
وصلاح الدين ، وله فيهما مدائح كثيرة . تولى التدريس في حمص ،  
وتوفي فيها سنة ٥٨١ هـ . انظر :

العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ٢ ، ص ٢٧٩ .  
ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣١٧ .  
القفطي ، انباء الرواة ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .  
ابن تفرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٦٥ .

ويسم الشاعر الأعداء بالجبن ، لأنهم لجأوا الى الخداع ولم  
يجرؤوا على مواجهة المجاهدين من صدورهم ؛

وانا أخذوا جُبِينا الى خُدَعٍ      اذ لم يكن لهم بالجيش من قِبَلٍ  
ويتوجّه الى الأعداء مفرّعا مكيدتهم هذه ، ويحاول تحطيم  
مشاعرهم بالنصر ، اذ لا فرق بين الفشل وبين النجاح بالمكر ؛  
بني الأصافر ما نلتُم بمكرِكُم      والمكرُ في كلِّ انسانٍ أخو الفشل

ونلاحظ موقف الصدا الذي يكتفه الشاعر للمحتلسين ، فلا يستطيع  
تحمل ذكر اسمهم مباشرة ، بل يلتمح اليهم بـ " بني الأصافر " ، وقد درج الشعراء  
على الرمز للسرور والفرنج بـ " بني الأصافر " .

واستمرارا في تحقير مكاسبهم ، وتحطيم معنوياتهم وشعورهم بالنصر ،  
فانه يعتبرهم قد عادوا خائبين ، اذ لم يأسروا غير أتباع المسلمين وسفلتهم ،  
ولم يأسروا من القادة والمجاهدين الشجعان ؛

وما رجعت بأسرى خاب سعيكُم      غير الأراذل والأتباع والسفل  
وهو اذ يعد " المكاسب الخسيسة الضئيلة التي حققها الأعداء " ،  
يذكر أن ما غنموه من الخيول كانت الضعيفة غير القادرة على القتال . كما أن  
الرماح والسيوف القوية ما تزال موجودة بأيدي المجاهدين ؛

سلبتم الجرد مصراة بلا لُجُم      والسمرُ مركوزة والبيضُ في الخلل

بعد هذا التوجه الى الأعداء للتحقير من مكاسبهم ، والتقليل  
من الانتصار الذي أحرزوه ، يتوجه الى الجيش الإسلامي ، ويبرر موقفهم  
بطريقة تطمئن نفوسهم ، وتعيد الثقة اليهم بقوتهم .  
فما حصل للجيش الإسلامي ، كان لأصابته " بعين الكمال " ، ولولا  
أنه كامل لما أصيب في وقته ؛

جيشُ أصابتمُ عينُ الكمالِ وما      يخلو من العينِ الا غيرُ مكتمل

وحتى يبعث الأمل بالنصر من جديد ، يذكر المجاهدين بما  
حصل للرسول ( عليه السلام ) ، وصحبه " يوم حنين " ، مع أنهم كانوا خير الأنام ،  
وفيهم خاتم الأنبياء ، فليكن ذلك اليوم عبرة للمجاهدين ؛

لهم بيومٍ حنينٍ أسوةٌ وهمُ      خيرُ الأنامِ وفيهم خاتمُ الرسل

وهذه ثقة مطلقة بقوة الجيش الإسلامي ، وبقدرة " نور الدين " على  
متابعة الجهاد ، من شأنها أن ترفع معنوياتهم طيبتجاوزوا الفترة الحرجة التي  
كانوا فيها ، وتصبح هذه الواقعة عبرة لهم في المستقبل .

وبعد هذا الاعتذار الجميل عن المجاهدين وقائدهم ، يتجاوز الشاعر الهزيمة ، ويبدأ بالحدِيث عن أسلحة المجاهدين الماضية ، ويطولاتهم المجيدة ، وكأنه يشيد بانتصار حقه المسلمون :

فالسمرُ ما أصبحتَ والشمسُ ما أفلتتَ      والسيفُ ما فلَّ والأطوادُ لم تزل

وبين فضل " نور الدين " في اظهار الحق ومقارعة الأعداء ، وذلك في سبيل تجديد ثقة المسلمين به بعد هذه الموقعة :

وكم تجلّى بنورِ الدينِ من غلّمْ      وانجابُ ما كان للأضلالِ من ظلل

ثم يصف خوف الأعداء من البطل ، وكيف أنهم كانوا يخشون بأسه ، ويفضون الطرف خجلاً من عزمته :

وكم لعمري كفّوا الطرفَ من جبن      عند اللقاءِ وغضّوا الطرفَ من خجل

ويشيد بكثرة الحصون والقلاع التي تمكّن القائد من امتلاكها ، دون أن يخسر شيئاً مقابلها :

كم قد ملكتَ لهم مُلكاً بلا عوضٍ      وخرتَ من بلدٍ منها بلا بدل

ويشير الى كثرة الأسرى من الملوك الذين قيّد هم " نور الدين " ، عدا عن القتلى الذين جرب رماحه فيهم :

وكم سقيتَ الموالي من طلى ملكٍ      وكم قرنتَ العوافي من قرأ بطل

وبعد هذه الوقفة عند المنجزات البطولية التي حقّقها " نور الدين " ، يدعو له أن تحقّق الأقدار بسيفه كل أغراضه وآماله :

لا نكبتَ سهمك الأقدارُ عن غرضٍ      ولا تنت يدك الأيامُ عن أملٍ ( ١ )

بهذه الطريقة الجميلة ، والمؤثرة في النفس ، حاول الشاعر رفع معنويات المجاهدين . وقد عمد الى وسائل متعددة لتحقيق غايته ، فمن التحقير من مكاسب الأعداء ، الى ضرب الأمثلة للمسلمين بمواقف السابقين للاعتبار بها ، وتبرير ما حصل في تلك الموقعة والاعتذار عن المجاهدين ، وصرف النظر عن الهزيمة ، واسترجاع المواقع والبطولات السابقة ، وكل ذلك من شأنه بسّث الحماس في النفوس ، والرفع من المعنويات .

( ١ ) ديوان ابن الدهان ، تحقيق : عبد الله الجبوري ، ص ٧٢-٧٣ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

وحصل للمسلمين ما يشبه هذه الموقعة سنة ٥٧٣ هـ ، وذلك عندما التقى " صلاح الدين " بالصليبيين في " الرملة " وأصيب المسلمون بخسائر كثيرة (١) . فما كان من " ابن سعدان الحلبي " (٢) إلا أن انطلق معتذرا عن المجاهدين ، وبدأ يشيد ببطولاتهم في مواقع سابقة . فذكر موقعة " عسقلان " ، وما أعمله المسلمون في الأعداء من كثرة القتل ، حتى كثرت الأعشاب في بقاعها بعد أن كانت محلة ، كما صارت مرتعا خصبا للخيل والأبل ، وذلك بعد جريان الدماء وخصب الأرض :

قربت من عسقلان كل نائبة      باتت تقل بوكافي من الأسل  
فاض النجيع عليها وهي محلة      فأصحت مرتعا للخيل والأبل

فالشاعر يجعل كل المصائب لا تساوي شيئا أمام ما حققه المجاهدون في " عسقلان " . وهو لا يقتصر على ذكر اسم الموقعة فحسب ، ولكن يتعمق نتائجها وكأن القصيدة قيلت في تلك الموقعة ، وليس في مجال تشجيع المجاهدين ورفع معنوياتهم بعد الهزيمة .

وبعد هذه المحاولة لإعادة الثقة في النفوس ، نجد الشاعر يتوجه الى الأعداء بالتهديد والوعيد ، وذلك ضمن محاولته ازالة مشاعر الفرح بسبب ما حققوا من مكاسب . فمن أجل كبح جماحهم ، وتحطيم معنوياتهم ، يؤكد تصميم المجاهدين على متابعة القتال ، ويبلغهم بترقب ذلك اليوم الذي سيظهر فيه المسلمون " كالفوار " من الأرض لملاقاتهم :

قل للفرنجية الخذلي رويدكم      بالشار أو تخرج الشعرى من الحمل  
ترقبوها من الفوار طالعة      خوارق الأرض تحورونق الأصل

ويتوجه الشاعر الى البطل " صلاح الدين " ، فيعتذر اعتذارا جميلا عن موقف المسلمين ، ويعتبر ما حصل للجيش الإسلامي من اصابة ، ما هي الا جرح بسيط غير باق ، ويكفي هذا غيظا للأعداء ، إذ لم يستطيعوا تعميق الأصابات :

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم      أن يقرفوك بجرح غير مندمل

(١) انظر: ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٤٢ .

ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

(٢) انظر في أخباره : الروضتين ، ص ١٨٤ ، ص ٧٣ .

ويختتم الشاعر قصيدته ببيت فيه كل معاني الشفقة  
بالجيش الإسلامي ، ويقدرته على خوض الحروب وعدم التأثر  
بما حل بهم . فجعل هذه الأصابة ، بمثابة المسل الذي يمر  
على أصابع النحل من لسانه :

وهل يخافُ لسانُ النحلِ ملتصقٌ      مرّت على أصبعيه لذّةُ المسل (١)

وهكذا نلمس قدرة الشاعر في مجال تشجيع المجاهدين ،  
وذلك بصرف النظر عن الهزيمة ، والتسكين على الموقعة التي  
حققت فيها المسلمون مكاسب كبيرة ، بقيادة " صلاح الدين " .  
وان طريقة تناسي الهزيمة ، والأشادة ببطولات المجاهدين ،  
من شأنها رفع معنويات المسلمين ، وإعادة الثقة الى النفوس ، بمد  
الحالة النفسية الصعبة التي مرّوا بها اثر الهزيمة .  
وبذا يكون الشعر قد أدى دوره ببيت الحماس في النفوس ،  
في حالات النصر ، وفي الحالات التي كان النصر فيها حليفاً  
الأعداء . فأدى الشعراء بذلك ، دور أجهزة الاعلام الحديثة ،  
وما تقوم به أقسام التوجيه المعنوي في الجيوش الحديثة .

---

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٣ .

## X استشارة وتحريض لتحرير بيت المقدس

كان لاحتلال الصليبيين بيت المقدس ، أثر عميق في نفوس المسلمين ، فبكى الناس وتألّموا ، وصرخوا واستنجدوا . وهم بين امرأة تنحب على أبنائها ، الى أطفال يصرخون وراء آبائهم ، ورجال يئنون في الشوارع ، " وحسبك بأكوام الرؤوس والأيدى والأرجل في شوارع المدينة وطرقاتها ، لتدرك حقيقة الفاجعة المولمة (١) . من هنا فإن القضية الرئيسية التي تهم الأمة الإسلامية آنذاك ، هي طرد الغزاة المحتلين وتحرير القدس . من هذا المنطلق ، نحاول التعرف على مدى التزام الشعراء بقضية أمتهم الكبرى ، ومظاهر هذا الالتزام .

- 
- (١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .  
(٢) وانظر في الفظائع التي ارتكبتها الصليبيون بعد احتلال القدس ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣-٢٨٤ .  
ابن تغرى بردى ، النجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .  
ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ١٨٤ .  
مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحقاج بيت المقدس ، ص ١١٨-١٢٠ .



بعد احتلال "القدس" سنة ٤٩٢هـ ، نظم الشعراء قصائد يستثيرون فيها الهمم على القتال ، ويحثونهم على مواجهة الصليبيين ، وذلك بالاعتماد على وسائل الأثارة المتمثلة .  
ومن هؤلاء الشعراء " الأبيوردى " (١) ، الذي افتتح قصيدته بوصف حالة المسلمين الحزينة ، وما ذرفوه من دموع على "القدس" مزجنا دماءً بالدموع السواجم فلم يبق منا عُرْضةً للمحارم  
ان هذه المشاعر مألوفة في موقف تسلب فيه المقدسات ، وينتهك المحتلون الحرمات . لكن الشاعر يؤكد عدم جدوى هذه الدموع فمهي شر السلاح ، والسلاح الحقيقي هو السيف ،  
وشر سلاح المرء دمعه يُفِيضُه إذا الحربُ ثُبِتت نارها بالصوارم  
ويتوجه الشاعر إلى المسلمين ، فيحثهم بما قد يصيبهم في المستقبل على أيدي المحتلين ، ان يقوا متخاذلين عن مواجهتهم :  
فأجج بني الإسلام ان وراءكم وقائع يلحقن النذرى بالمناسم  
ويعيّر المتخاذلين الذين يحرصون على ملذاتهم ، وينامون مطمئنين ، لا يفكرون بأحوال المسلمين ، في الوقت الذي يذيق الروم المسلمين في بلاد الشام أنواع الذل والهوان :  
أنهمومة في ظل أمن وبغطة وعيش كنوار الخميلة ناعم  
وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات أيقظت كل نائم  
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم ظهور العذابي أو بطون القشاعم  
تسومهم الروم الهوان وأنتم تجرون ذيل الخفض قعد المسالم

(١) هو أبو المظفر ، محمد بن أبي العباس أحمد الأبيوردى . ولد في أبيورد من الخراسان ، وكان من الأدباء المشهورين ، وله أشعار كثيرة سماها " النجديات والوجديات والمراقبات " . ينتسب إلى الأمويين ، وكان يعتز في شعره بهذا النسب . له ديوان مطبوع ، بتحقيق : مدوح حقي ، ونشر دار اليقظة العربية . وكانت وفاته سنة ٥٠٧هـ . انظر :

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧١-٧٤ .

ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ج ١٧ ، ص ٢٣٤-٢٦٦ .

ابن الصمد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ١٨-٢٠ .

ونلمس قدرة الشاعر القاطن في "العراق" ، على تحسُّس آلام المسلمين في بلاد "الشام" ، وفي محاولته شحذ الهمم في "العراق" ، لنجدة أهل "الشام" .  
 وان الشاعر في وصفه ما حل بالمسلمين ، تجاوز حدود النقل الحرفي ، الى تلويحها بمشاعره الخاصة ، والتي هي تعبيري عن مشاعر الأمة آنذاك . ويهدف من كل ذلك ، الى شحذ الهمم ، وتنبيه الغافلين بخطورة الموقف السلبي الذي يتخذونه .

وبعد هذه الوقفة عند المتقاعسين عن القتال ، يصف شدة المعركة التي جرت في "القدس" ، وما قاساه المسلمون نتيجة المذابح التي ارتكبتها الغزاة :  
 وكم من دماءٍ قد أبيحت من دمي تواري حياءُ حسنُها بالمعاصم  
 بحيثُ السيوفُ البيضُ محمرة الطبا وسمُ العوالي دامية اللسانم  
 وهذه اشادة بالمقاتلين المسلمين الذين استبسلوا في الدفاع عن "القدس" ، حتى توارت سيوفهم ورماحهم بالدماء .

ولكن كانت المعركة ضارية قاسية ، تكاد تشيب لها شعور الولدان :  
 وبين اختلاسِ الطعنِ والضربِ وقفةٌ نزلُ لها الولدانُ شيبُ القوادم  
 وقد عمد الشاعر الى هذه التفصيلات عن ضراوة المعركة ، حتى يحقق استنارات وجدانية في نفوس المسلمين ، فيهبوا لنجدة اخوانهم ويحرروا "القدس" .  
 ويبدو أن الشاعر متمثل لخطورة الاحتلال ، وما قد تجره هذه الحروب من مصائب على جميع الأمة ، لذا نجده يتحدث المتخاذلين عن القتال ، وينبهمهم الى ذلك اليوم الذي سيعضون فيه أصابعهم ندما على تقاعسهم :

وتلك حروبٌ من يغب عن غمارها ليسلم يقرع بعدها سنّ نادم

ويعود مرة ثانية الى وصف فظائع الصليبيين التي ارتكبوها بعد الاحتلال ، حيث أمعنوا في الطعن والقتل . وبالغ الشاعر في وصف هذه الحالة ، حتى جعل الفرد في "طيبة" ، ينادي "آل هاشم" مستغيثا ، وذلك لشدة ما يلاقيه من الشر على أيدي الصليبيين :

سللن بأيدي المشركين قواضباً ستفمدُ منهم في الطلا والجمام  
 يكاد لمن المستجن بطيبة ينادي بأعلى الصوت يا آل هاشم

ويبدو أن الشاعر واقع على واقعه ، ومشاعر أفرادها تجاه بعضهم بعضاً . وهذا يؤكده وحدة الأمة الإسلامية وصدق مشاعرهم ، رغم تعدد الولايات التي تقطنها .

ويعمد هذه الاستشارات عن طريق وصف ما حل بالمسلمين اثر  
احتلال "القدس" ، يعمد الشاعر الى وسيلة ثانية ، وهي اشارة الشاعر  
الدينية في النفوس .

أرى أمي لا يشرعون الى العدى رماحهم والدين واهي الدعائم  
ونعلم ما للعقيدة من مكانة في النفوس ، ومدى استعداد المسلم  
لتقديم نفسه رخيصة للدفاع عن مقدساته . فقد كان الشاعر مدركا  
لاهمية هذا الدفاع ، عندما طرحه مثيرا ثانيا للقتال .  
ثم يقرع الشاعر الجبناء ، ويستثير فيهم قيم البطولة والشجاعة ،  
بتذكيرهم مواقف أسلافهم الذين قارعوا الأعداء . ويتساءل مستنكرا هذا  
القبول بالأمر الواقع ، والرضخ للفضة الفرياء :

ويجتنبون النار خوفاً من الردى ولا يحسبون المارضة لازم  
أترضى صناديد الأعراب بالأذى ويغضى على ذل كماء الأعاجم  
ثم يستثير غيرة المسلمين على أعراضهم ونائمهم ، من أجل  
الدفاع عن محارمهم فيقول :

فليتهم إذ لم يؤدوا حمية عن الدين ضنوا غيراً بالمحارم  
وإذا تصورنا مكانة المرأة في الإسلام ، وموقعها في نفوس  
المسلمين ، أدركنا ما لهذا المثير من حوافز قوية على مجابهة  
الصليبيين الذين انتهكوا الأعراض .  
ورغم أن هذه المثيرات كلها دوافع حقيقية للقتال ، إلا أن  
الشاعر يتعرض الى حافز دنيوى ، عليه يكون دافعا للقتال . فيشجع  
الناس على المواجهة ولو من أجل الفنائم :

وان زهدوا في الأمر إذ حمي الوغى فهلاً أتوه رغبة في الفنائم  
ومع أن فلسفة الجهاد في الإسلام ، لا تجعل الفنائم هدفا من  
أهداف القتال ، إلا أن الشاعر يحاول دفع الناس للقتال ، ولو من أجل  
الفنائم ، مما يشير الى الحالة النفسية الشائنة ، التي كان يمر بها  
الشاعر ، حتى اضطرت هذه الحالة ، أن يستجمع كافة دوافع القتال  
الدنيوية والدينية ، من أجل تغيير الواقع المؤلم الذى يعاني منه المسلمون .  
واستكمالا لهذه الحالة الشعورية التي يمر فيها الشاعر ، فأنه  
يدعو على الراضين بالذل أن تجدد أنوفهم :

لئن أدعنت تلك الخياشيم للبرى فلا عطست إلا بأجدع راغم

ان مشاعر الكره للعتقاعين ، وأحاسيس الغضب والثورة التي  
 نحسها تندفق من الأبيات ، تجعل الشاعر مؤمنا بقرب ذلك  
 اليوم الذي ينتصر فيه المسلمون . فيدعو الأمة بشكل مباشر للسير  
 لقاء الأعداء ، ويتطلع الى تلك الغارة التي تلوح في الأفق ،  
 وتضع حداً لكبرياء الروم وعتهم :

دعوناكم والحرب تدعو ملحةً      الينا بالحاذق النور القشاع  
 نراقب فينا غارةً عربيّةً      تطيل عليها الرومُ عضّ الأباهم

وينتهي الشاعر قصيدته ، ببيت يفيض بمعاني الثورة والمصنف  
 ويحمل أبعاد التحدى والتصميم على الحرب فيقول :

فأن أنتم لم تغضبوا بعد هذه      رمينا الى أعدائنا بالحرائم (١)

على النحو السابق ، استطاع الشاعر أن يؤدي دوراً كبيراً في شحن  
 الهم على القتال ، والتأثير في النفوس بعشرات عديدة ، مما يشير الى صوت  
 المسلمين العدائي للأحتلال من البداية ، وتصميمهم على مقاومة الفيسزاة ،  
 حتى لو أدى الأمر الى اشراك النساء في هذه الحروب .  
 وقد لَوّن الشاعر قصيدته بمشاعره الخاصة ، فضخم من الفاجعة  
 بطريقة الشعراء ، وذلك لتحقيق هدف الأشارة والاستحثاث على القتال ،  
 وبالأضافة الى قيمة القصيدة في النواحي التي بينناها ، فإن لها  
 قيمة تاريخية كبيرة ، إذ أنها من القصائد القليلة التي وصلتنا  
 اشراحتلال الصليبيين بيت المقدس .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٩٣ .  
 ابن تغري بردى ، والنجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١ .

وسجّل أحد الشعراء (١) ما حل بالمسلمين ، من أجل تعبئة النفوس وشجذها على القتال .

فبدأ بالقضية الدينية ، وهي حلول الكفر محل الإسلام ، باحتلال الصليبيين الديار المقدسة فقال :

أحلّ الكفرُ بالإسلام ضيماً يطولُ عليه للدين النحيبُ

ثم انتقل الى تفصيل ما حدث بسيطرة الكفر على الأيمان ، حيث ضاعت الحقوق باحتلال الوطن ، وأريق الدماء بأعمال السيوف في المسلمين :

فحقُّ ضائعٌ ودمٌ مباحٌ وسيفٌ قاطعٌ ودمٌ صيب

بالإضافة الى ما حل بالمسلمين من قتل ، فقد أسرع د كبير من المسلمين . لكن الشاعر لا ييجمل هذه الحقيقة بطريقة المؤرخ ، بل يلونها بمواقفه الخاصة ، حتى تحقق الاستشارات الانفعالية المطلوبة :

وكم من مسلم أمسى سليماً ومسلمة لها حُرْمٌ سليب

وينتقل الشاعر الى ما حل بأماكن العبادة عند المسلمين ، فقد حول الغزاة المساجد الى أديرة ، ونصبوا عليها صلبانهم . ويعمد الشاعر الى التكرير من هذه الأعمال ، بالارتكاز على كم التكريرية :

وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نُصِبَ الصليب

ويرد الشاعر أعمال الغزاة هذه الى طبيعة الأخلاق التي يتصفون بها ، هذه الأخلاق التي طبعتها دماء الخنازير ، حتى صاروا يستطيون تحريق المصاحف :

دم الخنزير فيه لهم خلوقٌ وتحريقُ المصاحف فيه طيب

ونلاحظ اهتمام الشاعر بالمشير الديني ، فعمد الى تفصيل ما حل بأصول التشريع ومرتكزاته . فالقرآن الذي يعتبر المصدر الأول للتشريع في الإسلام ، يتعرض للحرق ، مما يشير الى البناعت الديني عند الغزاة من ناحية والى اهتمام الشاعر ببيت الحمية الدينية في النفوس من ناحية ثانية .

(١) لا نعرف اسم الشاعر . لكن الفترة التي قيلت فيها هذه الأبيات معلومة ، وهي بعد احتلال القدس سنة ١٠٩٢ هـ . انظر موقع النص الشعري في : ابن تفرى بردى ، النجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

وحتى يحقق الشاعر غايته من هذه المشيرات ، يضيف الى أن هذه الأعمال التي قام بها الصليبيون ، يكاد الطفل يشيب ان حاول تأملها :  
أمور لو تأملهن طفلٌ  
لطفل في عوارض المشيب  
ثم ينتقل الشاعر الى قضية انتهاك المحتلّين للأعراض ، حتى أصبحت  
معظم نساء المسلمين سليات بأيديهم :

أتسبى المسلمات بكل ثفر  
وعيش المسلمين اذا يطيب  
ونعلم ما للمرأة من مكانة في المجتمع الاسلامي ، فعندما تربط المرأة  
بالدين ، يكون الدافع أقوى وأشد على القتال .  
ويبدو الشاعر متمثلاً لدوافع القتال في الاسلام ، ان يربط قضايا  
الوطن والمرأة وكثرة القتل والسبايا ، بقضية العقيدة ، التي تجعل الانسان  
يضحّي بكل ما يملك في سبيل نصرتهما ، فيقول :  
أما والله للاسلام حقيقٌ  
يدافع عنه شبان وشيب  
ويختم قصيدته بدعوة المتبصرين الى الاستجابة والنهوض  
للقتال فيقول :

فقل لذوى البصائر حيث كانوا  
أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (1)

فالشاعر يدعو رجالاً معينين الى القتال ، وليسوا أشخاصاً عاديين .  
يدعو الرجال المؤمنين بالله ، الذين فتح الله عليهم بالاسلام ، فأدركوا سر  
وجودهم في الحياة ، ويعملون للجمع بين الدنيا والآخرة . هؤلاء الرجال  
هم القادرون على خوض الحرب ، لأنهم متمثلون حقيقة الخطر المحدق بهم ،  
ولأنهم ينتظرون في جهادهم احدى الحسينيين ، النصر أو الشهادة في  
سبيل الله .

ومن هنا ، نلمح قدرة الشاعر في اختيار التعابير الدالة على معان  
كثيرة . فعبارة " ذوى البصائر " ، تحمل كل هذه المعاني التي أشرنا اليها .  
وبذا فقد تجاوز حدود الوصف الحرفي لما حل بالمسلمين ، الى محاولة  
استثارة المسلمين ، والتطلع الى يوم الخلاص بقتال الأعداء .

(1) ابن تغرى بردى ، النجم الزاهرة ، ج 5 ، ص 151-152 .

ومن القصائد التي قيلت في هذه الفترة أيضا ، قصيدة " ابن الخياط " ،  
 التي ينبّه فيها الى خطر الاحتلال ، ويحرض على ضرورة مقاومته فيقول :  
 أنوماً على مثل هدّ الصفاة وهزلاً وقد أصبح الأمرُ جدّاً  
 وكيف تنامون عن أعين وترتم فأسهرتموكم حيناً  
 فالشاعر يبدأ بهذه الطريقة التقريرية ، التي تتضمن معاني التوبيخ  
 والتنديد بالمتخاذلين عن الجهاد ، وحتى يجد تحريضه مجال اقناع لدى  
 المتقاعسين ، يبدأ بتفصيل أعمال الفرنج ، ويتحمس خطورة احتلالهم المقدسات ،  
 ومن أجل ذلك ، يسم الغزاة بالكفر ، بل ان سمّي الحقد والكفر  
 اتحدتا في قلوبهم :

وشرّ الضفائن ما أتبلستُ لديه الضفائنُ بالكفر تحمداً  
 ونتيجة لهاتين السميتين ، فإن المشركين لا يرتدعون عن الفساد في  
 الأرض ، لأنهم لا يعرفون هدفاً غير البغض والحقد :

بنو الشرك لا ينكرون الفساد ولا يعرفون مع الجور قصداً  
 وحتى يبلغ غاية الاستشارة والتحريض ، يصف أعمالهم الوحشية ،  
 وكثرة القتل والثك ، وما قاموا به اثر احتلالهم "القدس" ،

ولا يردعون عن القتل نفساً ولا يتركون من الفتك جهداً

وينتقل الشاعر الى وصف ما حل بالنساء الصلمات ، بأسلوب يوئى  
 كل عواجل الأثارة الماطفية ، ويحمل معاني النخوة والدفاع عن  
 الأعراض والمحارم :

فكم من فتاة بهم أصبحت تدق من الخوف نحرّاً وخداً  
 وأم عواتق ما ان عسرفن من حرّاً ولا ذقن في الليل برداً  
 تكاد عليهن من خيفة تذوب وتلف حزناً ووجداً

فالشاعر يصف وضع النساء المحزن ، ومخاوف الفتيات الصغيرات اللواتي  
 لم يعتدن شظف الميش ، وكل ذلك لتحقيق الاستنارات الوجدانية التي يرمي  
 اليها ، علّ المتخاذلين يدركون خطورة النكبة التي يعيشونها ، والخطر المحدق  
 بهم من الغزاة المحتلّين .

ينتقل الشاعر الى الحضّ المباشر على القتال ، والدفاع عن الدين  
والمجارب فيقول :

فحاموا على دينكم والحريم      محاماة من لا يرى الموت فقدا  
وسدوا الثغور بطعن النحور      فمن حق نغربكم أن يسدا

فقد حث الشاعر المسلمين أن يبذلوا نفوسهم رخيصة في مواجهةهم  
الأعداء ، وأن يحاموا عن دينهم دون أن يحسبوا للموت حسابا .

وبدا لنا تمثل الشاعر لفلسفة الجهاد الإسلامي ، حين ربط  
الدفاع عن النساء بقضية العقيدة الإسلامية ، وهي من أقوى الدوافع على القتال .  
ويسأل الشاعر أن يجد المسلمون بطبلا ، يستطيع جمع طاقات  
الأمّة ، ويوجهها الى الأعداء . هذا البطل الذي يتسم بصفتين :  
الحلم والحزم في تدبير الأمور ، والبأس والقوة في مواجهة الأعداء :

فلن تعدّوا فسي انتشارا لأمور      أخا تدرا حازم الراي جلدا  
يظاهرتدبيره بأسه      مغازرة السيف كفا وزندا

ولعل أمل الشاعر بتهيئة البطل ، يشير الى تخاذل الأمراء آنذاك ،  
وانشغالهم بقضاياهم الخاصة عن القضية الكبرى التي تمم الأمة . ويمكن أن  
يكون هذا الشعور مفسرا لتملق الأمة بأبطالها المجاهدين فيما بعد .  
ونحس بعدها بالتفاؤل الذي يملأ قلب الشاعر ، والثقة العارضة  
التي تفمر أحاسيسه ، حين يعدّ رؤوس المشركين قد أينعت وحنان  
قطانها ، وحين يوكد إيمانه بالنصر :

فقد أينعت رؤوس المشركين      فلا تغفلوها قطانا وحصدا  
فلا بُدّ من حدّهم أن يُفل      ولا بُدّ من ركنهم أن يُعدّا (١)

وبذلك يكون الشاعر قد أدى دورا كبيرا في تحسّس النكبة والتنبية  
الى الخطر الكبير بوجود الاحتلال ، واستشارة المسلمين على القتال .

(١) ديوان ابن الخياط ، تحقيق : خليل مردم بك ، ص ١٨٢-١٨٦ .



وعندما بدأ المسلمون أعمالهم الحربية بمسارعة المحتلين، وتوالت الانتصارات على أيدي المجاهدين، وأخذ الشعراء يحرصون على تحرير القدس بعد كل فتح ونصر، ضمن نهائهم ومدائحهم .

فعندما مدح " ابن منير الطرابلسي " عماد الدين " بفتح " الرها " سنة ٥٣٩هـ، قال :

وعنداً يلقى على القدس لهما      كلكل يدرسها درس الدين  
همة تُسبي وتُضحى عزيمة      ليس حصن أن تُحطه بحصين  
قل لقم غرهم أمهاله      ستذوقون شذاه بعد حين  
انه الموت الذي يُدرك من      فر منه فسحاً للعالمين (١)

فالشاعر يذكر البطل بالقدس، وهو مستهزئ بقرب اليوم الذي تحرر فيه، لذا يهدد الأعداء ويتوعددهم، بأنهم لن يبقوا مدة طويلة في الديار المقدسة، وسيذوقون الموت على يد " عماد الدين " . ونحس إيمان الشاعر الكبير بالنصر، وكأن اليوم الذي سيطردون فيه صار حقيقة ماثلة أمام عينيه، مع أن وضع المسلمين آنذاك، لم يكن إلى درجة من القوة، ما هو مثل الشاعر أن ينظر هذه النظرة . لكن إيمانه بحق المسلمين في " القدس " من مقومات هذه الذرة المتفائلة . وفي المناسبة نفسها، قال ابن التيسراني :

فأن يك فتح الرها لجة      فساحلها القدس والساحل  
فهل علمت تلك الدنيا      رأن المقيم بها راحل (٢)

إنها الطريقة نفسها في الترقب، والتطلع إلى ذلك اليوم الذي يهزم فيه الصليبيون وتحرر " القدس " . إلا أن مشاعر " ابن التيسراني " التواقفة إلى الديار المقدسة، جعلته يتنسى لو تعقل المقدسات، فيعلمها أن المحتلين راحلون . وكل هذا مؤثر إلى شدة تعلق الشاعر بالقدس، وشوقه إلى يوم العودة .

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٤٠ .

(٢) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، ج ١، ص ١١٠ .

أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٤٩ .

ومن الملاحظ اهتمام الشعراء بالربط بين "الرها" و"القدس" ،  
ولعل هنالك أمرين يفسران هذه الظاهرة : الأول ، أن مكانة "القدس" الدينية  
عند المسلمين ، تجعلهم يصرون على تحريرها ، فلا عجب أن يستغل الشعراء  
كل فتح للتذكير بالمدينة المقدسة . كما أن تحرير مدينة ، وضمها إلى الحظيرة  
الاسلامية ، يذكر بالمدن المحتلة الأخرى ، وبخاصة مدينة "القدس" . وهذا  
أمر طبيعي بالنسبة إلى ربط "القدس" بـ"الرها" أو بغيرها من الإمارات المحررة .  
وأما الأمر الثاني ، فهو أن "الرها" و"القدس" ، كانتا من الإمارات المهمة بالنسبة  
إلى الصليبيين بعد احتلال المدينتين ، فلا عجب إذن أن يذكر تحرير  
إمارة "الرها" ، بإمارة أخرى محتلة ، وبخاصة مدينة "القدس" .  
وبعد مقتل "البرنس" صاحب "أنطاكية" في معركة "انتب" سنة ١١٤٤هـ  
قال "ابن القيسراني" :

فانهز إلى المسجد الأقصى بذي لُجْب يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتقب  
وأذن لموجك في تطهير ساحله فانما أنت بحر لُجه لُجب (١)

انتبه الشاعر فرصة الثناء على "نور الدين" والأشادة ببطولته ، بعد  
قتله صاحب "أنطاكية" ، ليحرضه على التوجه إلى "القدس" . ونظر إلى قوة  
"نور الدين" ، والأماكن التي يمتلكها ، على أنها تؤمنه لتطهير البلاد من  
المحتلين . وتبلغ ثقة الشاعر بنور الدين ذروتها ، حين اعتبر تحرير "القدس" ،  
رهن أوامر يصدرها البطل إلى المجاهدين ، حتى يخوضوا المعركة الحاسمة  
للتطهير .

ونلاحظ أن الشاعر لم يعمد إلى عوامل الأثارة التي ارتكز عليها الشعراء  
أول الأمر ، بل عمد إلى الحضر المباشر على التحرير . فالمجاهدون يخوضون  
المعارك ، وهم في حالة حرب مع الأعداء ، فليس هنالك داع للأسلوب الذي  
اتبعه الشعراء بعد احتلال "القدس" مباشرة . ولكن كان لا بد من تذكير  
المجاهدين بالهدف الكبير ، وهو تحرير "القدس" من الصليبيين .

(١) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١١٢ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩ .

وبعد أسر "جوسلين" صاحب "أنطاكية" سنة ٥٤٦هـ ، أنشده  
"ابن القيسراني" مشيدا بـ"نور الدين" ، ثم تطلع الى تحرير "القدس" فقال :  
كأنني بهذا العزم لا فُئلُ حدهُ وأقصاهُ بالأقصى وقد قُضي الأمرُ

يرى الشاعر ببصر ناقب ، وحس فني ، وكأن المجاهدين وصلوا الى  
الأقصى ، وذلك لما وصلت اليه عزائم المجاهدين من تصميم ، وقوة السلاح .  
ويعتبر الشاعر أنه لم يبق على التحرير سوى جريان الدماء :

وقد أصبح البيت المقدس طاهراً وليس سوى جاري الدماء له طهر

فدماء المجاهدين الطاهرة ، كقيلة بتطهير القدس من دنس المحتلين .  
ومذاه اشارة الى انتهاك الصليبيين لحرمت الأقصى ، عمد الشاعر الى التلميح  
ليها ، ليحقق انفعالات وجدانية خاصة في نفوس المسلمين .

واستكمالاً لرؤية الشاعر البعيدة ، يرى "القدس" وقد حررت وعادت  
الى الأقصى مكانته ، حيث تؤدى الرماح والسيوف واجبها بالصلاة :

وقد أدت البيضة الحداد فروضها فلا عمدة في عنق سيف ولا نذر

وصلت بمسراج النبي صوارم مساجدُها شفعٌ وساجدُها وتر (١)

على هذا النحو رمز الشاعر الى المجاهدين ، بأدوات القتال التي  
يستعملونها في الحرب . وهو بهذا الأسلوب التلمحي ، يبلغ هدفه بطريقة  
فنية جميلة .

وقد استطاع الشاعر أن يحرر المجاهدين على تطهير "القدس" ،  
من خلال تذكيرهم بمكانة "القدس" الدينية . ومن شأن هذه الطريقة أن تزيد  
تعلق المسلم بمقدساته ، ويحرص على مواصلة القتال لانقاذها .

من هنا نلاحظ حرص الشعراء على حث المجاهدين لمواصلة القتال بعد  
كل نصر وفتح . كما نلاحظ اهتمامهم الكبير "بالقدس" . فبعد أن علّقوا الأمل  
على "عماد الدين" ، استمرت ثقتهم بآبائه "نور الدين" لهذه الغاية .

(١) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٢ .

وفي العمليات التي كان يقوم بها الأبطال لضم المدن والقلاع الى  
الخطيرة الإسلامية ، لم ينس الشعراء أن يحرضوا المحاهدين على تطهير "القدس"  
فبعد أن حاصر "نور الدين" "دمشق" سنة ٥٤٦هـ ، قال ابن منير  
الطرابلسي :

دمشق دمشق انما القدس سرحة ومركزها صرح عليها مسرد

ان عودة "دمشق" الى مكانها الطبيعي تحت امرة المسلمين ، تذكر  
الشاعر بأختها "القدس" التي تزح تحت نير الاحتلال .

ويبين سبب حرص المحتلين على "القدس" ، حين التحاوا اليها  
ليحموا أنفسهم . لكن الشاعر يستمزي بهم ، ويعتبر عمرهم قد انتهى :

حموفا لكي يحموا وقد بلغ المدى بهم أجل حتم وعمر محدود

ان استهزاء الشاعر بالمحتلين على هذا النحو ، يحقق غرض الحث  
والتحريض الذي يعرض عليه . لذا نراه يستشرف يوم النصر من بعيد ، ويخلق  
خياله ، حتى يرى الطائر المبشر بالنصر ، يرفرف في أرجاء "القدس" ويفرد :

متى أنا رائ طائر الفتح صادحا يرفرف في أرجائها ويفرد (١)

وهذه التعابير ، كناية عن الحرية التي سينعم بها أهل "القدس" ،  
بعد التحرير . وكأن الشاعر بتطلعاته واستشرافاته ، يحث المجاهدين  
على تطهير المدينة ، حتى يحس أهلها بالأمن والطمأنينة .

وعندما تم ضم "منبج" الى الديار الإسلامية سنة ٥٦٣هـ ، قال  
"العماد" مبشرا "نور الدين" بفتح "القدس" :

أبشر ببيت القدس يتلو منبجا ولمنبج لسواها كالأمونج

ان ضم "منبج" يذكر الشاعر "بيت المقدس" . بل ان ضمها  
ايدان حقيقي بتحرير المدينة المقدسة . ووصل ابتهاج الشاعر الى أن جعل  
الفتح مؤكدا ، فبشّر البطل بذلك .

وحتى لا تبقى القضية محصورة في نطاق الأمانى ، يلفت الشاعر المحاهدين  
الى قوتهم الكبيرة ، التي مكنتهم من ضم المدينة التي تحصن أهلها الأصليون  
في أبراجهم . فالحيث الذي يحقق ذلك ، لا تمحزه المدينة التي يقطن  
أبراجها غزاة طارئون :

وما أعجزتك الشهب في أبراجها طلبا فكيف خوارج في أبرج

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٩ .

ثم يحث الشاعر " نور الدين " على مواصلة الجهاد ، كي يفتح " القدس " ،  
ثم يعرج على " طرابلس ونابلس " وباقي الثغور الإسلامية :

فانهمض الي البيت المقدس غازياً وعلى طرابلس ونابلس عج (١)

وبعد أن استلم " شيركوه " الوزارة في " مصر " سنة ٥٦٤ هـ ، قال  
" العماد " مشيداً بهذا النصر ، ومتنياً لـ " نور الدين " بالسير الى " بيت المقدس " :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بها ميسراً فتح بيت المقدس عن كتب

ان فتح " مصر " وعودتها الى سلطة " نور الدين " ، تذكّر بـ " القدس "

المحتلة ، ولذا يحض مباشرة على السير الى " القدس " .

ويشيد ببسالة البطل ، وينصره الدين ، ثم يطلب منه أن يبادر الى

" القدس " بعد " مصر " :

قد أمكنت أسد الدين الفريسة من فتح البلاد فبادر نحوها وثب

أنت الذي هو فرج من بسالته وألدين من عزمه في حقل لجب (٢)

فحاول الشاعر استشارة البطل من خلال التركيز على قضيتين : القوة

التي يتحلى بها ، والدين الذي يؤمن به ويمتز .

وقال " العماد الأصمباني " من قصيدة ثانية في المناسبة نفسها :

اغز الفرنج فهذا وقت غزوم واحطم جمعهم بالذابل الحطم

وطهر القدس من رجس الصليب وثوب البغات وثوب الأجدل القطم

فملك مصر وملك الشام قد نظماً في عقد عز من الإسلام منتظم (٣)

ان فتح " مصر " ليس هدفاً في حد ذاته ، لكنه وسيلة لتجميع طاقات

الأمة بوحدة " مصر والشام " . ويتحقق هذه الوحدة ، تتوفر أسباب القوة ،

مما يمكن المجاهدين الانطلاق الى " القدس " . وقد أبان الشاعر عن هذه

الوحدة ، والتي هي سبب القوة ، وحث البطل على غزو الفرنج ، وتطهير المقدسات

من صلبانهم . فهي فرصة كبيرة للتحضاء عليهم ، بعد أن تحققت وحدة الأمة .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٠ .

(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٥ .

وقال " ابن عساكر<sup>(١)</sup> في المناسبة نفسها :

وان بذلت لفتح القدس محتسباً      للأحر حوزيت أجراً غير محتسب  
والأجر في ذاك عند الله مرتقب      فيما يشب عليه خير مرتقب  
والذكر بالخير بين الناس تكسبه      خير من الفضة البيضاء والذهب

حيث الشاعر "نور الدين" على الانطلاق "لبيت المقدس" ، من خلال اشارته العامل الديني في نفس المجاهد .

ويبدو الشاعر مؤمناً بفلسفة الجهاد الإسلامي ، إذ يحرض البطل على تحرير "القدس" ، لينال أحراراً عند الله تعالى ، وهذه أسمى غايات المجاهد .  
مذا بالإضافة الى ما يكسبه في الدنيا من الذكر الطيب ، وهو كسب أفضل من الذهب والفضة .

ويبين الشاعر أن في مقدور "نور الدين" . الانطلاق الى "القدس" ، بعد أن تمت الوحدة بين " مصر والشام" ، وليس هنالك ما يببر ترك الجهاد وتحرير "القدس" بعد هذه الوحدة :

ولست تُعذِرُ في ترك الجهادِ وقد      أصبحت تملكُ من مصرٍ الى حلب (٢)  
ومعكذا كانت عملية التوحيد بين القطرين الكبيرين ، منطلقاً للشعراء ، يحرضون من خلال القوة التي وصلت اليها الأمة ، على مواصلة الجهاد وتطهير "القدس" .

---

(١) هو أبو القاسم ، ثقة الدين علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي . ولد سنة ٤٩٩ هـ ، وكان كثير الرحلات وحريصاً على لقاءات العلماء . قال عنه العماد : " جمع بين معرفة المتون والأسانيد " . ذهب الى بغداد سنة ٥٢٠ هـ ، ورجع الى دمشق ثم رحل الى خراسان وأذربيجان ونيسابور . أورد له العماد مقطوعات كثيرة من شعره ، ثم ذكر أنه التقى به عدة مرات ، وكانت وفاته في دمشق سنة ٥٢١ هـ . انظر أخباره في :

العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .  
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٠١ .  
ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٩٤ .  
ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

وعندما انتهى عهد الفاطميين سنة ٥٦٩هـ ، قال "العماد" مشيدا  
 "بصلاح الدين" ، ومحرضا اياه على فتح "القدس" :

فسرّ وفتح القدس واسفك به      دماءً متى تُجرهما يُنظف  
 واهد الى الاستار البتار      رَوعِد السقوف على الأسقف  
 وخلص من الكفر تلك البلا      دُيَخْلَصَك الله في الموتى (١)

يوء من الشاعر بأن القتال وحرمان الدماء ، الوسيلة الوحيدة لتطهير  
 "القدس" من رجس الصليبيين . ويدرك أنه بالتحريير ينتهي وعود الكفر  
 من الديار . وقد جمع الشاعر بين القوة التي يتصف بها "صلاح الدين" ، وبين  
 الأجر الذي سيناله في الآخرة على جهاده . ورمى الشاعر من ذلك الى تشجيع  
 البطل لتحقيق أمل الأمة .

✓ ونحس مشاعر العنف والقوة من خلال ألفاظه وتعابيره ، فانظر الى  
 الفاظ : " واسفك ، دماء ، البتار ، وهد " وما توحيه من معاني القوة . كما نحس  
 مشاعر الغضب والكره ، التي يكتسها الشاعر للمحتلسين ، من خلال جمعه بين  
 الألفاظ الدالة عليهم ، وبين الألفاظ الدالة على وسيلة طردهم ، فانظر الى  
 قوله : " الاستار البتار ، والسقوف على الأسقف " .

✓ وبعد أن سيطر "صلاح الدين" على "حمص" سنة ٥٨٢هـ (٢) ، أنشد  
 "الجلياني" (٣) يحضه على تحرير "القدس" فقال :

اذا صُفرت من آلٍ أصفر ساحةً      المقدس ضاهت فتحة أم القرى قدما  
 فذا المسحد الأقصى وهمتك العلى      وعزمتك القصوى ورميتك الضمى  
 فما هو الا أن تهتمّ وقد أتت      فتوح كما فاض الخضم الذي طمّا

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٢) انظر في ذلك :

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

(٣) هو أبو الفضل ، عبد المنعم بن عمر بن حسان الجلياني ، من أصل  
 أندلسي ، لكنه كان يقيم في بلاد الشام . لقب بحكيم الزمان ، وله  
 أشعار كثيرة ، ومعظمها في القدسيات ، حيث نال واصفا القتال والأبطال  
 والفتوح التي جرت على يدي عمّالح الدين . وقد سمي مجموعته الشعرية  
 بديوان "المبشرات والقدسيات" . انظر :

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٣ ، ١١٢ .

تتضح مشاعر الثقة بقوة البطل ، والتفاؤل الكبير بإمكانية فتح " القدس " ، على يد " صلاح الدين " ، حتى صارت عملية التحرير عند الشاعر ، مجرد خوض معركة في وقت قريب . وإذا تذكّرنا ما كان قد حققه " صلاح الدين " حتى تلك السنة من فتوحات ، ندرك العوامل التي جمّعت هذه الأحاسيس وورصدتها . ونلاحظ أيضا ، موقف الشاعر من الأعداء ، إذ يأبى أن يذكرهم باسمهم ، بل يكتسي عنهم بعبارة " آل أصفر " ، وقد أكثر الشعراء من الرمز إليهم بهذه الطريقة ، زيادة في تحقيرهم والسخرية منهم .

وبعد ذلك ، يعتبر الشاعر تلك الفترة ، فرصة لأنقاض على الأعداء ، إذ ليس هنالك من هو أجدر من " صلاح الدين " لخوض المعركة الحاسمة :

وان أنت لم تُردِّ الفرج بوقعةٍ      فمن ذا الذي يقوى لبنيانها هُدما  
وما كلُّ حينٍ تُمكنُ المرءُ فرصةً      ولا كلُّ حينٍ أمكنت تفتضي غنما

وكأنني بالشاعر ، كانت تلوح له بوادر النصر في الأفق البعيد ، حتى عبّر بهذه الطريقة التي تدل على تبصّر في الأمور ، ونظرة عميقة تتجاوز الحدود .

وبعد كل هذا التشجيع ، يكشف عن الأمية الكبرى ، التي انتظرتها الأمة طويلا ، وهي فتح " بيت المقدس " :

وليس كفتحِ القدسِ منيةٌ قادرٍ      وما أن تلقاها سوى يوسفُ حزما (١)

وهكذا يمكن القول ، أن الشعر قام بدور كبير في استثارة المسلمين ، وشحن الهمم على القتال ، وتحريض الأبطال لتحرير " القدس " . فلم تكن المدائح والتهاني هدفها في حد ذاتها ، بقدر ما كانت ضرورية ، لبيت الحماس في النفوس ، وتشجيع الأبطال لخوض المعركة الفاصلة .

ورغم كثرة الأحداث وتواليها ، إلا أن قضية " القدس " ، كانت المحور الرئيسي ، الذي تلتقي حوله الميول والاتجاهات . فكان الشعراء ، بذلك ، ملتزمين بقضية أمتهم الكبرى .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .



## الفصل الثالث

صدى تحرير القدس في الشعر

بشائر وتهان بالتحريز

وصف القتال

صورة البطل

صورة الصليبيين

## بشائر وتهان بالتحريير

حاصر المسلمون " القدس " ، يوم الأحد في الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . وبعد محاولات عديدة (١) ، تمكنوا من فتح المدينة المقدسة ، يوم الجمعة في السابع والعشرين من الشهر نفسه . فخر " صلاح الدين " ساجدا لله ، شاكرا له على النعمة الكبرى بالتحريير (٢) .

(١) قال العماد الأصفهاني في وصف ما جرى أثناء الحصار : " كان في القدس من الفرنج ستون ألف مقاتل ، وحاول الفرنج أول الأمر المقاومة ، إلا أنهم لم يستطيعوا ، فطلبوا المفاوضة ، ورفض السلطان طلبهم ، إلا أن يستولي عليها بالقوة ، كما استولوا عليها قبل إحدى وتسعين عاما . لكن الصليبيين هددوا بتخريب الأماكن الإسلامية قبل تسليمها ، ثم يقتل كل الأسرى المسلمين ، مما جعل السلطان يعطيهم الأمان على أرواحهم ، بشرط أن يدفعوا عشرة دنانير عن الرجل ، وخمسة عن المرأة ، ودينارا عن الطفل " .

(٢) العماد الكاتب ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٤٧ .  
وفيما جرى بعد الفتح ، يذكر المؤرخون أن المسلمين لم يتعرضوا لأحد بمكروه ، ولم تتعرض دار للنهب ، بينما كان الفرنج يخوضون بالدماء عندما احتلوهما . ويستغرب المؤرخون ، كيف أن البطريق هرقل ، يؤدى عشرة دنانير ويغادر ، وقد انحنت قامته لثقل ما يحمله من الذهب ، بينما دفع باليان ثلاثين ألف دينار . وكذلك طلب الملك العادل أخو صلاح الدين ، إطلاق سراح ألف أسير مكافأة له عن خدماته ، بينما لم تدفع الكنيسة أو الداوية أو الأسبانية شيئا ، لأطلاق سبل الأسرى .

ومما يذكر أيضا ، أن صلاح الدين أطلق كل من كان شيخا أو طفلا أو امرأة ، حتى أن هرقل التمس من الناصر ، أن يهبه بعض الأرقاء ليطلقهم ، فوعبه سبعمائة أسير . انظر فيما جرى بعد الفتح :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ .

ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٠ .

العماد الكاتب ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٤٧ ، ٥٦ ، ٦١ .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

وانظر مقابل ذلك عندما استل الصليبيون بيت المقدس :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤٨ .

مؤلف مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ص ١١٨ - ١١٩ .

ان أول شعور عند الإنسان لدى سماعه خبر النصر ، هو الاستفراب الى درجة عدم التصديق . لكن هذا الشعور يكون مزوجا بالفرحة الكبرى لتحقيق الأمل الذي انتظره قرنا كاملا .

وقد عبّر الشعراء (١) عن هذه المشاعر بطرق مختلفة . قال جواني (٢) ،  
عبّر عن مشاعر الاستهجان بالنصر ، بهذه الطريقة الاستفهامية الجميلة :  
أثتري مناماً ما بعيني أبصرُ      القدس يُفكّمُ والفرحة تُكسر  
وهو تعبير حقيقي عن الانفعالات والأحاسيس التي شعر بها ، حال وصول أخبار النصر . وهي طريقة توفّر في النفس ، إذ تجعل السامع يحاول التعرف على دواعي الاستفراب عند الشاعر .

(١) لم يقتصر الأمر على الشعراء ، لكن الكتاب كان لهم دور كبير في البشائر والتمهاني أيضا . قال العماد في يوم الفتح : " فكتبت في ذلك اليوم سبعين كتابا بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة ، منها الكتاب الى الديوان العزيز ببغداد ، افتتحته بهذه الآية ( وعد الله الذين آمنوا منكم وهم لولا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، لئلا يكون لهم دينيم الذي ارتضى لهم وليد لنهم من بعد خوفهم أمنا ) الى أن قال : " وخرج البطارقة والقسيسون من مساحد الأئمة ، ومادت الكنائس مدارس وآيات التثليث بها دوارس ، ووجه الأيمان باشرة ، ووجه أهل الصليب عوابس . ومحت أيا من هذه الأيام تلك الليالي الدوامس ، وقد أقيمت الجمع والجماعات بونظف بل طهرت تلك الساحات " .

(٢) العماد الأتهماني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٥٦ .  
هو شرف الدين ، أبو علي محمد بن أسعد بن علي بن معمر الجواني ، ولد سنة ٥٢٥ هـ ، وكانت وفاته سنة ٥٨٥ هـ . ذكر صاحب الخريدة " أنه كان نقيب الأشراف بالديار المصرية في عهد الدولة الفاطمية " .  
وذكر المقرئ : " أن له كتابا باسم النقط يصجم ما أشكل من الخطط " .  
انظر أخباره في :

- العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج ١ ، ص ١١٧ .
- المقرئ ، الخطط ، ج ١ ، ص ٥٦ .
- الصفدي ، فوات الوفيات ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .
- ابن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٤٣ ، ج ٦ ، ص ١١٩ .

ومن عادة الشاعر أن يرى الرجس في كنيسة القيامة ، ولكن بعد الفتح ، يسرى الديار المقدسة وقد طهرت من كل الآثام :

وَقُصَامَةٌ نَمَّتْ مِنَ الرَّجْسِ الَّذِي  
بِزَوَالِهِ وَزَوَالِهِمَا يَتَطَهَّرُ (١)

كما أن الشاعر لم يعتد أن يرى الملوك مسأورين ، لكن ملوك الفرنج أسروا بعد الفتح (٢) ، وهذا مؤشرا إلى العزيمة الكبرى التي لحقت جيوشهم ، ومليكهم في القيد مصفوداً ولم يُرَقِبْ ذاك لهم مليكٌ يؤسر (٣)

بهذه الطريقة الاستفهامية الجميلة ، عبّر الشاعر عن مشاعره تجاه النصر ، وهي مشاعر طبيعية ، تخلو من التصنع والزيف ، فقد يمرر الإنسان بها في مثل هذه الحالة . لكن الشاعر لم يعبر عنها بطريقة عادية ، بل بطريقة الفنان المبدع ، الذي يملك وسائل التأثير ، والقدرة على التعبير الفني الجميل . وإذا كان " الحواني " متدججا لأخبار النصر ، فإن " ابن الساعاتي " متحقق من الخبر ، لذا يعمم البشارة إلى الآفاق ، ويطلب من الكتاب والشعراء أن يشيعوا الخبر ، لأنه ليس بمالك مناسبة أجل من هذه المناسبة ، حتى يدخر الأدباء شعرهم ونثرهم :

أعياناً وقد عاينتُمُ الآيةَ العظمى  
وقد ساغفتُمُ القدسَ في كلِّ مذاقٍ  
لآيةٍ حال تدخر النثر والنظما  
وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما  
ويبين الشاعر عن صدى هذا النصر ، فقد أفرح الأمة كلها ، ولكنه غمّ بسال الأعداء :

تحلُّ به الأضدادُ واللغظُ واحدٌ  
فكم سر قلباً غي الأنامِ وكم غمّاً (٤)

- (١) تمامة : أطلق المؤرخون هذا الاسم على كنيسة القيامة ، لأنها كانت موضعاً للقمامة من قبل اليهود ، ثم صار المسلمون يطلقون هذه التسمية للاستهزاء والتحقير من الصليبيين . انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٧ ، ص ٥٦ .
- (٢) من الملوك الذين أسروا : جفري ، والبرنس ملك الكرك . انظر : العماد الاصفهاني ، النجم القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٢ . ابن واصل ، شرح الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .
- (٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .
- (٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ . ديوان ابن الساعاتي ، تحقيق : أنيس المقدسي ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ . ابن واصل ، شرح الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ . أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

ان تعابير الشاعر تحقّق وقسا في النفس ، ينسجم مع نشوة المسلمين بالفتح ، فالفتح آية عظيمة ، وخبر النصر شاع الى أن أسمع الأسفل الصما ، وقد سرر قلوبا وغم أخرى " ٠٠٠ الى غير ذلك من تعابير تدل على فرح حسنة المسلمين الكبرى بالنصر .

ونحس بالنشوة الكبرى ، عندما عبّر " الرشيد بن بدر النابلسي " عن ترقّب الأمة وانتظارها الافتح بقوله :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر  
فليوف لله أقوام بما نذروا

ان فتحها ينتظر هذا الانتظار ، حدير بأن يوفي المسلمون نذورهم التي قطعوها على أنفسهم .

ولمس وقع هذا الفتح على الأمة ، حين يصفه الشاعر بأنه أعظم الفتح ، ولم يسجل التاريخ فتحاً يضاهيه بأهميته :

بمثل ذاك الفتح لا والله ما حكيت  
وقد تحقّق بهذا النصر هلاك المشركين ، كما قرّرت به عيون المسلمين ، بعد أن كان المسلمون لا يعرفون طعماً للنهم :

حين به جان هلك المشركين فيا  
للطيب العشايا منه والبكسر  
الآن قرّرت جنوباً في مضاجعها  
ونام من لم يزل حليفاً له السكر (١)

وهكذا عمد الشاعر الى جمل ضخمة ، تحقّق غرض تعظيم الانتصار ، والتعبير عن بهجة المسلمين ، وتصوير وقسه على النفوس .

وقد وصلت نشوة الشعراء بالنصر وكثرة الفتوحات التي تحققت على يدي الناصر ، الى مرحلة لا يستطيع " ابن سناء الملك " معرفة الفتح الأولى بتهنئة الناصر :

لست أدري بأي فتح تهنّسى  
يا منيلاً الإسلام ما قد تمنّى  
لكن تساؤل الشاعر كان بفرض ابراز عظمة فتح " القدس " ، لذا يصود فيقرر أن هذا الفتح أولى من غيره ، مع أهمية الفتوحات كلها :

كل فتح يقول انسى أولسى  
وهو أولى لأنه كان أمنا

وتعود ذاكرة الشاعر الى أن يتصور رقعة الحظيرة الإسلامية في عهد الناصر ، حيث اتسعت حتى صار القائد مسيطراً على البلاد من الشام الى عدن :

أُننّيك اذ تملكّت شاماً  
ويعتبر الشاعر الديار الإسلامية المترامية الأطراف ، جنانا استطاع الناصر امتلاك قصورها ، حيث فتحت كل الحصون في " الشام " :

قد ملكت الحدان قصراً فقصر  
اذ فتحت الشام حصناً فحصناً (٢)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٨١٣ .

ابن واصل ، مشرّح الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

ويعتبر " ابن جبير الأندلسي " (١) هذه الانتصارات بشاعراً أطلقت  
على " صلاح الدين " :

أطلت على أفقك الزاهر سعوداً من الفلك الدائر

ان سعود (٢) "الناصر" تبشّره سلفاً بتحقيق النصر، وما هي  
تبشّره بالقضاء النهائي على الأعداء :

فابشّر فإن رقاب اليمدا تمدُّ الى سيفك البائر (٣)

ان هذه المشاعر، تدل على الأطمئنان والسعادة اللتين تفسران  
نفوس المسلمين بعد النصر .

ويهنئ " العطاء " " صلاح الدين " بالنصر، ويبيّره باعتباره أمير  
المؤمنين :

أبشّر بفتح أمير المؤمنين أتى وصيته في جميع الأرجح جواب

وحتى يعدنم الشاعر من الفتح ، ذكر أن أخباره وصلت الى كل مكان،  
وبخاصة أن الأبطال السابقين لم يتمكّنوا من تحقيقه رغم حرصهم على ذلك :

• ما كان يخطر في بال تصوّره واستصحب الفتح لما أغلق الباب (٤)

بالإضافة الى ابتهاج المسلمين بالنصر، فقد عبّر " ابن سناء الملك " عن  
انتصار الدين وأحيائه، لأن ذلك اعتاقاً للدين بعد أن كان عبثاً . وسنا  
يكون "الناصر" قد منّ على الدين، بعد أن منّ الإسلام على جميع الخلق؛

ان دين الإسلام منّ على الخلق وأنت الذي على الدين منّا

أنت أحييته وقد كسان ميتنا ثم أعتقته وقد كان غنّا

وطالما أن الانتصار للدين، فإن التهنئة " لصلاح الدين " لا تقتصر  
على بلاد " الشام "، بل تشمل كل الأقطار والأمصار الإسلامية :

لا تخصّ الشام فيك التهانئ كل صقع وكل قطر مهنئ (٥)

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الكثاني الأندلسي . ولد في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ، وكان من الرحالة الأدباء، حيث ألف كتابه رحلة ابن جبير،

وتوفي في الإسكندرية سنة ٦١٤ هـ . انظر: مقدمة رحلة ابن جبير .  
شذرات الذهب، ج ٥، ص ٦٠ . الأعلام، ج ٦، ص ٢١٤ .

(٢) نلاحظ اهتمام الشعراء بذكر سعود الأبطال .

(٣) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ٢، ص ١٠٥ .

(٤) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٢ .

(٥) ديوان ابن سناء الملك، ج ٢، ص ٨١٤ .

ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٢٣٥ .

فقد عبّر الشاعر عن وحدة الديار الإسلامية واتفق مشاعر المسلمين ،  
مع تفرّغهم في مواعع السكن .

وهكذا نلمس ارتباط جمل الشاعر بخيط منطقي واضح في معانيها ،  
لكنها لم تكن بطريقة علماء المنطق ، ولكن بطريقة الشعراء الفنية التي تؤثر في  
النفوس ، وتمسّ العاطفة ، لأنها ليست صادرة عن العقل فقط ، بل عن  
الأحاسيس والمشاعر أيضا .

ويفخر " العماد الأصفحاني " بأحياء الدين ، وزوال الشرك بفتح "القدس" :

أحيا الهنّدى وأمات الشرك صارمه      لقد تجلّى الهمدى والشرك مُجّاب

بفتح القدس للأسلام قد فُتحت      في تمع طاغية الأشرار أبواب (١)

لم يكن الإسلام مقاما على أتمّه مع وجود الشرك والظغيان ، ولكن

بفتح "القدس" وطرد المشركين ، فقد فتحت أبواب الإسلام وأقيم الدين .

ويعتبر " الشاغوري " الفتح هديّة من " الناصر " إلى الإسلام ،

وذلك لأعزازه الدين بدل شعائر الكفر والظغيان ، بعد انقاز "القدس" من الآمنين :

أهدى صلاح الدين للأسلام ان      أردى قبيل الكفر ما لم يكفر

واستنقذ البيت المقدس عنوة      من كل ذي نجس بكل مطهر

ومن يقوم بانقاز الدين وتطهير المقدسات ، يستحق الحياة العنيفة :

فليهنه الفتح الذي شدّت به      عن ملكه أبواب غدر الأدهمسر

وظالما تحققت كل هذه الانجازات الدينية بالفتح ، فإن كل الفتوحات

السابقة تطأطأت أمامه ، فهذا الفتح شمس ، ومن الطبيعي أن تكشف الشمس

كل الأجسام الأخرى أمامها :

فتح تطأطأ كل فتح دونه      والشمس تكشف كل جسم نير (٢)

ونشعر ببهجة "القدس" والأماكن المقدسة في أبيات الرشيد بن بدر

النبلسي ، وذلك لارتفاع علم الإسلام ، بعد أن كان مطويًا بوجود الكفر :

يا بهجة القدس ان أضحى به علم      الإسلام من بعد طي وهو منتشر

وقد نور المسجد الأقصى بزوال الصليبان وتعليق الآيات والسور :

يا نور مسجد الأقصى وقد رفعت      بعد الصليب به الآيات والسور

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤٠-١٤٢ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٩ .

ويقارن الشاعر بين الناقوس الذي لا يصدق ، وبين الأذان الذي  
تخشع له القلوب ، وتكاد تنفطر له الأرض :

شَتَانٌ ما بين ناقوس يَدان به      وبين ذى منطِقٍ يُصفي له الحَجْرُ  
اللهُ أكبرُ تشعَّرَ له      شمُّ الذرى وتكادُ الأَرْضُ تنفطرُ (١)

على النحو السابق ، عبّر الشعراء عن عودة العزة والمهابة إلى  
"القدس" والأقصى ، بتطبيق شعائر الإسلام . فابتهاج "القدس" ، ليس  
لانتصار حاكم على حاكم ، ولا لهزيمة شعب وحلول شعب آخر ، ولكن لعلو  
العلم الإسلامي وانتصار مبادئ الدين الحنيف .

ومن طرق الشعراء في التعبير عن الفرحة الكبرى ، أن جعلوا المدن  
الاسلامية تسرب عودة "القدس" إلى رحاب الوحدة التي تضمها . "فابن الساعاتي" ،  
يربط بين طرب "مكة المكرمة" و"المدينة المنورة" ، وبين طرب "بيت المقدس" :

هو منقذُ البيتِ المقدسِ بمد ما      طالتُ فما وَحد الشِّفاءُ شِكَاتَهُ  
أحسنَتُ بالبيتِ العتيقِ ويثرب      ولكِ الفعالُ كثيرةٌ حسناتُهُ (٢)

ويعبّر الشاعر في قصيدة ثانية ، عن ابتهاج ضريح المصطفى (عليه السلام) ،  
لابتهاج "مكة" و"المدينة" و"القدس" :

حسباً مكة الحُسنَى وثنى بيثرب      وأطربَ ذِيَّكَ الضريحَ وما ضُمَّا  
وأصبحَ ذاكُ الثفرُ جذلانَ باسمًا      وألسنةُ الأغمارِ توسعه لثما (٣)

انه تعبير حقيقي عن الشعور بالوحدة الإسلامية بين كل الديار في  
الرقعة الإسلامية . فالابتهاج يغمر أخوات "القدس" من المدن التي ارتبطت  
معها في العقيدة الإسلامية . ولا عجب في هذه الغبطة ، إذ أن ارتباط الرسول  
(صلى الله عليه وسلم) ب"مكة والمدينة والقدس" كبير ، فالهجرة من "مكة" إلى "المدينة" ،  
والأسراء من "مكة" إلى "القدس" ، حيث كان المعراج من "بيت المقدس" إلى  
السموات العلى . وليس عجباً أيضاً ، أن يطرب ضريح المصطفى (عليه السلام) ،  
لابتسام ثغر "القدس" ، الذي توسعه السيوف لثما .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .



ويربط الشعراء بين فتح " القدس " والفتوحات الإسلامية السابقة .  
 " فالعماد الأصفهاني " ، يربط بين هذا الفتح وبين فتح " مكة " في عهد الرسول  
 ( صلى الله عليه وسلم ) ، وهناك أمور كثيرة تذكر بالعلاقة بين المدينتين ،  
 فالأقصى ، يحتل المكانة الثالثة بعد البيت الحرام في " مكة " والمسجد النبوي  
 في " المدينة " . والصخرة المشرفة بقدرتيهما ، تأتي بعد الحجر الأسود في  
 الكعبة المشرفة . يضاف الى ذلك ، أن ما تم في فتح " القدس " من ازالة للصلبان ،  
 شبيه بما تم في " مكة " من ازالة للأنصاب والأزلام . كل هذه الأعتبارات ، تجعل  
 الشاعر يربط بين الفتحين ، ويعبر عن ابتهاج البلدين :

ففي موافقة البيت المقدس للـ بيت الحرام لنا تيه وأعجاب  
 والصخرة والحجر المثلوم جانبه كلاً لما لا عتار الخلق محراب  
 نفى من القدس صلباناً كما نُفيت من بيت مكة أزلام وأنصاب (١)

ويتذكر ابن الساعاتي " الفتح الذي تم في عهد " عمر بن الخطاب " فيقول :  
 هو الفاتح البيت المقدس بعدما تحامته سادات الدنا ومسودها  
 فضيلة فتح كان ثاني خليفة من القوم مُبديها وأنت مُعيدها (٢)  
 من الطبيعي أن يعود الشاعر الى الماضي ، وبخاصة أن هناك تشابهاً  
 كبيراً بين الفتحين . فالانتصار للأسلام ، والقادة مسلمون ، وشعار المهزومين  
 في الحالتين هو الصليب . ويربط " الجلياني " بين هذا الفتح ، وفتح " القادسية " في عهد " عمر " :

أما رأيتم فتوح القادسية في أكناف لوبيئة تجلئ وذا عمر  
 والحق يعرُس والطغيان منتحب والكفر يطمس والإيمان مُردهر (٣)

لم يكتب الشاعر بالربط بين الفتحين ، وإنما نوه بانتصار الحق دائماً  
 في النهاية ، مما طغى الظلم وتحبب المتغصبون . وهذه الدائرة تدل على  
 الأيمان العميق بالنصر ، مما يحول التفاضل عند المسلم ، الى شحنات قويّة  
 تدفعه على مواصلة الجهاد ، حتى اخراج الغزاة من الديار ، ورفع راية الإسلام .  
 وهكذا اعتبر النصر متمماً للفتوحات الإسلامية السابقة ، لاتفاق المبادئ  
 والأهداف والشعارات في هذه الفتوحات .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

واستكمالا لتعبير الشعراء عن بهجة الأمة بالتحريم ، فقد ردَّ والنصر  
الى الله ، والى وعد الرسول للمؤمنين بالفتح ، فمن واجب المسلمين الاستغفار  
والتسبيح لله على النعمة الكبرى ، وفي هذا المعنى قول " الجواني " :

قد جاء نصرُ الله والفتحُ الذي وعد الرسولُ فسبحوا واستغفروا  
فُتِحَ الشَّامُ وطُهرَ القُدسُ الذي هو في القيامةِ للأَمامِ الحشر (١)  
فأخبار النصر تطمئن المؤمنين ، حيث طهرت البقعة التي ستكون  
موقعا للحشر يوم القيامة .

وهكذا ، فإن المدينة المقدسة ليست كغيرها من المدن ، مجرد أرض  
يسكن عليها ، ولها ارتباطات نفسية في حياة الإنسان ، لكنها ترتبط بمشاعر المسلم  
الروحية ، وبعقيدته التي يسير على منهاجها في الحياة . هذه العلاقة الوثيقة  
بين الأرض المقدسة وبين العقيدة ، هي سر هذا التعلق الكبير من المسلمين  
" بالقدس " .

ونلمح قدرة الشاعر ، في اختيار التعابير الدالة على هذه المعاني  
الدينية ، حين ضمَّن البيت الأول بالآيات القرآنية : ( اذا جاء نصرُ الله والفتحُ .  
ورأيت الناسَ يدخلون في دين الله أفواجا . فسبِّحْ بعِمدِ رِكةٍ واستغفِرْ لِنفسِكَ  
كان توأما ) (٢) . (٣)  
ويضمَّن " الجواني " أبياته هذه المعاني الدينية في قوله :

جندُ السماءِ لهذا الملكِ أعوانُ من شكَّ فيهم فمِذا الفتحُ برهان  
فالملائكة يساعدون المجاهدين في حربهم ، وهذا الفتح العظيم برهان على ذلك .  
ويدلُّ الشاعر على نظرتة الى هذا الفتح ، بأن الناس لم يشهدوا  
فتحا شبيها بفتح " القدس " من عصر الأنبياء ، فهو شبيه بالتالي ، بالفتوحات التي  
تصَّت في عهد الأنبياء :

ملى رأى الناس ما نحكيه في زمن وقد مضت قبل أزمان وأزمان  
هذا الفتح فتوح الأنبياء وما له سوى الشكر بالأفعال أثمان

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
- (٢) سورة النصر ، ١-٣ .
- (٣) هو أبو علي ، الحسن بن علي بن ابراهيم ، الملقب بفخر الكتاب ، الجويني  
الأصل ، والنسبة الى جوين ، ناحية من نواحي نيسابور ، كان من ندما  
أتاك زكي ، واتصل بابنه نور الدين محمود ، وسافر الى مصر في أيام  
ابن رزيق ، وتوطن بها ، وكانت وفاته سنة ٥٨٤ هـ ، وقيل سنة ٥٨٦ هـ .  
انظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٣٩٨ .

ونلمس بهجة الأمة كلها بالنصر، حين يصف الناس "الناصر" بـ "داود" أو "سليمان"، لأن الله هو الذي نصره، ولو تم الفتح في عهد الرسول (عليه السلام)، لأنزل الله فيه الآيات والسور:

حباه ذو العرشِ بالنصرِ العزيزِ فقا ل الناسِ داودُ هذا أم سليمان  
لسوأن ذا الفتحِ في عصرِ النبيِّ لقد تنزلت فيه آياتٌ وقرآن (١)

على النحو السابق، عبّر الشعراء عن الفرحة الكبرى بتحرير "القدس" فوصفوا صدى النصر في النفوس، بما يتلاءم مع طبيعة المشاعر ومنحنياتهما لدى سماع أخبار الفتح.

وأوضحت الأشعار طبيعة الفتح الإسلامي، وقوة الارتباط بين الأمة وبينها الحنيف. فالنصر من الله يؤتاه المجاهدون بقوتهم، والديار الإسلامية مرتبطة ببعضها برباط العقيدة الوثيق، وهذا الفتح شبيه بفتوح الأنبياء والمجاهدين، إلى غير ذلك من ممان، تدل على أن الشعراء بعدد من الأبعاد المتصدية للفرحة الصليبية.

وقد ينظر بعض المحدثين إلى تشبيه الفتح بفتوح الأنبياء، وتشبيه المجاهدين بجنود الله، وغيرها من تشبيهات، على أن ذلك تجاوزاً عن المألوف، وأنه من المبالغات التي لا جدوى لها، ولكن قد تتغير النظرة، إذا أدرك الإنسان مقدار ما عانته الأمة في جهادها طوال قرن كامل حتى تحقق النصر. كما أن مهمة الشاعر تتجاوز حدود الوصف الحقيقي للمشاعر والأحاسيس، وإيراد التعابير التي تساوى المشاعر تماماً، لأن مثل هذه الطريقة لا تضيء حملاً فنياً على التعابير، وبالتالي لا تؤثر في النفس. لكن تضخيم المشاعر والمبالغة فيها، يجعل للشعر قيمة فنية، ويضع الشعر في الدائرة الوثائقية، التي من أجلها يعبر الإنسان بالشعر.

يضاف إلى كل ذلك، أن الربط بين هذا الفتح "والناصر"، وبين الفتوحات الإسلامية السابقة والمجاهدين الأوائل، أمر ضروري لوصول حاضري الأمة بتاريخها المجيد. كما أنه تأكيد على أن ما يؤديه المسلمون من واجب ديني، ليس منفصلاً عن الأهداف التي عمل من أجلها المسلمون السابقون. فإذا أدرك الإنسان كل هذه الاعتبارات، تصور حينها قيمة هذه الأوصاف وتلك النعوت.

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ٢، ص ١٠٤.



## وصف القتال

نظم الشعراء تصائد طوال ، وصفوا فيها موقعة " حطين " ، والقتال الذي جرى حتى حررت " القدس " .  
ففي " حطين " ، يصف العماد الأصفهاني " استعداد المجاهدين ، وأدوات القتال التي استعملوها ، من رماح وسيوف وخيول ، ثم ينعتهم بالأسود لتمكنهم من القضاء على الأعداء :

سحبت على الأردن رداً من القنا  
حططت على حطين قدر ملوكهم  
ونعم مجال الخيل حطين لم تكسن  
غداة أسود الحرب معتقلوا القنا  
رد ينيّة ملداً وخطيّة ملسا  
ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا  
معاركها للجرد ضرساً ولا داسا  
أساود تبغي من نحور العدا نيسا

وبعد هذا الوصف للجيش الإسلامي ، ينتقل الى جيش الأعداء ، وكيف أنهم قدموا مستعدين للقتال ، وكانوا يتسمون بالخشونة والصلابة :

أتوا شكس الأخلاق خشنا فليعت  
حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا

لكن " العماد " لا يطيل في وصف جيش الصليبيين قبل المعركة ، بل ينتقل مسرعا الى وصف ما جرى لهم من قبل سهام المجاهدين وسيوفهم :

كسرتهم اذ صم عزمك فيهم  
ونكستهم اذ صار سهمهم نكسا  
ثم يصف شدة المعركة وقساوة وقعها على الأعداء ، حتى رجست الأرض واهتزت الجبال بجيشهم :

بواقعة رجست بها الأرض جيشهم  
دما را كما بستت جبالهم بسا  
وبعد هذا الوصف لشدة القتال واحتمامه ، ينتقل الى قتلى الصليبيين ، فهم لكثرتهم ، امتنعت الأرض عن قبول تلك الجثث ، فكانوا من نصيب الذئاب :  
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم  
ولم ترض أرض أن تكون لهم رسا (١)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

ثم انتقل الى وصف أسراهم من الملوك ، الذين لم يحط قدرهم الا بعد تلك المعركة . وهم ليسوا عددًا محددًا ، بل ان بلاد الله مملوءة بهم . ومعنى ذلك أن ثمنهم سيكون بخسًا ، وذلك أمر طبيعي عندما يزيد العرض عن الطلب :

تُقادُ بدأماً الدماءِ ملوككم  
أسارى كسفن اليم نطت بها القلسا  
سبايا بلاد الله مملوءة بها  
وقد شريت بخساً وقد عرضت نخسا  
يظاف بها الأسواق لا راغب لها  
لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا (١)

والشاعر في وصفه ما جرى للأسرى ، يتفق مع ما رواه المؤرخون في هذا الشأن ، حيث بيع الأسرى بأثمان باخسة (٢) . وهذا مؤشر الى الهوان الذي لحق بهم . وهكذا يكون الشاعر قد وصف قوة المجاهدين واستعداداتهم ، ثم وصف الأعداء في مراحل ثلاث : الأولى عندما قدموا لساحة القتال ، وما اتصفوا به من خشونة وصلابة . والثانية ، في ساحة القتال وما لحقهم من قتل . والثالثة ، ما حل بمن نجا منهم من الأسر والذل .

ويبدو واضحاً أن اهتمام الشاعر في وصف المعركة ، كان منصباً على الجوانب التي يستطيع التفاخر بها ، واعتمد في ذلك على استحضار أمثلة مما حصل حتى تكون الصورة أوضح وأقرب الى التصديق .

لكن الشاعر لم يتناول جوانب تتعلق بطبيعة الأرض التي جرت عليها المعركة ، وكيفية تدليم الجيشين ، وبداية القتال ، وغير ذلك ، من التحديدات المكانية والزمانية ، التي تزيد من أهمية القصيدة . وقال " العماد الأصفهاني " من قصيدة ثانية في " حطين " ، يصف الجنود المتحاربين ، حيث الوجوه العابسة ، ويصف أجواء المعركة القاتمة ، حتى أن الغبار قد حجز أشعة الشمس فيقول :

يما يوم حطين والأبطال عابسة  
وبالمفاححة وحده الشمس قد عبا  
ثم يصف وصفاً دقيقاً ما حل " بالبرنس " صاحب " الكرك " ، ويرسم له صورة كاريكاتيرية مزرية فيقول :

رأيت فيه عنليم الكفر محتقرا  
يا طبر سيف برى رأس البرنس فقد  
مغفرا خده والأنف قد تعسا  
وفاصر إذ طار ذلك الرأس في دمه  
أصاب أعظم من بالشرك قد نحسا  
ما زال يعطس مزكوماً بغدرته  
كأنه نمدع في الماء قد عطسا  
والقتل تشميت من بالفدر قد عطسا (٣)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢) مما يذكر أن أحدهم بيع بنعل ، مما يشير الى هوانهم . انظر :

العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٨-٢٩ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

فانظر الى الشاعر حين وصف ما لحق " بالبرنس " من ذل وخنوع بمد  
 أن وضع بين يدي " الناصر " مأسورا ، ثم وصف عملية قتله بعد أن رفض الإسلام ،  
 فـأظهر " الناصر " سيفه وسقاه من رأس " البرنس " ، ويتابع الشاعر سخريته ، حينما  
 وصف رأس المقتول الذي غاص في الدماء ، بضدع قد غطس في الماء . وعبر  
 الشاعر عن تلازم صفة الخدر " بالبرنس " ، بأن جعله مزمكوما بالغدر ، ولا يعطس  
 الا هذه الخصلة ، ومن هنا فإنه يستحق التسميت ، فكان تسميته القتل جزاء له  
 على غدرة .

يبدو واضحا أن الشاعر مشغول بنتائج المعركة أكثر من وقائع القتال .  
 فالقصة التي وصفها هذا الوصف الساخر ، حصلت بعد أن أمر " صلاح الدين "  
 بأحضار الأسرى ، وصار يمرض عليهم الإسلام . (١)  
 ولعل الفرحة التي تغمر قلب الشاعر جعلته يستعجل الوصف أول الأمر ،  
 ثم يقف طويلا عند قصة " البرنس " المضحكة ، والتي تنم عن شماعة الشاعر بالأعداء .  
 ومن قصيدة " الشاغوري " التي تتجاوز المئة بيتا ، يتحدث عن بدايات  
 القتال ، وكيف أن الجيش الإسلامي كان المهاجم ، فأحدث اضطرابا وهياجا  
 في صفوف الأعداء :

جاشت جيوشُ الشركِ يومَ لقيتَهُم      يتدامرون على متونِ الضمر  
 ويتحدث عن كثرة الصليبيين ، حيث شبههم بالبحر ، ثم عن أسلحتهم  
 واستعداداتهم فيقول :  
 وكأنهم بحرٌ تدافعُ موجُّه      يثلبي وزحفٍ محكمٍ وسنور  
 وبعد ابتداء القتال ، يصف كثرة الطعن والضرب ، وما ألحقه المجاهدون  
 بأعدائهم :

أوردتُ أطرافَ السرماحِ صدورهم      فولقنُ في علقِ النجيجِ الأحمر  
 ويصف جو المعركة وتعذر الرؤية ، الا مشاهدة الأبطال المهاجمين ،  
 والقفاريت المدبرين بخيلهم ، وكانت تلك الخيول تتعثر بالرماح المتكسرة ، وفي  
 تلك الأجواء ، يلح المشاهد السيوف والرمح المخضبة بالدماء من كثرة قتلى الأعداء :  
 فعمناك لم يُرَ غيرُ نجمٍ مقبل      في اشرِ عفرتِ رحيمٍ مدبر  
 ولّوا وعقبانُ المنونِ مسفّةً      والخيلُ تعثرُ بالثنا المتكسّر  
 لا ينظرون سوى حسامٍ مشر      ومن الدماء كأنه لم يشهر

(١) انظر القصة في : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٢٦ .

ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٢٦ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٧٨ .

وهكذا بقي المسلمون يوقصون بهم القتل ، حتى كان مصيرهم واحدا من اثنين : القتل أو الأسر . فالذين قتلوا ، صاروا نهبا للوحوش والنسور ، وأما الذين أسروا فذاقوا من الذل والهوان ، حتى بيعت عقائلهم بثمن بخس (١) :

فَمَنْ الذِي مِنْ جَيْشِهِمْ لَمْ يُخْرَمِ      قَبْلًا وَمَنْ مِنْ جَمْعِهِمْ لَمْ يُؤَسَّرِ  
حَتَّى لَقِدَ بَيْعَتْ عَقَائِلُ أَرْهَقَتْ      بِالسَّبْيِ بِالثَّمَنِ الْأَخْسَّ الْأَحْقَرِ (٢)

ويفصل القول بالنسبة الى المأسورين ، فلم يكونوا من فئة اجتماعية واحدة ، بل ينتمي بعضهم الى أسر راقية . كما كان من الأسرى فتيات يوصفن بالشموس والغزلان لجمالهن . ومهما كان وضع المأسورين ، فإنه لم يكن أفضل من وضع المقتولين :

مِنْ كَلِّ حُورِيٍّ نَمِيْلٍ مُوشِجٍ      كَالنَّخْمِ مِيَادِيهِ ثَقِيلٍ مُؤَزَّرِ  
وَأَوَانِسٍ مِثْلُ الشَّمْسِ سَوَافِرِ      مِنْ كَاعِبٍ مِثْلِ الْغَزَالِ وَمَعْمَرِ  
وكانت الخيول تمشي على رؤوس القتلى المشتمة . ويميز الشاعر جنسية القتلى من خلال شقعرهم الأشقر ، ولوجود كثيرين من جماعة الداوية :

فَالخَيْلُ لَا تَمْشِي إِلَّا عَلَى      هَامٍ مَنْضُدَةٍ وَشَعْرٍ أَشْقَرِ  
كَمْ أَوْدَعَتْ دَوِيَّةَ دَاوِيَّةِ      صَرَعُوا بِهَا فِي الْمَعْرِكِ الْمَسْتَوِعِ (٣)

فالشاعر مهتم بتفصيل أحداث المعركة من بدايتها حتى نهايتها ، فتحدث عن عمليات الهجوم من المسلمين والأدبار من المشركين ، كما ذكر السيف والرمح والخيول التي استعملت في القتال ، وتحدث عن نتائج المعركة وحالة الصليبيين بعد الموقعة . . . وغير ذلك من أجواء القتال . واهتم أن يعرض كل ذلك بصورة بيانية كثيرة ، فالجيش الصليبي مج لكثرة عدده ، والأبطال المسلمون نجوم مقبلون ، والمشركون غفاريات مدبرون ، وغير ذلك من النواحي الفنية التي توضح قصد الشاعر .

كما اختار ألفاظا وتماثيل تتلاءم مع قوة المعركة وضراوتها ، كتوله :  
" حسام مشهر ، القنا المتكسر ، المعرك المستوعر ، وغيرهما من الحمل الضخمة " .  
ومن اطلعنا على القصيدة كلها ، نحس أن الشاعر تناول جوانب كثيرة ، مما نتوقع أن يتناوله الشعراء في قصائدهم التي تصف المعارك ، مما يضيف على قصيدته قيمة كبيرة .

(١) ابن زلنري ذلك : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٢ .

(٢) ديوان فتیان الشانوری ، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٣) الديوان السابق ، ص ١٤٤-١٤٥ .

وفي قصيدة ثانية طويلة " للشاغوري " ، يصف الجيش الإسلامي ،  
واستعداده للقتال ، ويشير الى الرايات الصفراء التي كانوا يحملونها ، ثم  
تعود مخضبة بالدماء :

وايرادك الرايات صفرا صواديا واصدارها ريبا تمجُّ دما حمرًا  
وندرك خبرة الجيش في الحروب ، حيث كانوا يهيئون الخيول للحرب ،  
فيخوضون المعركة وخيولهم ضوامر ، حتى تصبر على شدة القتال ، وتبقى محافظة  
على خفتها ورشاقتها :

فخيلك تنفسي الروع شعنا ضوامرا شواذب قد عودتها الفتح والنصرا  
وبين عن نظرة المجاهدين الى الحرب ، وكيف أن ساحة الوغى مجرد  
روغى . بالنسبة اليهم ، كما أن أدوات القتال أزهار يستطيعون رحيقها ، مما  
يشير الى خبرتهم وحبهم للجهاد :

تري الحرب روضا والدروع بيا أضيَّ وسمر القنا دوحا وخرصانها زعرا  
والجيش الإسلامي يستطيع خوض الحرب في الصيف والشتاء ، لأنه  
متصف بالصبر والقوة ، وهما صفتان ضرورتان للجيش الذي يخوض حربا  
طويلة مع المحتلين :

فجيشك ما يُثنيه قيد عن العدى ولا خاف من صن ولا هاب صنبرا  
صبور كأن الصبر أرى يشوره اذا ما رأته أعداؤك الصبر الصبرا  
وبعد ذلك ، يذكر فتح " القدس " ، وكيف أن الأعداء لم يسلموها  
الا بعد أن عانوا من قوة المسلمين وشدة الحرب (١) .

وما أنكحونا طائعين فتاتهم ولكن نكحناها بأسيا فثنا قسرا (٢)

ومع اهتمام الشاعر بوصف الجيش الإسلامي واستعداداته ، إلا أن  
هذا الاهتمام ، حجبته عن ذكر تفاصيل تتعلق بالمعركة نفسها ، حتى تتميز  
عن المواقع الأخرى .

(١) مما يذكر ، أن قول الشاعر يتفق مع ما ورد من أخبار حول عملية  
تسليم القدس . انظر:

(٢) العماد الأصفياني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٤٧ .  
ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٥١-١٥٢ .



ويصف "ابن سناء الملك" استعداد الصليبيين للقتال ، والكيد الذي كانوا يظرونه للإيقاع بالمسلمين فيقول :

حملوا كالجبال عظاماً ولكن جعلتها حملات خيك عينا  
جمعوا كيدهم وجاءوك أركبا نأ فمن قد فارساً فقد هدركنا

بعد هذا الوصف لاستعدادات الصليبيين التي ضيت بالفشل ، قد يتصور القارئ أن الأعداء كانوا المبتدئين في الهجوم ، لكن الشاعر يبصده هذا الوهم حين يقول :

لم تلاق الجيوش منهم ولكن ك لا تتيهم بلاداً ومدناً  
فندرك أن المجاهدين كانوا المهاجمين ، وهذا أمر طبيعي تقوم به الأمة الواعية على الخطر المحدق بها ، فتبادر إلى الهجوم طالما أن ديارها محتلة .  
واستكملاً لوصف استعدادات الصليبيين ، يذكر الشاعر أن المجاهدين هاجموا كل هذه الأعداد المدججة بالسلاح :

كل من يجعل الحديد له شو باً وتاحاً وطيلساناً وردنا  
ومع بداية القتال ، لم تفد الصليبيين كثرتهم واعتزازهم بعددهم .  
فخانهم سلاحهم ، كما ولت خيولهم ، وذلك لضراوة القتال :

يدعون الغنى من الناس لكن أنت بالنصر كنت أغنى وأغنى  
خانهم ذلك السلاح فلا الروم يفرح ثنى ولا المهند طننا  
وتولت تلك الخيول فكم يثنى غنى عليها بأنها ليس ثنى

كما أن أصوات التفاخر بكثرتهم وشجاعتهم التي كانت تسمع قبل القتال ، انقلبت إلى صمت تام ، بعد أن أحسوا ضعفهم ، وخارت قواهم أمام المجاهدين :

واستحالت شقاشق الكفر صمناً حين عادت تلك الشجاعة جناً (١)  
ويصف الشاعر بطولات المجاهدين ، حتى اضطر الشجاع من الصليبيين اللجوء إلى الحرب ، فلما أن ذلك درعا واقياً من الموت . لكن المجاهدين كانوا قد نصبوا لهم حلقة صيد ، لا يستطيع الليث القوى النجاة منها :

أشجع القوم فيهم رجاعل الدر عسروياً والفرار مجتاً  
لم يطيقوا العروب ضعفاً وعجزاً هل يطيقوا العروب عقرى وزماً  
وتصيدتهم بحلقة صيد تجمع الليث والغزال الأغناً

(١) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٨١٥ .

ونعلم كثرة قتلى الصليبيين الذين تحدث عنهم المؤرخون (١) ، من خلال وصف الشاعر ، إذ يجعل البحر يجرى من كثرة الدماء ، وصار الأعداء وليمه يطرب لها السيف :

وجرت منهم الدماءُ بحاراً  
فجرت فوقها الخزائرُ سفناً  
صنعت منهم وليمه وحشراً  
رقت المشرقي فيها وغنى

وبعد هذا التفاخر بشجاعة المسلمين ، والشماتة بما لحق المشركين ، ينتقل إلى الأسرى ، ويشير إلى كثرتهم ، حتى كان من بينهم ملوك كانوا يفخرون بملكهم ، ويعتقدون أنه لا يفنى :

وحوى الأسر كل ملك يظن الد  
هر يفنى وملكه ليس يفنى

ويبدو أن قصة " البرنس " المشهورة مجال كبير لفخر الشاعر ، فيصف أسره وترنحه ذلاً وهواناً ، ثم يعبر عن كل معاني الكره والحقد التي يكنها " للبرنس " ، حين يلقبه باللعين ، ويذكر ذبحه بيمين " صلاح الدين " :

والمليك العظيم فيهم أسير  
يثنى في أدهم يثنى

والمعين الأبرنس أصبح مذبو  
حا بيمين لم يُعدم اليوم يمنا (٢)

يتضح لنا موقف الشاعر من الأعداء في كل القصيدة ، فهم يمثلون الكفر والعدوان ، والجيش الذي يفخر به يمثل الأيمان والحق ، فلا غرابة أن يقول :  
" جمعوا كيدهم ، وشقاشق الكفر ، واللعين الأبرنس " . وليس عجيباً أن يتشفي الشاعر بهم ، عندما عمل المسلمون منهم " وليمه وحش " .

ونلمس قدرة الشاعر في التعبير عن أفكاره ، حينما وصف شجاعة المجاهدين ، وما لحق بالصليبيين من ذل ، فقد جعل شقاشق الكفر صامته ، كما تحولت شجاعتهم إلى جبن ، والشحاع فيهم صار الدرع عنده هروبا . . . وغيرها من

تعبير توحى أنه حر يرض على اختيار تعابير جديدة لتدل على معان جديدة .  
ونحس أن في القصيدة ما يحدد الموقفة ويميزها عن غيرها من المواقع ، فاستعدادات الصليبيين ، وكثرة القتلى ، وتنوع الأسرى ، وحادث " البرنس " المشهورة ،

وأوصاف القتال ، وكيفية بدايته ، كل هذه الأمور تحدد موقفة " حطين " .  
لكن هذا التحديد لا يصل إلى التعمق في الجزئيات . ويمكن أن يكون انشغال

الشاعر في الأتيان بجديد من صور بيانية ومحسنات بدعية (٣) ، من المعامل التي شغلته عن القيام بالدور على أتمه .

(١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٩ .

مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ . النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٠ .

(٢) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٨١٥ .

(٣) لمزيد من التفصيل حول هذا الاتجاه ، انظر :

عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العمم والابتكار .

وفي قصيدة " للجلياني " ، يصف كثرة الجيش الصليبي ، فيشبهه بالجيال مرة ، وبالسيول مرة ثانية . ويكشف الشاعر عن مخططات الصليبيين ، ونواياهم الخبيثة . فهذه الأعداد الكبيرة التي تقدمت بكامل عدتها ظننت أن ليس هنالك قوة تفوق قوتها ، وحسبوا أن بإمكانهم جرم ملوك الأرض الى سلطانهم ، فبيتوا النية لأسر عدد كبير من لهم نفوذ وشأن ، وفي ذمهم أن يربحوا من وراء بيع هذه الفئة التي سيأسرونها ، فاتفقوا مسبقا مع التجار لتحقيق غايات اقتصادية ، لكنهم لم يحققوا هذا الهدف ، بل أسروا وبيعوا بأرخص الأثمان ، وذلك لكثرة أسراهم من الملوك وغيرهم :

أتوا كجبال أبرمت لأسارنا      فسقناهم فيها قطينا مجددا  
وساموا تجارا تشترينا غواليها      فبعناهم بالرخص جهرا على الندى  
وجرؤا جيوشا كالسيول على الصوا      فأثمت غشا في البطاح مُددا  
وقالوا ملوك الأرض طوع قيادنا      اذا الكل منهم في القيود مُعبدا

ويكشف الشاعر عن هدف ثان من أهداف الصليبيين ، وهو توسيع رقعتهم الجغرافية ، فبيتوا النية لتمكك العراق ، وقطعوا المهد على أنفسهم أن يفتطمعوا من أراضي "دجلة" ، بل أقسم " الكند " أن يسقي خيوله من مياه النهر :

وقد أقطع الكند العراق موقعا      فأودع سجننا وسط جلق مؤصدا  
وأقسم أن يسقي بدجلة خيليه      فما ورد الأردن الا مُصفدا

وهكذا نحس بخيبة الملك ، لعدم تمكنه من تحقيق الهدف الذي عزم عليه ، لأن القيد كان مصيره . ونستنتج الهدف الثالث الذي كان يسعى الصليبيون الى تحقيقه ، وهو توسيع قاعدة الصليبيين وحماية الكنيسة فيقول :

أتى الكند من اسبان يحيي قمامة      فكان تقضى ملكه قبل يبتدا (١)

وهكذا كان انتصار المسلمين في " حطين " وتحرير " القدس " ، مذكرا الشاعر بحملات الغزاة الصليبيين ، وبأهدافهم من تلك الحروب . ويبدو الشاعر واعيا على مخططات الأعداء ، فلم يقوموا بغزوة عابرة ، بل كانوا ينوون تحقيق أهداف اقتصادية وجغرافية ودينية (٢) ، فكان تطلّسهم الى الاستيطان لتحقيق تلك الأهداف .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .  
(٢) انظر في هذه الذواق :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ .

ستيفن رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

والشاعر لا يهتم بطول المدّة التي انقضت على احتلال "القدس"،  
وكان الأعداء قد موا لتحقيق أهداف معينة، ثم ما لبث المسلمون أن قضوا عليهم،  
وكل هذا مؤشراً إلى الغبطة التي تغمر الشاعر، وتسيطر على أحاسيسه  
ووجدانه بتحرير "القدس".

وينقل الشاعر للأشادة بالجيش الإسلامي، ويذكر موقعة "حطين"،  
وما لحق الأعداء فيها من ذل :

ووقعة يوم التلّ إذ حُجِبَتْ به  
جبابرة الأفرنج حيرى وُشردا  
عليهم من البلوى سرادق ذلّة  
ومن ذلّ ماتت نفسه فتقيدا

ويفصل الشاعر في قضية الأسرى والذل الذي لحقهم، ويظهر لنا  
الوصف الكاركتيري لأفراد "الداوية" المأسورين، وكيف أن الواحد منهم كان  
يلقي سلاحه ويساق بين السبايا، واستكمالا لهذه الصورة الهزيلة، يذكر  
أنهم بعد أن عندوا صفقات رابحة مع التجار لبيع أسرى المسلمين، فأذا بهم  
يياعون بأرخص الأثمان، حتى بدأ الواحد منهم بقايا عصفور مجرد من الريش:

تري المُسِرَّ الديوى يُلقي سلاحه  
ويئساق ما بين السبايا ملهنا  
يياعون سراباً شراخ أحبيل  
كشلة عصفور من الريش أجردا (١)

ويبلغ تشفّي الشاعر ذرته، عندما يعرض قصة الملوك المأسورين،  
فبعد أن رفض "البرنس" الدخول في الإسلام، قتله "صلاح الدين" وفاءً لنذره،  
فما كان من "القمص" (جفرى) ما لا أن ارتعد خوفاً، حتى ضاقت به الأرض عن  
الحرب، وقد ظن أن مصيره سيكون شبيهاً بمصير سابقه (٢) :

ألم تزر للسلطان صدق نذره  
وما شره بالفتك وسط حنايبه  
دم الفادر الأبرنس فاقتيد أردا  
فأدركه الموت المفاجيء مكمدا  
وضاقت بنفس القمص الأرض مهرباً

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ٢، ص ١١٨.

(٢) لم يقدم صلاح الدين على قتل جفرى، بل أحضره وطيب قلبه  
وأسقه ماء بارداً، ثم قال له: "لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك،  
وأما هذا (يعني البرنس)، فتجاوز حده، فجرى عليه ما جرى". انظر:  
العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٢٢.  
ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٢، ص ١٩٥.

بعد هذه الأوصاف المضحكة لأوضاع المأسورين ، يمجّد الشاعر وقعة  
" حطين " ، ويذكر أن الأعداء قد تمركزوا في الوادي ، لكن الله نصر المسلمين :

وما طرّق الأسماع من عهد آدم  
أثوا وادياً ما زال ينفي خبائثاً  
كلمحة التل التي تلت العدا  
ويصفي بعقبى الدار طائفة الهدى  
ذراه وذا فيه شعيباً تأييداً  
أرى الله فيه معجز النصر مخلصاً

ويشير الشاعر الى عدد الصليبيين ، ويتمجّب كيف استطاع المجاهدون  
الذين لم يتجهزوا بكامل السلاح ، ولم يكن بينهم من الفرسان ، أن يأسروا  
ويقضوا على خمسين ألف مقاتل من الأعداء :

ومن عجب خمسون ألف مقاتل  
سبتم جيوش ليس فيها من ارتدى (١)

فقد اشتملت القصيدة على وصف جوانب كثيرة من المعركة ، ومن  
هنا قيمتها التاريخية . هذا بالإضافة الى طريقة الشاعر الفنية في تلمس  
جوانب القتال ، وما لحق بالصليبيين على أيدي المجاهدين .

ومن قصيدة ثانية " للجلياني " ، يصف ما حل بالصليبيين من قتل وأسره  
وتدمير لمعالم شعائرهم التي غيروا بها معالم الأقطب والصخرة المشرفة .  
ويطرح الشاعر هذه المعاني بطريقة فنية جميلة ، فيبدأ بالتساؤل عن ملوك  
الصليبيين وأسلحتهم التي كانوا يفاخرون بها فيقول :

مالي أرى ملك الفرنج في قفص  
أين القواضب والعسالة السم

فالشاعر مدرك مصير الملك ، لكنه تساءل مصرحاً عن استهزائه بتلك القوة التي  
كانوا يعتدّون بها .

ويتعجب أيضاً لوضع أهم مؤسستين في الجيش الصليبي ، وهما :  
" الداوية والاسبتارية " ، فقد عهدهم الشاعر مجتمعين كأنما هم سدّ ياجوج ،  
ولكنه لا يراهم بنفس الصورة بعد المعركة :

والأسبتار إلى الداوية التأموا  
كأنهم سدّ ياجوج اذا استجروا

ويشير الشاعر الى سيرة هاتين المؤسستين ، وكيف كان لهما دور  
كبير في حرب المسلمين فيقول :

والنفر مولعة عجباً بسيرتها  
وفي المقادير ما تُسلى به السير

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

ويعتز بموقعة " حطين " التي كانت العامل الرئيسي في تفتيت قوى الصليبيين :

يا وقعة التل ما أبتيت من عجب جحافل لم يفت من جمعها بشر  
ويذكر استعدادات الصليبيين الكبيرة ، وكيف أنهم تمركزوا في " حطين " ،  
وكانوا متهيئين للقتال ، ولكن سرعان ما ذهبت قوتهم :

حطوا بحطين ملكاً كافياً عجيباً في ساعة زال ذاك الملك والتندر  
ويستخف بقوتهم أمام " صلاح الدين " ، حتى تحولوا الى مجموعة من  
الطير ، يحيط بها القاصص :

أهوى اليهم صلاح الدين مفترساً وهو الفضنفر أعدى الفره الظفر  
أملى عليهم فصاروا وسط كفته كسرب طير حواها القاصص الذكر (١)

ويذكر قصة " البرنس " ، وتمكن " صلاح الدين " من وفاء نذره ، ثم يسخر  
من " البرنس " ، ويصوره في حالة مضحكة ، حتى مات خوفاً مع أنه ما يزال حياً ،  
ولرعبه مات وهو يعتذر " لصلاح الدين " عن غدرة بالمسلمين :

وأنجز الله للسلطان موعداه ونذره في كفر دينه البطر  
وماين الملك الأبرس في دمه فمات حياً وحيى وهو يعتذر  
ويشير الى كثرة الأسرى ، ويبين عن غضب ملوك الفرنج الآخر ، لما حل  
ببعض ملوكهم :

بُعنا سباياة تجلى في دمشق اذا ملك الفرنج فع الأتراك محتجر  
ازاه زعماء الساحلين معاً مصفدين بحبل القهر قد أسروا

✓ ويلتمح الى طريقة خروج الصليبيين من " القدس " ، فقد نكسوا صلبانهم  
وبخاصة كبير صلبانهم الذي كان معلقاً على الصخرة المشرفة (٢) :  
يتلوه صلبوت سيف منكسا وحوله كل قسيس له زبر (٣)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .

(٢) يذكر المؤرخون أن الصليبيين بنوا على الصخرة كنيسة ، وملأوها بالصورة ،  
وهيها بها مواضع للرهبان ومحط الأنجيل ، وكان على رأس تبة الصخرة  
صليب كبير وهو المسمى " الصلبوت " . وذكر العماد أنهم يزعمون أنه صلب  
عليه معبود عم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر وكتلوه بالدر والجواهر . انظر:  
الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٦٥ .

ويذكر المؤرخون أنه عندما سقط الصلبوت على الأرض ، صاح المسلمون مكبرين ،  
صاح الصليبيون متفجعين . انظر: مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .  
(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

على هذا النحو ، اعتم الشاعر بما حل للصليبيين بعد المعركة ، وبخاصة ما يتعلق بأسرى الصليبيين وانتماء قوتهم ، لكنه لا يصف دقائق المعركة أثناء القتال . كما أنه لم يبين الملاحم التي تميز موقعة " حطين " عن معركة تحرير " القدس " . فكان وصفه مركزاً على الجوانب التي تبرز شجاعة المجاهدين ، وتأثير قوتهم على الصليبيين ، وهي المحاللات التي يمكن التفاخر بها .

ويمكن القول ان الشعراء وصفوا القتال الذي دار بين المسلمين والصليبيين في موقعة " حطين " ، ومعركة تحرير " القدس " . كما وصفوا استعدادات الجيوش ، وأدوات القتال ، وعمليات الهجوم والأدبار ، وكثرة القتلى والأسرى ، وشجاعة المنتصرين ، وخذلان المهزومين ، وغير ذلك من جوانب مهمة في القصائد التي تصف الحروب .

ومع أن الشعراء لم يكونوا في مستوى واحد من الدقة والوصف ، إلا أنه يمكن الاعتماد على تلك الأشعار في مجموعها ، لتكوين صورة كليّة عن القتال الذي جرى حتى تم تحرير " القدس " . ومن الملاحظ ، أن الشعراء لم يميزوا في وصفهم بين موقعة " حطين " ، وبين معركة تحرير " القدس " . ولعل ادراك الشعراء بأن النصر في " حطين " ، كان البداية الحقيقية لأفول الصليبيين وتحرير " القدس " ، هو سر ذلك الدج بين المعركتين .

ولم يقتصر الشعراء على التعابير العادية في تسجيلهم وقائع المعركتين ، ولكن قاموا بأبداع فني جديد ، فبالغوا ، وصوروا ، واستهزأوا ، ومدحوا . . . حتى خلدوا موقعة تحرير " القدس " ، فأدوا بذلك دوراً وظيفياً مهماً .

## صورة البطل

بعد تحرير "القدس" ، أكثر الشعراء الثناء على "الناصر" وتمجيده ، بطولاته ، وربطوا اسمه بما حمة "حطين" و"القدس" ، وقرنوه بالأنبياء والمجاهدين الأوائل ، ولم يتركوا خصلة إسلامية الا وضمّنوها مدائحهم .  
وطبيعي أن يوصف القائد الذي أمل الأمة بالشجاعة ، فيشبهه "الجليلاني" بالسيف ، يدافع عن "فلسطين" ، وكثرة فتكه بالأعداء ، كأنه أمة بكاملها وليس فردا واحدا . ونتيجة لذلك ، فقد صار الأعداء يهابون اسمه ويخافون أن يذكروا أمامهم :

سيفُ أُمّام فلسطين يُكرى أُمّاماً      خلفَ البحارٍ لقد أمهاتُ صيقله  
وانما اسمُ صلاح الدين يُذكر في      جيشه العدو فيسيبهم تخيّلُهُ (١)

ان قنينة تشبيه البطل بالسيف تعبير عادي ليس فيه جدة ، لكن "الجليلاني" كان حريصا على تخفيف نعته ، فحمل الأعداء يخافون "الناصر" ، لمجرد ذكر اسمه أمامهم .

وقد خاض "الناصر" معارك كثيرة ، حتى صار سيد الملاحم كلها ، فيقول "الشاغوري" :

ربُّ الملاحم لم يورِّخ مثلها      السلماءُ قدما في قديم الأعصر  
وإذا كان على هذه الصفة من البطولة ، فلماذا لا تخضع له كل الملوك ؟

لِمَ لَمْ تسدّن شمس الملوك له وقد      ملك السواحل في ثلاثة أشهر (٢)

ويجمع "الرنيد بن بدر النابلسي" بين اتساع ملك "الناصر" ، وبين بطولته ، فمن يرى ملكه واتساع الرقعة التي يحكمها لكثرة فتوحاته ، يصرف عينيه ما يروى عن "الأسكندر" واتساع ملكه :

أغنادا مررت بملكه وقتسوجه      فاسخر بما يروى عن الأسكندر

وكل ذلك لأن له جيشا قويا مطيعا ، حتى ان من يراه يسخر بأتباع "سنجر" :

أوانا بخرت بجاشيه وبجيشيه      فاخت التراب على ذؤابة سنجر (٣)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

(٢) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤٠ .

ومما يذكر أن هنالك أشعارا كثيرة في وصف بطولات الناصر ، أدرجناها في وصف القتال ، ولا نحدد ضرورة لتكرارها .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .



ويربط " الجلياني " بين بطولات " صلاح الدين " الملحمة ، وبين النصر  
الالامية التي تمنحه كل هذه القوة :

أُنسى ملاحم ذى القرنين واعترفت له الرواة بما لم يُنمه أُنس  
أعين أسكندر باله خضر وهولته عونٌ من الله يُستغنى به الخضر (١)

فبطولات " الناصر " تنسي الرواة ملاحم " الأسكندر " ، إذ لا مقارنة بين قوة " الخضر " التي تنصر " الأسكندر " ، وبين قوة الآله التي تنصر " صلاح الدين " .  
وهكذا فقد وصل افتخار الشعراء وتمجيدهم بطولات " الناصر " ، أن يسخروا بكل ما يروى عن غيره ، وأن يقرنوا ملحمة " حطين " وبطلها " الناصر " بالملاحم المشهورة ورجالها العظام .

ويرى " ابن جبير " في " الناصر " ، صفات المؤمن المجاهد ، فهو يجاهد لنصرة الدين ، فنصره الله وسمّاه " بالناصر " :

ثأرت لدين الخدي في العدا فآثرك الله من ثائر  
وقمت بنصر الله السورى فسمّاك بالملك الناصر  
وجاهدت مجتهداً صابراً فله أجرتك من صابر (٢)

وقد جاهد " صلاح الدين " أحياء الإسلام ، في الوقت الذي تخاذلت فيه كل الملوك عن نصرته ، فيقول " أسامة بن منقذ " (٣) :

لما ناصر الإسلام حين تخاذلت عنه الملوك ومظهر الأيمان  
ولذا فقد نصره الله وأذل حزب الكفر والطغيان ؛  
بك قد أغز الله حزب جنوده وأذل حزب الكفر والطغيان

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٣) هو أبو المنظر ، أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ ، ولد بقلعة شيزر سنة ٥٤٨٨ هـ ، ونشأ في أسرة محافظة على تقاليدها الموروثة . تربى على العلم والفروسية ، حيث أحضر له أبوه الشيخ والعلماء ليعلموه . اشترك مع عماد الدين ونور الدين في حروبهم ضد الصليبيين . أقام في دمشق ثم ارتحل إلى القاهرة ، بعد أن رأى حاكم دمشق يتصل بالصليبيين ضد نور الدين . كانت له علاقة بابن زيك الوزير الشاعر ، وتوفي سنة ٥٨٤ هـ . ومن آثاره : الاعتبار ، ولباب الآداب ، والمنازل والديار ، وديوان شعره . انظر أخباره في :

رفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٦٣ . الخريدة ، وقسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤٩٩ .  
مقدمة الاعتبار ، حرره : فيليب حتي ، الولايات المتحدة ، ١٩٣٠ م .

ويوضِّح الشاعر الأهداف السامية التي كان يسعى إليها "الناصر"، حيث هدف إلى أحياء الإسلام وتطبيقه بعد أن رأى شيوع الكفر والألحاد، ولم يكن هدفه توسيع رقعة ملكه، بل من أجل طاعة الله :

لما رأيتَ الناسَ قد أغواهمُ الشـ      يظانُ بالألحادِ والعصيان  
جرتَ سيفُكَ في العدى لا رغبةً      في المُلْكِ بل في طاعةِ الرحمن (١)

ويمدح "العماد الأصفهاني" في "الناصر" حرصه على أحياء العدى بنصره الدين، وقضائه على الشرك فيقول :

أحيا العدى وأماتَ الشركَ صارتهُ      لقد تجلّى العدى والشركُ منجاب (٢)

ويشتر "الجلياني" الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، بانتصاره

"صلاح الدين" للإسلام ، بعد أن سيطر البغي والظلم :

هذا المليكُ الذي بشرى النبيُّ به      في فتنةِ البغي للإسلام ينتصر (٣)

ومكنا فقد ربط الشعراء بين شجاعة "الناصر" وبطولاته ، وبين جهاده الإسلامي ، وحرصه على رفع راية الدين .

وقد وصفه "ابن حبير الأندلسي" محبا للجهاد ، مؤثرا للحياة الخشنة على الترف والذعة :

وتوُّ ثُرُوحاً مدَّ عيشَ الجهما      د على طيبِ عيشهمُ الناصر  
وتسبَّرَ ليلُك في حقِّ مَنْ      سيرُضيكُ في جفنيك الساهر (٤)

فقد جمع البطل بين القوة في الجسد ، والقوة في الأيمان . فهو حريص على القيام بواجباته الدينية كاملة بجانب الجهاد في سبيل الله .

"والناصر" مثال للمسلم التقي ، الذي يحرص على التقرب الدائم إلى الله تعالى وشكره ، بينما يشغل الملوك بمكاسبهم الدنيوية ، فيقول "ابن سناء الملك" :

فقد سُفِّلَ الأملُكُ عن شكرِ ربهم      سوى أنت بالريحان والراح والنقل

ويلمس الشاعر في التائد سمة هامة ، وهي الجمع بين القول والعمل :

يقولون ما لا يفعلون أما استحوا      من الملك المُغني عن التول بالفعل

(١) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٥٣٠ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

ولعل قضية الجمع بين القول والعمل من الخصال المهمة في القيادة والمخططين . ولا تصاف " صلاح الدين " بهذه الصفة ، فإن حبه مفروض على كل مسلم :

فحبك مفروض على كل مسلم ويعلم هذا فيك بالعقل والنقل (١)

وهذا مؤثر إلى أن المسلمين لم يحبوا "الناصر" لذاته ، بل لالتزامه المبادئ الإسلامية ، ولا تصافه بصفات الحاكم الثقي الذي كانوا يحلمون به . وبالإضافة إلى خصال الزهد والتقوى التي اتصف بها "صلاح الدين" ، فقد رأى فيه " الرشيد بن بدر النابلسي " مثالا للإنسان الكرم المضياف :

المم بدار الناصر الملك الذي في كفه للجوهر سبعة أبحر (٢)  
كما أنه متصف بالعطف والحنان ، حتى على الأسرى الأعداء ، فيقول " أسامة بن منقذ " :

ملك يمن على أسارى سبيه فيفيدهم في الأسر بالأحسان  
هذا بجانب صفات المهابة والعزة والسلطان ، حيث خضعت له الملوك :

خضعت له صيد الملوك فمن يرى أقلامه نمر على التيجان  
ولذا فقد أحبه الجميع ، وخلت القلوب من بغضه وكرمه :

ملا القلوب محبة ومهابة فخلت من البغضاء والشنآن (٣)

فمن منطلق الجمع بين أسباب القوة والمنعة ، وبين الإيمان بالعقيدة الإسلامية وتطبيقها ، نظر الشعراء إلى فاتح "القدس" . وهي صفات لا تتجاوز حدود الواقع ، وما نعرفه في كتب التاريخ عن " صلاح الدين " (٤) .

(١) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٥٧١ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٣) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٥٣٠ .

(٤) انظر في سيرة صلاح الدين :

ابن واصل ، مفرج الكروب ، جميع الجزء الثاني .

ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، جميع الكتاب .

وغيرها مصادر ومراجع كثيرة .

ان القيم الإسلامية التي تحلّى بها "صلاح الدين" ، والفتح الإسلامي الذي تحقّق على يديه ، جعلت الشعراء يربطون بينه وبين الصحابة والمجاهدين السابقين . "قالجلياني" يربط بين "صلاح الدين" وبين الخلفاء الراشدين وبعض الصحابة فيقول :

أخرى الزمان على خبرٍ بخبرته	أبا المظفر أنت المَجْتَبَى لمدى
في قلّة التلّ قضي كنه عبرته	فلوراك وقد حُزرت العلى عمر
أبو عبيدة فدى من مسرته	ولوراك وأهل القدس في ولسه
وأعلّوا بالتباكي حول صخرته	غداة حَزّوا النواصي في قمامته
عهد الصحابة في استمرار ملته	دارت بك الملة الحسنى فنحن على
ك المظفر سام في مبرته	وأنت كاسمك صدّيق وصاحبه للمل
على عليّ على ايثار نُصرتَه (١)	وفي الثلاثة عثمان يؤيّدُه

ان "الناصر" مجاهد مسلم ، تحقّق على يديه فتح "القدس" ، فلا عجب أن يشبه "بعمرو وأبي عبيدة" ، وغيرهما من الصحابة الذين عملوا في سبيل تحريرها . كما أن "الناصر" بأعادة تطبيق الإسلام في حكمه ، يذكر بحكم الخلفاء الراشدين . ولذا جمع الشاعر في أبياته الخلفاء الأربعة ، واستحضر صورهم فرحين بالفتح المبين . وكل ذلك مؤشّر الى نظرة الأمة الإسلامية تجاه "صلاح الدين" . ويربط "ابن الساعاتي" بين "الناصر" و"القدس" ، وبين "عمر بن الخطاب" و"القدس" حين افتتحها أول مرة :

تعامّة سادات الدنيا ومسودّها	هو الفاتح البيت المقدس بعد ما
من القوم مُبْتَدِيها وأنت مُعِيدها (٢)	فضيلة فتح كان ثاني خليفة

فمن الطبيعي أن تذكّر بطولات "الناصر" وخصاله الإسلامية وفتح "القدس" ، بأمر المؤمنين الذي فتحت "القدس" في عهده .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

من الملاحظ أن تركيز الشعراء في تمجيد "الناصر" كان على قضيتين متصلتين ببعضهما البعض، الأولى، القيم الإسلامية، والثانية، الجهاد الإسلامي. أما بالنسبة إلى الأولى، فمن الضروري أن يكون القائد متحلّياً بمكارم الأخلاق، ومتمثلاً للسلوك الإسلامي الصحيح، حتى يكون المثال الذي يحتذون به، ويسعى الجميع للتشبه به. وحينها يكون التلاقي بين القائد والأمة، فتزول التناقضات التي قد تؤدي إلى فساد وإخلال بالمجتمع. وقد يكون النهوض بالمستوى الخلقي للأمة في فترات حروبها أكثر ضرورة من أي فترة أخرى، وذلك حتى لا يشغل أفرادها بسفاسف الأمور، وبما يحجبهم عن مواجهة الأعداء، وتطهير الديار. وأنه من الضروري أن تربط هذه القيم والأخلاقيات بالأسلام، لأن تركها للضمير ولقناعات الأمة، يشتت النظرة إليها، ويلغي بعضها منها، باعتبار أن كل فرد له نظرته الخاصة، وقناعاته المبنية على الضمير والاجتهاد. ولكن عند ربطها بالأسلام، تصبح مشتركة واحدة، ولا يعود هنالك مجال إلى تعدد وجهات النظر بشأن تلك القيم.

وأما بشأن القضية الثانية، فمن المعروف أن الدافع الديني من أقوى دوافع القتال. هذا بالإضافة إلى أن الشعراء قاموا بدور تسجيل طبيعة الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقها "صلاح الدين" من وراء القتال.

ويتصور بعض المحدثين (١)، أن هذا الثناء على بطولات "الناصر" كان عاملاً من عوامل فتور الأمة، فاكتمت المجاهدون بما تحقّق من فتوحات، حتى انطلق الصليبيون من "صور"، واحتلّوا "القدس" مرة ثانية بعد وفاة "الناصر" (٢).

(١) يقول محمد سيد كيلاني: "على أن الشعراء الذين سلكوا هذا الطريق في مدح السلطان قد غلبوا الرأي العام بقصد أو بغير قصد، وتبطلوا عزيمة المسلمين وأزهموهم أن النصر جاءهم كاملاً موفوراً... فأنت ترى أن الشعراء قد أكثروا من القول في فتح القدس، وقد أضروا بالمسلمين ضرراً كبيراً، فناموا مطمئنين وبات أعداؤهم سائرين مجددين. وكان جديراً بهمؤلاء الشعراء أن يكونوا لأمتهم منذرين ومبصرين ومحذرين ومحرضين". انظر:

محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، ص ٢١٧.

(٢) انظر هذا الحدث في:

ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ٤٨٢.

ابن تفرى بردى، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧١.

ومن استقرائنا للأشعار القدسية ، نجد أن الشعراء لم يقفوا عند حدود المدح والثناء فقط ، بل تجاوزوها الى الحضن على مواصلة الجهاد .  
 " فالعماد الأصفهاني " يحرض " صلاح الدين " على متابعة الجهاد ، حتى يتم تحرير " صور وأنطرسوس وأنطاكية ، وغيرها من البلاد فيقول :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من  
 من بعد فتحك القدس ليس سوى  
 ابن علي يوم أنطرسوس ذا الجب  
 وأخل ساحل هذا الشام أجمعه  
 ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً  
 يمشي على الأرض أو من يركب الفرسا  
 صور فإن فتحت فاقصد طرابلسا  
 وابعث الى ليل أنطاكية العسسا  
 من العداة ومن في دينه وكسا  
 فأنهم يأخذون النفس والنفسا (١)

ويتطوع " العماد " الى اليوم الذي يتمكن فيه " صلاح الدين " من القضاء على الصليبيين نهائياً ، ثم ينطلق الى الغرب والشرق ، فيقضي على كل من يكفر بالله ، ويحكم العالم كله :

وصار بصور عصبة يرقبونكم  
 توكل على الله الذي لك أصبحت  
 ودمر على الباقيين واجتلبت أصلهم  
 ولا تنس شرك الشرق غررك مروياً  
 وان بلاد الشرق مظلمة فخذ  
 وبعد الفرنج الكرخ فاقصد بلادهم  
 فلا تبطنوا عنها ومثوهم حسا  
 كلاته درعا وعصمته نرسا  
 فأنت قد سيرت دنياهم فليسسا  
 بما الطلى من صاديات الطيس الخمسا  
 خراسان والنهرين والترك والفرسا  
 بعزمك واملأ من دمايم الرمسا (٢)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

ويأمل " ابن المجاور " أن يأتي اليوم الذي يسيطر فيه " الناصر " على العالم ، فيحصل الخراج من البسيطة كلها . ويسدّه الوحيد الذي سيعطف على العالم بسيطرته ، فيسود العدل في ظلّه ، ويزول الظلم والاستبداد :

فخُذِ الخَراجَ من البسيطةِ كلّها      واستأدِ فرضَ جزيّةٍ وموتلفٍ  
واقبضْ على الدنيا بكفّ زهادةٍ      وابسطْ لرحمتها جناحَ تعطفٍ (١)

ويحثّ " الجلياني " " الناصر " على مواصلة الجهاد ، ويبيّنه بامتلاك العالم كله ، حتى يعمّ الدين كما انتشر في عهد الأنبياء :

يا فاتحَ المسجدِ الأقصى عليّ بهم      وقانصِ الحيشَ لا يُحصى بقفرتيه  
ابشر بطلك كظهير الشمسِ مطّلعٍ      على البسيطةِ فتّاحٍ بنشرتيه  
حتى يكونَ لهذا الدينِ ملحمةٌ      تحكي النبوةَ في أيامِ فترتيه (٢)

وهو البطل الذي يستحق الدنيا كلها ، لأنه جدير بحكمها ، حيث يقول " الشاتاني " (٣) :

غدا النصرُ معقوداً برايتك الصّفرُ      فسرّ واقتمِ الدنيا فأنت بها أخرى (٤)

فهذه الأشعار مؤشّر كبير إلى أن الأمة كانت تنظر في " الناصر " ، البطل الذي يعيد سيرة الفاتحين المسلمين ، حتى يحكم الإسلام كل البسيطة . وهذا يكون الشعراء قد أدوا دورهم في تمحيد البطل الذي حقّق أمل الأمة بتحرير " القدس " . وكانت صورته في الشعر مطابقة لسيرته وأفعاله ، وهي صورة الحاكم المسلم المجاهد .

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
- (٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
- (٣) هو أبو علي ، الحسن بن سعيد بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم الشاتاني الملقب بعلم الدين . ولد سنة ٥١٠ هـ وتوفي سنة ٥٩٩ هـ ، وذلك حسب قول ابن خلكان وابن عساكر ، لكن ياقوت يجعل ولادته سنة ٥١٣ هـ ووفاته سنة ٥٧٩ هـ . كان يحب الحديث ، وكان في كنف جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور وزير الموصل ، ولأهّ البيمارستان بالموصل ووقفه ، ولما نكّب الوزير ووقف أمره ، وفد على نور الدين الشهيد فأكرمه إلى أن مات . انظر أخباره :  
وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ١٤٠ . النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٥٨ .  
تهذيب ابن عساكر ، ج ٤ ، ص ١٧٧ . الخريدة ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ .
- (٤) البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ٢٥ .

وصف الشعراء أعداءهم من خلال وصفهم بطولات المسلمين ومعركة  
تحرير "القدس".  
وأول ما نلاحظه في هذا الوصف، هو ذلك الاهتمام الكبير بعقيدة الصليبيين،  
والاستهزاء بشعائرهم. "فالعقاد الأصفهاني" ينعتهم بالرحس والكفر، بعد أن  
طهر "صلاح الدين" "القدس" من آثامهم:

وطهرته من رحسهم بدمائهم  
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها  
فأذهبت بالرجس الذي ذهب الرجسا  
وألبستها الدين الذي كشف اللبسا (١)

فالشاعر لا ينظر إلى الأعداء على أنهم مجرد غزاة احتلوا أرضاً للمسلمين، بل  
يمثلون الكفر والظلم، ولما حاولتهم تغيير معالم الصخرة والأقصى، يوضع الصليبيون  
وبناء الكنائس. فقد دنسوا باحتلالهم الديار المقدسة، ولم تعد ظاهرة بوجودهم.  
ويعرض "ابن الجاور" بعقيدة التثليث التي يؤمنون بها، ويذكر هزيمة  
تلك العقيدة، ويمجد انتصار عقيدة التوحيد:

قد أنصف التوحيد من تثليثهم  
وأقام في الأنجيل حد المصحف (٢)

ليس عجيباً أن يعتقد الشاعر هذه المقارنة للكشف عن هويات الطرفين المتحاربين،  
فأهم مبدأ يقوم عليه الإسلام هو التوحيد، بينما تقوم عقيدة الصليبيين على  
التثليث. كما أن المصدر التشريعي الرئيسي في الإسلام هو القرآن، ومصدر  
الصليبيين هو الأنجيل. من هنا كانت مقارنة الشاعر معقولة ومبررة وليست عشوائية.  
ويعرض "الرشيد بن بدر النابلسي" بشعائر الصليبيين، من خلال مقارنتها  
مع شعائر المسلمين أيضاً. فالمسجد الأقصى أنير بتعليق الآيات والسور بعد  
أن كان مظلماً بوجود الصليبان:

يا نور مسجد الأقصى وقد زفعت  
بعد الصليب به الآيات والسور  
ويفرق بين الناقوس الذي يضرب لأداء الصلاة، وبين الأذان الذي  
تفشع له القلوب، وتكاد الأرض تنفطر:

شان ما بين ناقوس يذان به  
اللَّهُ أكبر صوت تفشع له  
وبين ذى منطبق يُصفي له الحجر  
شم الذرى وتكاد الأرض تنفطر (٣)

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ٢، ص ١٠٢.

(٢) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٠٣.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١١٨.



ويستبزي " ابن سناء الملك " بعقائد الصليبيين وشعائرعهم ، وبخاصة  
ايمانهم بمقتل عيسى ( عليه السلام ) ، وصلبه في " القدس " ثم ايمانهم  
الذي يحمل من البشر الدما يعبد :

ظل معبودهم لم لذيك أسيرا      مُستضافاً فاجعل له النار سحنا  
صلبوا ربهم فلم يقن عندهم      من رأى بعد صُلبه قط أغنى (١)  
فتشهير الشاعر بعقيدتهم ، كان في معرض وصف هزيمتهم ، حيث تركوا الهيم  
وهربوا .

ويحقر " الجلياني " عقيدتهم ، ويشير الى عدم التزام الصليبيين بما  
يعتقدون ، حتى ظن أنهم تهودوا :

ويسا ضحى السبت ما للقوم قد سبتوا      تهودوا أم بكأس الطمن قد سكرُوا  
ويا ضريح شعيب ما لهم حنموا      كمد ين أم لقوا زحفا بما كفروا  
ثم ينعت الإسلام بالحق ، والكفر بالطغيان فيقول :

والحق يعرُس والطغيان مُنتخب      والكفر يطمس والأيمان مُزدهر (٢)

ويعد " ابن الساعاتي " الهزيمة التي مني بها الأعداء هزيمة للصليب،  
وانتصار الأمة الإسلامية يعني انتصار الدين والقرآن :

كبا من أعاليه صليب وبيعة      وساد به دين حنيف ومصحف (٣)

ويستبزي " الجواني " بأهم مؤسسة دينية لدى الصليبيين وهي كنيسة  
القيامة ، ويعتبر وجودها دليلاً على وجود الرجس في " القدس " :

وقمامة قُمت من الرجس الذي      بزواله وزوالها يُتطهر (٤)

- (١) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٨١٨ .
  - (٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
  - (٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ .
  - (٤) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .
- ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

ويعرض " الشاغوري " بالصليب شعار الأعداء ، ويحقر من عقيدة التثليث التي يؤمنون بها ، ثم يسمهم بالشرك والكفر ، بينما يمثل المجاهدون الإسلام والتوحيد :

واستنقذ البيت المقدس عنوة	من كل ذي نجس بكل مطهر
فلقد وأدت الشرك يوم لقيتهم	وغدوت للأسلام عين المنشر
وعجمت عود صليبيهم فكسرتة	وسواك ألفاه صليب المكسر
أرديت كل مثلث مكبّر	بموحد متواضع فمكبّر (١)

ويستهزئ " الجلياني " بمواقف الصليبيين أمام المجاهدين ، ويعرّض بشعائرهم :

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة	قد أقسموا بذراع الرب تدخله
ما كذبوا كذبتهم في وصف ريمم	وصدق الوعد مأموناً حولته
أما رأيت ابن أيوب استقل بما	يعي الزمان وأهليه تحمله
هاج الفرنج وقد خاروا لفتكتيه	فاستنفروا كل مرهوب تغلغلته
لما سبى القدس قالوا كيف نتركها	والرب في حفرة منها تمثله (٢)

فانظر إلى هذه السخرية القاسية ، حيث كانوا قد أقسموا " بالرب " ألا يتركوا " القدس " ، فاحتاروا عند انتصار المسلمين ، كيف يتركون " ريمم في حفرة " " بالقدس " . وكل هذه التماهير موحية بالمعاني المقصودة ، كما أنها غنية بمشاعر السخرية والاستهزاء من الأعداء .

ويستهزئ " الجلياني " بأهم مؤسستين عسكريتين للصليبيين وهمسا :  
" الداوية والاسبتارية " ، فيسخر من هزيمتهم ومن أسر ملكهم :

ما لي أرى ملك الأفرنج في قفص	أين القواضب والعنالة السمر
والأسباز إلى الداوية التأموا	كانهم سدّ يا جح إذا استجروا (٣)

فيهزأ بهاتين القوتين ، حيث كان لهما دور في حرب المسلمين .

- 
- (١) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤١ .
  - (٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
  - (٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

ومن خلال وصف الشعراء هزائم الأعداء ، فقد وصفوا أخلاقهم .  
 " فالعماد الأصفهاني " يصف قتل " البرنس " وينعته بالكفر والغدر :

رأيت فيهم عظيم الكفر محتقرا      معفرا خذّه والأنف قد تعسا  
 يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد      أصاب أعلم من بالشرك قد نجسا  
 ما زال يعطس مزكوماً بغدرته      والقتل تسميت من بالغدر قد عطسا (١)

ان قائد الفرنج يمثلهم في عقيدتهم وأخلاقهم ، ومن هنا ينظر الشاعر الى الصليبيين من خلال " البرنس " وأخلاقه . فهو يتسم بالغدر والخيانة ، وهذه سمة عرف بها الصليبيون . كما أنها ملازمة لممثل الكفر ، حتى انه لا يعطس الا الغدر . فالشاعر لم يعمد الى اختلاق صفات ليست من طبائع الصليبيين ، وانما هنالك اتفاق بين ما أورده ، وبين ما سجله المؤرخون عن أخلاق الصليبيين (٢) . ويصفهم " الحلبياني " بالطمع المادى والحرص على الدنيا ، وحب السيطرة وامتلاك الأرض فيقول :

وساموا تجاراً تشترينا فسوالياً      فبعناهم بالرخص جهرا على الندى  
 وقد أقطع الكند العراق موثعاً      فأودع سجناً وسط جلق مؤصدا  
 وأقسم أن يسقي بدحلة خيليه      فما ورد الأردن الا مصفدا (٣)

ومن خلال أطماعهم الاقتصادية والجغرافية ، يكشف الشاعر عن صفاتهم ، ولكن بأسلوب الساخر الشامت بما حصل لهم .  
 وكان الشعراء يرمزون الى الأعداء " ببني الأصفر " ، وأحيانا بالفرنج ، ومن ذلك قول " الرشيد بن بدر النابلسي " :

أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة      فيها لأعدائك الآيات والنذر  
 ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما      فيهم لبيب على العلات يعتبر (٤)  
 فالشاعر يكتفي عن الأعداء " ببني الأصفر " و"الفرنجة" ، ويصفهم بالطيش والسفه وعدم استعمال عقولهم .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) انظر : ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٤ .

أسامة بن منقذ ، الاعتبار ، ص ١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

ومن الملاحظ أن الشعراء لم يجروا على وصف أعدائهم بالجبن مالا بعد هزيمتهم وتحرير "القدس"، ومن ذلك "قول" ابن سناء الملك:"  
 واستحالت شقاشق الكفر صمتاً حين عادت تلك الشجاعة جُبنا  
 أشجع القوم فيهم حاعيل الدر عِروياً والفرار مجنأ (١)  
 فالشاعر لا يصفهم بالجبن، وإنما استحالت شجاعتهم إلى جبن بعد مواجهتهم  
 المحامدين. فالشجاعة من الصفات المعروفة عنهم، وقد سجل لهم المؤرخون  
 هذه الصفة. كما أن الشعراء لم ينكروا هذه الحقيقة (٢). يضاف إلى ذلك أن  
 وصف العدو بالشجاعة من شأنه تعظيم الجيش الإسلامي، لأنه المنتصر على  
 الأعداء.

ومناك أشعار كثيرة تصف همزائم الصليبيين، أثبتناها في القسم الخاص  
 بوصف القتال، ولا نحد دأعياً لتكرارها.

وهكذا نستطيع أن نضع ملامح خاصة بالصليبيين من تلك الأشعار.  
 فهم محتلسون طارئون على الديار الإسلامية، وقد دنسوا المقدسات بتغيير  
 ملامحها. كما أنهم يتسمون بالفدر والخيانة. ومن سمات عقليتهم السفه والطيش،  
 ويوصفون بالجشع والطمع؛ ومع كل هذه السلبات فليس فيهم الا صفة الشجاعة،  
 لكن المحامدين أقدر على الثبات والصمود في الحروب. وأما بشأن عقيدتهم  
 وشعائريهم، فهم كفار مشركون، يقدمون على طقوس وشعائر لا يقبلها العقل  
 والمنطق السليم.

وينبغي أن نشير إلى أن هذا التحقير المتواصل لعقيدة الصليبيين  
 وشعائريهم، كان لأن الفزة طرحوا شعار الصليب في حروبهم، فكان الطابع  
 الديني غالباً، وكان طبيعياً أن يتناول الشعراء كل ما يتعلق بعقيدة الصليبيين.  
 ومعروف أن من عادة الشعوب المنهزمة أن تنظر باستهزاء إلى ما يوصلها  
 بالفترة التي هزمت فيها، فتحاول تناسي ما يمت إلى تلك الفترة بصلة. ومقابل ذلك  
 تنظر باعجاب إلى كل ما يمت إلى الأمة المنتصرة، حيث تعتبر كل صفة من صفاتها  
 سبباً من أسباب النصر.

فإذا تمثلنا هذه الحقيقة، أدركنا ما لهذه الأشعار من أهمية في تعزيز  
 ثقة المسلم بدينه، والتحقير من شأن عقيدة الأعداء، وكل شعائريهم. كما أن هذه  
 الأشعار تشكك العدو بعقيدته وشعائره، حيث يحس أنها محط سخرة وتحقير.  
 وجدير بالذكر أيضاً، أن عواطف الكره التي نلمحها تجاه عقيدة الصليبيين،  
 تنم عن موقف الشعراء العدائي تجاه الفزة المحتلين. وبذا يكون الشعراء قد  
 أدوا دوراً كبيراً في اتخاذ موقف من المحتلين، وتعبئة الأمة تجاههم.

(١) ديوان ابن سناء الملك، ج ٢، ص ٨١٥.

(٢) انظر في صفاتهم: الاعتبار، ص ١٠٤.

## الفصل الرابع

افتقار البطل ورثاء القدس

## افتقاد البطيل ورثاء القدس

ان الانحازات التي تحققت في عهد "صلاح الدين" كانت كبيرة جدا .  
 فقد تم تحرير القدس وطبرية وعكا ونابلس ويافا وعسقلان وغيرها من المدن (١) .  
 ولم تكن طموحات "الناصر" تقف عند هذا الحد ، بل كان يأمل أن يحكم الاسلام  
 العالم كله ، فقال مرة " لابن شداد " : " في نفسي أنه متى يسّر الله تعالى  
 فتح بقية الساحل قسمت البلاد ، وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر الى جزائره  
 وأتبعهم فيها حتى لا ألقى على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت " (٢) .  
 لكن وفاة "الناصر" سنة ٥٨٩ هـ (٣) ، حالت دون تحقيق هذه الأمنية  
 الكبرى . وقد كانت وفاته صدمة كبرى أصيب بها المسلمون في ذلك اليوم . وصف  
 " ابن شداد " ذلك اليوم قائلا : " وكان يوما لم يصب الاسلام بمثله منذ فقد الخلفاء  
 الراشدون ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه الا الله تعالى .  
 وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم ،  
 فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوز والترخص الى ذلك اليوم ، فاني علمت من  
 نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفداه الناس بالنفوس " . وقال : " وارتفعت  
 الأصوات عند مشاهدته ، وعظم الضحج حتى ان العاقل يتخيل أن الدنيا كلها  
 تصيح صوتا واحدا . وغشي الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة " (٤) .

- (١) انظر هذه الفتوحات في :  
 ابن واصل ، مفرج الكروب ، جميع الجزء الثاني .  
 (٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧ .  
 (٣) انظر وفاته في :  
 ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ٩٥ .  
 ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٥١ .  
 ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٤٨ .  
 ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .  
 أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٣ .  
 (٤) ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٥٠ .

بكى الشعراء ناصراً الأمة ، وعبروا عن آهات المسلمين وأحزانهم لفقدهم بطليم . ومن هؤلاء الشعراء " العماد الأصفهاني " ، الذي رثاه بقصيدة تتجاوز المئتي بيت .

يبدأ " العماد " مراثيته ببيت ' نحس فيه بالفراغ الكبير الذي حدث بوفاة " الناصر " فيقول :

شُمِّلَ الخُدَى والملكُ عمَّ شتاتُه      والد هرُساء وأقلعتُ حسناتُه

فالمتوفى كان مشتملاً على خصال كثيرة ، وكانت مكارم أخلاقه عامة على جميع المسلمين في مملكته ، ولكن بوفاته فقد ساء الدهر ، وذهبت الحسنات التي كانت ترى في حياة البطل .

وبعد هذا التعبير الكبير عن مصاب الأمة ، يبدأ الشاعر بالتفصيل في خصال البطل القائد ، بطريقة استفهامية مؤثرة ، تشعرنا بعظم المصيبة وجليلها :

أين الذي مُدِّ لَمْ يَزَلْ مخشياً      مرجوةً رعباتُه وهباته  
أين الذي كانت له طاعناً      مبذولةً ولربه طاعاته  
بالله أين الناصر الملكُ الذي      لله خالصةً صفتُ نيّاته  
أين الذي ما زال سلطاناً لنا      يُرجى نداءه وتُتقى سطواته  
أين الذي شُرّف الزمانُ بفضله      وسمت على الفضلاء تشريفاته

يبين الشاعر عن طبيعة العلاقة المتينة التي كانت تربط الأمة بقائد بها . فلأن البطل كان يجمع بين الرحمة والرأفة بالمسلمين ، وبين الحزم والقوة في الأحكام وتطبيق الدين ، فقد كانت الأمة مطيعة له ومتعلقة بسلطانه . فيتساءل الشاعر عن هذا البطل الذي أحبته الأمة ، واعتزت بسلطانه . وهو في تساؤلاته هذه ، إنما يعبر عن تساؤلات المسلمين جميعهم ، بفقدان حاكمهم المسلم ، الذي فضّلوه على كل الفضلاء في ذلك الزمن .

ويتساءل الشاعر عن البطل الذي لقن الصليبيين دروساً في الحروب ، فكانت لسيوفه ورمحه آثار في رقاب الأعداء ، حتى خضعوا ذلاً لبأسه وقوته :

أين الذي عنت الفرنجُ لبأسه      ذلاً ومنه ما أدركتُ ساراته  
أغلالُ أعناقِ العدا أسيافه      أطواقُ أجيادِ السورى مُناتَه (١)

(١) انظر الأبيات : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٠-٦١ .

ويؤكّد الشاعر ايمانه بالموت ، وأنه لا مجال لردّه عند ما يحين مصير  
الإنسان . " فالناصر " كان حكيماً مدبراً ، الا أن أحداً من الأطباء لم يستطيع  
تدبير أمره وعلاجه لأنقاده من الموت :

لم يُجَدِّدِ تدبيرُ الطبيبِ وكم وكَم أَجَدَّدْتُ لَطِبَّ الدَّهْرِ تدبيراً  
وعذّه نظرة واضحة من الشاعر تجاه الحقيقة الكبرى ، حقيقة الموت . وكأنه  
يجيب عن تساؤلاته المتتالية ، فيعزّي نفسه بهذه الحقيقة .

لكن افتقاد البطل مسيطر على مخيلة الشاعر ، فيعاود التساؤل من  
جديد ، من الذي يواصل الجهاد ضد الأعداء ويحرص على نصرّة الاسلام ؟  
فالبطل قضى حياته مخلصاً في سبيل رفع راية الاسلام ، وفي مقارعة الأعداء ، وكانت  
الانتصارات متتالية في عَمَدِه ، فأمر طبيعي أن يتساءل الشاعر عن هذه الأمور التي  
كان يقوم بها البطل في حياته :

مَنْ فِي الْجِهَادِ صَفَاحَهُ ما أغمدت بالنصر حتى أغمدت صَفَاحَهُ  
مَنْ فِي صَدورِ الكفرِ صَدْرَ قَنائِهِ حتى توارت بالصياح قَنائَهُ  
لَسَدَ المتاعِبِ فِي الجِهَادِ ولم تكن مُدْ عاشرَ قَطُ لذاتِهِ لَذائِهِ  
مَسعُودَةٌ غَدواتُهُ مَحمودَةٌ رُدحاتُهُ ميمونةٌ صَواتُهُ  
فِي نُصْرَةِ الإسلامِ يسرُّ دائماً لِيطولَ فِي روضِ الجنانِ سَنائُهُ

بعد هذه الدفقات الشعورية الحزينة ، يتوجه الشاعر الى المسلمين  
ويبين لهم عظم المصيبة التي حلّت بهم . فالبطل المتوفى في صفاته وفي القيم  
التي كان يتحلى بها ، كأنما كان عالماً متكاملًا . فوفاة " الناصر " الذي كان يحلم  
بأصلاح العالم وحيائه ، وفاة للعالم كله :

لا تحسبوه مات شخصٌ واحدٌ فماتَ كلُّ العالمينَ مَواتَهُ  
وقد كان محامياً عن الإسلام ، ولكن بوفاته فقد أظلمت دور الاسلام  
وذ هبت أيامه :

ملكٌ عن الإسلامِ كان مُحامياً أبداً اذا ما أسلمتْهُ حُماتُهُ  
قد أظلمتْ مذ غابَ عنها دُورُهُ لسا خلتْ من بدره داراتُهُ

ويعبر الشاعر عن هذا الأحساس العميق بوفاة عنصر مهم في الوجود ،  
بالنظر الى صورة العالم بعد وفاته ، فيحده خالياً من السماح والعمد والكرم والعطف .  
وكان هذه القيم ومكارم الاخلاق دفنت مع سيدها ، ولم تعد تقبل أحداً بعده .  
كُفِنَ السماحُ فليس يُنبشِرُ بعد ما أودى الى يوم النُشورِ رُفاتُهُ  
الدينُ بعد أبي المظفرِ يوسف أفوتُ قَواه وأقفرَت سَاحاتُهُ



ويعدد مناقب المتوفى بطريقة ايجابية ، تظهر كائنة الخصال الاسلامية ،  
والاخلاق الحميدة التي احبها المسلمون في بطلهم :

جَبَلٌ تَضَعُكَ مِنْ تَضَعُكَ رُكْنَهُ      أَرْكَائِنَا وَتَمَدُّنَا هَدَاتِهِ  
مَا كُنْتَ أَعْلَمَ أَنْ طُوداً شَامِخاً      يَمُوى وَلَا تَمُوى بِنَا مَهْوَاتِهِ  
مَا كُنْتَ أَعْلَمَ أَنْ بَحْرًا طَامِيًا      فِينَا يُطْمُ وَتَنْتَهِي زَخْرَاتِهِ  
بَحْرٌ خَلَا مِنْ وَارِدِيهِ وَلَمْ تَنْزَلْ      مَهْفُوفَةٌ بِوَفُودِهِ حَفَاتِهِ

فهو الحاكم الذي كرس جهده لرفع راية الاسلام شامخا ، ووفاته تضععت اركان  
ذلك الجبل الذي بناه البطل .

ونلمس تعلق الشاعر بالمتوفى ، من خلال محاولته عدم تصديق  
اخبار الوفاة ، فلم يكن يتصور أن مثل هذا العلم الشايع سينتهي يوما ، مع أن  
مآثره ما تزال موجودة ويحس بها الجميع .  
ثم ينطق الشاعر بلسان اليتامى والأرامل وغيرهم من المحتاجين ، الذين  
سيفقدون البطل ، ويشسرون بغيبابه فيقول :

مَنْ لِلْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ رَاحِمٌ      متعطفٌ مفضضةٌ صدقاته

ويتذكر الشاعر الآيات القرآنية التي نزلت في وفاة الرسول (عليه السلام) ،  
وكان الشاعر يقرن عظم هذه المصيبة بتلك التي مني بها المسلمون يوم وفاة الرسول :  
لَوْ كَانَ فِي عَصْرِ النَّبِيِّ الْأَنْزَلَتْ      فِي ذِكْرِهِ عَنْ ذِكْرِ آيَاتِهِ ؛

ويهدأ الشاعر قليلا ليتوجه الى الله تعالى بالدعاء للمتوفى ، حتى  
يرضى عنه ويرحمه ، ثم يقرن هذا الدعاء بالسقيا لضريحه ، وهي عادة معروفة عند  
الشعراء العرب :

فَعَلَسِي صَاحِبِ الدِّينِ يَوْسُفَ دَائِمًا      رِضْوَانُ رَبِّ العَرْشِ بِلِ صَلَوَاتِهِ  
لِضَرْحِهِ سُقِيَا الحَرَابِ فَأَنْ يَغِبَ      تَحَضَّرَ لِرَحْمَةِ رَبِّهِ سَقِيَاتِهِ

ويتذكر الشاعر حزن البيت المقدس على وفاة "الناصر" ، فقد ارتبط اسمه  
بها ، فهو الفاتح المدينة المقدسة ، ومزيل الرجس والدنس عن معالمها ، فلا  
عجب أن تحزن هذه المدينة على وفاة محررها ، بل ان حزن المدينة المقدسة يثير  
شجي البيت الحرام في " مكة " أيضا حيث يقول :

وَعِبَادَةُ البَيْتِ المقدسِ يَحْزَنُ ال      بَيْتَ الحَرَامِ عَلَيْهِ بِلِ عَرَفَاتِهِ

وهذا تعبير عن ارتباط المدن الاسلامية بالعقيدة ، وبحياة الرسول المصطفى (عليه السلام) ،  
وهو تعبير عن وحدة الديار الاسلامية ، ووحدة الشعوب التي تسكنها ، في حالات  
الفرح والحزن .

ولم يقتصر العزن على المسلمين والأماكن المقدسة ، بل ان الأدوات التي كان يستعملها في الحروب ستبكي عليه بوفاته . فالخيول التي تعودت القتال ، ستبكي على " الناصر " ، لأن ظهورها ستخلو من الراكبين للجهاد بعد وفاته . وأما السيوف والرماح والسهام ، فستبكي لأنها ستغمد وتصدأ بعد " الناصر " أيضاً :

بكتِ الصوارمُ والمواقلُ إذ خَلَّتْ      من سبلها وركوبها غزواته  
وسيفُ صداءُ الحزنِ مُصابه      إذ ليس يشفي بعده صدياته  
يا وحشتا للبيضِ في أغصانِهما      لا تنتضيها للوفى عزماته (١)

ونحس بحزن العالم كله لوفاة " صلاح الدين " . فالمسلمون ما زالوا في خطر لقرب الأعداء من " القدس " وتطلّعم اليها من جديد . والغرب ينتظر " صلاح الدين " حتى يقضي على الظالمين فيه . كما أن الشرق يتطلّع الى سيوف " الناصر " ليخضع كل العصاة الى سلطانه :

والقدسُ طامحةٌ اليك عيونُه      عجلٌ فقد طمحت اليه عداتُه  
والغربُ منتظرٌ طلوعك نحوه      حتى تفيء الى هداك بغاتُه  
والشرقُ يرجو غربَ عزمك ما ضمياً      في ملكه حتى تطيع عصاتُه

فمع اقتناع الشاعر بوفاة البطل ، الا أنه لا يحب سماع هذا النبأ ، لذا ينادى " الناصر " ليحقق تطلّعات المسلمين ، بالقضاء على الصليبيين في كل الديار . وليس هذا فقط ، وانما للقضاء على كل الكافرين على هذه الأرض ، حتى يحكم الإسلام العالم كله ، فيحقق " الناصر " أمنيته وأمنية المسلمين الكبرى . وبعد هذه التطلّعات يتوجّه الشاعر الى خلفاء " صلاح الدين " ، فيحثهم على المضي في الطريق التي بدأها والدهم ، وعلى الاقتداء بسيرته ، والتحلي بصفات العدل والكرم ، والشجاعة في جهاد الأعداء :

أبني صلاح الدين ان أبأؤكم      ما زال يأسى ما الكرام أبائُه  
لا تقصدوا الا بسنة فضله      لتطيب في مهد النعيم سناتُه  
ردوا موارد عدله وسماحه      لترد عن نهج الشمات شماتُه (٢)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

وهكذا فقد عبّر الشاعر عن المصاب الجليل الذي منيت به الأمة ، كما بيّن الخصال التي كان يتصف بها المتوفى ، حيث كان يجمع بين أخلاق المسلم التقي ، وبين قوة الحاكم وبأسه ، وبين شجاعة المجاهد المؤمن . وهي كلها من سمات الحاكم المسلم التقي . ولم يعتمد الشاعر على طرق تقريرية مباشرة للتعبير عن مشاعر الأمة ، ولأيفاء المتوفى حقه ، بل نلجأ تعدد الأساليب التأثيرية التي اتبعها . فمن الأسلوب الاستفهامي الذي يوحى بالفراغ الكبير لوفاة " الناصر " ، إلى الأسلوب الأيحيائي الذي يدل على خصال المتوفى ، وإلى استعمال أنواع البديع التي تضفي جمالا شكلياً على القصيدة .

ولجمع الشاعر بين هذه الأساليب ، فأضينا نحن بحمال وقع القصيدة على الأذن ، وما تحدثه من سحر فني في النفس . فاستطاع أن يفني قصيدته بالموسيقى الداخلية ، التي تنوعت أيقاعاتها بحسب عواطف الشاعر المتدفقة ، والأنفعالات التي تصدر عنه .

وقد استطاع الشاعر كل ذلك ، لقدرته على اختيار الألفاظ والجميل المتجانسة في أيقاعاتها وموسيقاها . وما يؤكده هذا الاهتمام ، حرصه على الالتزام في آخر القصيدة بأيقاع واحد من ثلاثة حروف ، بل الالتزام بروي من حرف واحد . وذلك مؤشراً إلى ثقافة الشاعر اللغوية ، وحرصه على اظهار محفولة من الثقافة اللغوية الموروثة .

ويمكن القول ان الشاعر جمع في قصيدته بين الاهتمام بالمضمون الفكري ، وذلك بتبيان خصال المتوفى الذي أحبته الأمة ، وبين الاهتمام بالشكل الفني المؤثر الذي يؤدي الغاية ، وكل ذلك مؤشراً بمشاعر الشاعر الحزينة وأنفعالاته الصادقة ، التي تعبر عن تفجّع الأمة تجاه قائدهما " الناصر " .

و" لجعفر بن شمس الخلافة " قصيدة في رثاء " الناصر " ، يبين فيها  
عظم الخطب الذي ألمّ بالمسلمين فيقول :

أستتري كيف انبرى الخطبُ ثائراً ومدَّ يداً منه الى دافع الخُطبِ -

ثم يوضّح سبب المسيبة ، فيذكر وفاة " الناصر " الذي تحمّعت  
القلوب حوله رجاء في احسانه ، وهيبته من سلطانه :

الى الناصر الملك الذي ملئت به قلوب البرايا من رجاءٍ ومن زعجب

ويبدأ الشاعر بتعداد مناقب المتوفى ، وذلك بالطريقة المعمودة

في الرثاء ، فهو الكريم المضيف ، الذي لم يعتد أن يرد أحداً ، لذا لم يرد  
الموت عندما أتاه ضيفاً :

كريم أتاه الموتُ ضيفاً فلم يكن لينزله الا على السهل والرحب

ولو خاب منه قبل ذلك سائلٌ لخبابٌ وليس البخلُ من شيم السُحب

ويبين الشاعر ما حدث بوفاة " الناصر " ، حيث انتهى المعروف ، فحط

الساغرون رحالهم في الشرق والغرب ، لأنه لم يبق من يقوم بواجبهم بعد " الناصر " :

قضى فتنى المعروف وانقرض الندى وحطت رحال الوفد في الشرق والغرب

وطالما أن معروفه قد عم الشرق والغرب ، فأُن أعين العجم والعرب ستغير بكاء  
على " الناصر " :

أفاقر على الدنيا سحال نواله ففاضت عليه أعين العجم والعرب

وكعادة الشعراء ، يدعو للمتوفى بأن يحزبه الله خير الجزاء ، وذلك

لما قام به من أعمال محيدة تجاه الأسلام ، وحرصه على رفع رايته :

جزاه عن الأسلام خير الله فما ملّ عنه من دفاع ومن ذبّ

تداركه بعد ابتدال فقد غدا وكان شديد الخوف في أمنح الحُب

والناصر أيضاً هو المجاهد الذي أنقذ " القدس " ، بعد أن قارع

الصليبيين وأذاقهم ويلات الحروب :

ودأصبح البيت المقدس منقذا بأصلب عنم من مقارنة الصلب (١)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

على هذا النحو أظهر الشاعر عظم وقع المصيبة على الأمة،  
 وعدّد خصال المتوفى، ووسط بينه وبين "القدس" التي حاهد لتحريرها،  
 ومن الملاحظ أن هذه المراثي كانت جامعة لكل صفات الصعد  
 والبطولة والإيمان في شخصية "الناصر" . ومن يمعن النظر فيها،  
 يعجب لوجودها في شخصية واحدة، وبخاصة في هذه الفترة التي  
 نحن بصدد ها . ولكن ان تعمّقنا سيرته وما أثبتته "ابن شداد" عن  
 حياته (١)، ندرك أن الشعراء كانوا يشيدون ببطل عرفوه حق  
 المعرفة، ولم يكن ذلك من قبيل المبالغة المجوححة، أو التطلّع  
 الى نوال من خلفائه .

ولمثل هذه المراثي قيمة كبيرة في تخليد منائب المتوفى،  
 وفي توحيه نظراً لأحياء الى القيم التي كان يتحلّى بها الحاكم المسلم .  
 ويلمس القارىء أن الشعراء كانوا يأملون في خلفاء "الناصر" أن  
 ينهجوا النهج الذي سلكه، وأن يتمثلوا الأسلام وتيممه، ويجدوا في مقارعة  
 الأعداء وجهادهم حتى يتم تطهير كل الديار من آثامهم . فصاروا  
 يفرغون الصفات التي رأوها في "صلاح الدين" على أولاده وخلفائه في كل مناسبة،  
 علّ هؤلاء الورثة يعيدون سيرة منقذ "القدس" .  
 ومن ذلك قول "ابن سناء الملك" في الملك "العزیز عثمان" (٢) بعد أن  
 هزم الصليبيين في "تبنين" سنة ٥٩٤هـ (٣) :

الشامُ للأسلام دارُ القرار      وكان من قبلٍ طريقُ القرار  
 وكان في ظلمةٍ ليلٍ دُخِستُ      فجاء عثمانُ معادُ النهار  
 وجاءهُ بالبرِّ بعد الضنى      وجاءهُ بالأمنِ بعد الحذار  
 فنلحظ الروح الإسلامية المسيطرة على الأبيات، فهذا الملك قام بنصرة الدين  
 وأحياء الإسلام، فأصبح في مأمن بعد أن أحيط بالظلام .

- (١) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، جميع الكتاب .  
 (٢) أحد أبناء صلاح الدين، وكان نصيبه الديار المصرية . ولد سنة ٥٦٨هـ،  
 وتوفي سنة ٥٩٥هـ . انظر أخباره في :  
 ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٨٣ .  
 ابن تغرى بردى، النجم الزاهرة، ج ٦، ص ١٢٨ .  
 أبو شامة المقدسي، الذيل على الروضتين، ص ١٦ .  
 (٣) انظر الموقعة في : ابن الأثير، الكامل، ج ١٢، ص ١٣٢ .  
 ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٣، ص ٧٥ .

ويعد أن يؤكد النصر الإسلامي ، يبين أن الهزيمة للكفر والمشركين .  
ويؤمن الشاعر بأن هذه الديار الإسلامية ، لا يمكن أن تسع للكفر باحتلالها :  
فيا أمان الكفر لا تأمنوا <sup>بالدرا</sup> بخطر ما الشام لكفر بدار  
ويطمع الشاعر أن يحقق الملك ما حقت له والده من بطولات  
وهزائم بالصلبيين ، فيقول محرضاً الملك " العزيز عثمان " :

ويا عماد الدين يما من له كل مبار في الأعداى ميار  
جئت لتبينن ومن حولها قوم كأعداد الحصى للحصار (١)

فهو نفس الاتجاه الذى لمسناه في القصائد الموجهة الى " صلاح الدين " .  
وكل ذلك شعور بفقدان " الناصر " ، وتطلع الى قائد يكون متحلياً بصفات  
البطل المتوقى . وهذا أمر طبيعي تشعر به الأمة عندما تفقد  
بطلها الذى حقق لها مكاسب كبيرة ، وعقدت عليه آمالاً أخرى بعد  
تحرير " القدس " .

وعندما انتصر الملك " الكامل " (٢) على الصليبيين في " دمياط " سنة ٦١٨ هـ (٣) ، قال " الحلبي " (٤) الشاعر :

هنيئاً فان السعد راح مخلصدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا  
حبانا اله الخلق فتحاً بدالنا ميينا وانعاماً ونزاً مؤبدا  
تملل وجه الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

واننا نلمس المشاعر الإسلامية المسيطرة على الأبيات ، فهي الطريقة نفيسها فسي  
مدح " الناصر " وتمجيد قوته وبطولاته . فالنصر من الله للإسلام ، والهزيمة  
للمشركين ، وهذا فقد أنجز الله وعده للمؤمنين ، وتملأ وجه الحق وعلا  
شأن الدين .

- 
- (١) ديوان ابن سناء الملك ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .
  - (٢) هو الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب  
الديار المصرية ، توفي سنة ٦٣٥ هـ بدمشق . انظر أخباره في :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٦٦ .  
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٧١-١٧٥ .
  - (٣) انظر الموقعة في : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٣٨-٢٤٢ .
  - (٤) هو شرف الدين راجع بن اسماعيل بن أبي القاسم الأسدي الحلبي .  
مدح الملوك بمصر والشام والجزيرة ، وسار شعره ، وكانت وفاته سنة ٦٢٧ هـ .  
انظر : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ ، ٢٧٥ .

ويتوجه الشاعر الى الملك " الكامل " ، فيشيد ببطولاته التي سحقت  
قوة الظالمين :

ولمّا طَفَسَ الْبَحْرَ الْخَضْمَ بِأَعْلَمِ الدَّ  
طَفْصَاةٍ وَأَضْحَى بِالْمَرَكَبِ مَزِيدَا  
ويستهزئ بما حل للصليبيين فيقول :

فلم ينجح الاكلُّ شلوْ مَجْدَلُ      ثوى منهم أو من تراه مُقَيِّدا  
ويعرض بعقيدة الصليبيين ، ويبين أن جميع الأنبياء كانوا على دين  
محمد ( صلى الله عليه وسلم ) :

أَعْبَادَ عَيْسَى اِنْ عَيْسَى وَحَزْبَهُ      وموسى جميعاً يخدعون محمدا (١)

من هنا فأنا نلمس الخط الواحد في المدح والأشادة بقوة المجاهدين  
والاستهزاء بالصليبيين . وهي تدلنا على رغبة الأمة في أن يواصل خلفاء " الناصر"  
الطريقة التي بدأها . كما أنها مؤشِّر الى شعورهم الكبير بافتقاد البطل ، إذ  
ما ينفك الشعراء يفرغون صفات " الناصر " على كل مدوح من ممدوحهم .

ومن مظاهر الشعور بفقدان البطل أيضا ، أننا نجد الشعراء في مدحهم  
خلفاء " الناصر" يمدحون البيت الأيوبي كله . ومن ذلك قول " العماد الأصفهاني"  
في مدح الملك " الأفضل " (٢) :

والقدسُ أَعْضَلُ دَاوُهُ مِنْ قَبْلِكُمْ      فوقيتم بشفاك ذاك المعضل  
درجَ الملوِكُ على تمنِّي فتَحِه      زمنا وغلثهم لم تبلغسل  
وأتى زمانكم فأمكن آخرا      ما قد تعذّر في الزمان الأول  
ما كان قط ولا يكون لفتحكم      للقدس في الماضي ولا المستقبل  
أوجدتم منه الذي عدم الوري      وفعلتم في الفتح ما لم يفعل (٣)

- (١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٢ .
- (٢) هو علي بن صلاح الدين يوسف بن أبوب ، كان يلقب بنور الدين ، وكان ولي عهد أبيه على الشام . ولد بمصر سنة ٥٦٥ هـ ، وكان فاضلا شاعرا حسن الخط . تقلّبت به الأحوال الى أن ألقاه الدهر في دسياط وبها توفي سنة ٦٢٢ هـ ، فنقل الى حلب . انظر :  
أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٤٥ .
- (٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

فرغم أن الشاعر في معرض مدحه الملك "الأفضل" ، إلا أنه دائم الذكر والأشادة بالبيت الأيوبي كله ، إذ أن لهم الفضل في جهاد الأعداء وتحرير "القدس" . وكأن الشاعر يريد أن يذكّر المدوح بخصال "الناصر صلاح الدين" ، الذي حقق أمل الأمة ، مما جعل الناس يقبلون عليه ويتعلقون به . وأهم خصلة ركّز عليها الشاعر ، هي جهاد الأعداء وتحرير "القدس" ، وذلك حتى يوجّه اهتمام المدوح إلى "المدينة المقدسة" ويبقى محافظاً عليها ، ويحميها من اعتداءات الغزاة .

واننا نحس من الأبيات السابقة شعورهم بافتقارهم البطل "الناصر" ، الذي تعلّقوا به وعقدوا عليه الآمال . وهم يريدون من كل حاكم بعده أن يكون صورة عن "صلاح الدين" .

ومن ذلك أيضاً ، قول "العماد الأصفهاني" في الملك "الظاهر غازي" (١) :

هم الملوك ذوو بأس ومكرمة  
ان سالموا أمنوا أو حاربوا خيفوا  
أغناهم القدس عن قول الوري فتحت  
عكا وصيدا وببيروت وارسوف  
جيش الفرنج اذا لاقى سوابقهم  
كأنه جبل بالريح منسوف (٢)

فمقارعة الصليبيين ، وفتح "القدس" ونيرها من المدن التي ذكرها الشاعر ، لا تنسجم بألقائها على المدوح ، إذ أن هذه الأعمال قام بها البطل "الناصر" ، لكن الشاعر ينظر في المدوح صفات المتوفى ، لذا يجعل قصيدته موجهة إلى كل الأيوبيين . وهكذا نحس مشاعر الوفاء من الشعراء تجاه البطل المتوفى من ناحية ، وشعورهم بالفراغ الكبير لوفاة من ناحية ثانية . وقد واصلت ألفتهم تلحج بذكره وتعداد مناقبه ، وأفرغوا هذه الخطال على ورثته ، عليهم يحذون حذوه .

(١) الملك الظاهر غازي بن يوسف بن أيوب ، ولد سنة ٥٨٨ هـ ، وكان نصيبه حلب . قال أبو شامة في ترجمته : "انه كان مهيباً ومحسناً إلى الرعية" وقد اشترك في غزوات كثيرة ضد الصليبيين . ولما اشتد مرضه أوصى بالملك لولده الأيسر محمد ، لأنه من بنت عمه العادل . وتوفي سنة ٦١٣ هـ . انظر :

أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ٩٤ .  
(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .



ورغم الآمال العريضة التي عقدتها الشعراء على خلفاء "صلاح الدين" ،  
 إلا أن شعورهم بالفراغ الكبير الذي تركه "الناصر" كان حقيقياً ، فلم يحافظ الوراثة  
 على المكاسب التي حققها "الناصر" .  
 ففي سنة ٦١٦هـ ، قام الملك المعظم "عيسى" (١) صاحب "دمشق" ،  
 بتخريب أبراج "القدس" وأسوارها ، خوفاً من تسليمها للصليبيين ، وقيام الأعداء  
 بقتل من فيها وتغيير معالمها . فتألم المسلمون ، وبكوا على ما حل بالمدينة (٢) .

- (١) أبو الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب  
 سلطان الشام المتوفى بدمشق سنة ٦٣٤هـ . انظر أخباره في :  
 ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٦٢-١٦٤ .  
 أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٥٢ .  
 ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٦٧ .  
 ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٢ ، ص ١٧٣ .
- (٢) وصف أبو شامة هذا الخراب فقال : " ان الملك المعظم أخرج أبراج  
 القدس وسوره خوفاً من استيلاء الفرنج عليه ، فاضطرب الناس وخرجوا منه  
 متفرقين في البلاد ، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم ، وقد  
 كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة وكثرة السكان . وكان  
 رأى الملك المعظم أنه لو استولى الفرنج على القدس لقتلوا كل من فيه  
 وحكموا على دمشق وبلاد الشام ، فألجأت الضرورة الي خرابه ، فوقع  
 في البلد ضجة مثل يوم القيامة ، وخرج النساء المخدرات ، والبنات  
 والشيوخ والعجائز ، والشبان والصبيان الي الصخرة والأقصى ، فقلعوا  
 شعورهم ومزقوا ثيابهم بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من  
 الشعور ، وخرجوا هاربين وتركوا أموالهم وأثقالهم ، وما شكوا أن الفرنج  
 تصحبهم وامتلات بهم الطرقات . فبعضهم الي مصر ، وبعضهم الي  
 الكرك ، وبعضهم الي دمشق . ومات خلق كثير من الجوع والمطر .  
 وكانت نوبة لم يكن في الإسلام مثلها " . انظر :  
 أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٥-١١٦ .  
 وانظر في هذا الحدث أيضا :  
 ابن واصل ، فرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٣٢ .  
 ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٤-٢٤٦ .



وقد رثى الشعراء حال المدينة المقدسة ، وتذكروا وضعها في عهد  
 " صلاح الدين " . فقال " مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفي " (١) يصف  
 " القدس " بعد خرابها ، ويذرف الدموع على ما حل بها :

مررتُ على القدس الشريف مسلماً      على ما تبقى من روع كأنجم  
 ففاخت دموع العين مني صباةً      على ما مضى من عصرنا المتقدم  
 وبعد هذه الدموع التي أفاضها الشاعر على " القدس " ، يدعو على  
 الأيدي التي كانت سببا في الخراب فيقول :

وقد رام عليّ أن تُعفى رسومها      وشمر عن كفٍّ لئيم مُذمّم  
 فقلتُ له شُلت يمينك خاها      لمعتبر أو سائل أو مسلم  
 فنحس مشاعر الكره الكبير تجاه الملك لما اقترفت يداه . لكن الشاعر لا يملك إلا أن  
 يدعو عليه ، مما يشير إلى اليأس الكبير الذي كان يعاني منه .  
 ثم يعبر عن آهات المسلمين جميعهم ، حيث يتمنى  
 لو كان " القدس " يفدى بنفسهم :

فلو كان يفدى بالنفوس غديته      بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (٢)  
 واننا نلحم غنى القصيدة بالمشاعر المتنوعة . فهي تعبير عن مشاعر  
 التقديس تجاه المدينة ، ومشاعر الحزن لما حل بها ، ثم مشاعر الكره  
 والسخط على الذي كان سببا في خرابها . وكل هذه المشاعر تعبير  
 عن انفعالات الأمة وأحاسيسها .  
 لكن الشاعر لم يزد على أن سجّل لنا هذه الانفعالات تسجيلاً حرفياً ،  
 فوصف وقع الخراب في النفوس ، ولم يحاول استثارة المسلمين لمجاورة  
 مثل هذه الأعمال . ومن هنا ، فالقصيدة لم تتجاوز حدود البكاء والصويل  
 على خراب " القدس " .

(١) انظر أخباره في :

أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

وكذلك : ابن تخرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٥ .



ويصف "ابن المجاور" مشاعر الأمة الحزينة على خراب "القدس" ،  
ويطلب من كل المسلمين أن يبكوا على المدينة المقدسة ، ثم يطلب من "مكة"  
أن تبكي وتشكو حال المدينة المقدسة الى جبل عرفات الذي يقف عليه  
المسلمون في الحج . ويطلب من "المدينة المنورة" أن تحزن لحال "القدس" ،  
وتبث مشاعرها الى الحجر الأسود الذي يوسعه المسلمون لثما :

لتبكي على القدس البلاد بأسرها      وتعلن بالأحزان والترهات  
لتبكي عليها مكة فهي أختها      وتشكو الذي لاقك السى عرفات  
لتبني على ما حل بالقدس طيبة      وتشرحه في أكرم الحجرات

وبعد هذه المشاعر الإسلامية التي بثها الشاعر ، يجعل كل المدن  
الإسلامية تحزن لخراب "القدس" ، يصف صدى هذا الخراب عند الصليبيين ،  
من خلال ذكره شماتة "صور وعكا" لما حصل "بالقدس" :

لقد أشمتوا عكا وصوراً بهدمها      وباطالما غادرتها بشمات  
ان تشقي "صور وعكا" ، رمز الى شماتة الصليبيين ، حيث كانت المدينتان في  
أيديهم آنذاك .

ويبين الشاعر حقيقة ما حصل لأهل "القدس" بعد خرابها ، اذا اضطروا  
الى مغادرتها والتشتت في مناطق مختلفة :

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها      وكل اجتماع مؤذن بشمات  
وقول الشاعر هذا يتفق مع ما ورد في الكتب التاريخية عن أحوال المسلمين بعد  
خراب "القدس" (١) .

وحتى يشنع على الذين كانوا سببا في خراب "القدس" ، يذكر مجد  
"صلاح الدين" ، ويعظم من هول جريمة تخريب "القدس" ، ويبين أن خلفاء  
"الناصر" بهذا العمل قد اضاعوا كل المجد الذي حققه "الناصر" :

وقد هدموا مجد صلاح بدمها      وقد كان مجداً بانح الغرفات  
وقد أهدموا مجداً وصيتاً أناره      لهم عظم ما ولوا من الغزوات (٢)

(١) انظر :

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٤٥ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

ومما زاد في حزن المسلمين وشعورهم بافتقارهم "الناصر" ، أن خلفاء "صلاح الدين" شغلوا بخلافاتهم ، ولم يؤثروا الصالح العام على مصالحهم الخاصة ، ولم يتفانوا من أجل دينهم وأمتهم ، فتشتتت أمور الدولة الإسلامية التي جاهد المسلمون من أجل توحيدها (١) .

ويبلغ حزن المسلمين ذروته ، عندما اتفق عما (٢) الملك "الناصر داود" على خلع ابن أخيهما ، وتهادنا مع الصليبيين على أن يسلموا "القدس" ومواضع أخرى ، وتبقى باقي البلاد مثل "الخليل ونابلس وطبرية" بيد المسلمين ، وكان ذلك سنة ٦٢٦هـ (٣) .

(١) بعد وفاة "صلاح الدين" ، كانت الديار المصرية للملك العزيز عثمان ، والشام للملك الأفضل ، وحلب للظاهر غازي ، والكرك والشويك للملك العادل سيف الدين ، وحماة وتوابعها للملك المنصور ، وحمص لأسد الدين شيركوه الصغير ، واليمن للملك الظهير الدين طغتكين بن أيوب . استقل كل واحد في مملكته ، ثم دب الخلاف بينهم ، فكان التنازع بين ملكي مصر والشام على السلطة ، ولكنهم أجمعوا على تولية الملك العادل . وبعد وفاته صار الخلاف بين أولاده ، حيث توجه الملك الكامل محمد صاحب مصر إلى الشام لينزعه من أخيه الملك المعظم عيسى ، لكن الثاني استنجد بأخيه الملك الأشرف موسى صاحب ميافارقين والبلاد الجزرية . وهكذا كانت سيرة هؤلاء الملوك تتسم بالخلافات والتنازع على السلطة . انظر : ابن الأثير ، الكامل ، أخبار متفرقة في الجزء الثاني عشر ، من أحداث سنة ٥٩٠هـ - سنة ٦٢٦هـ .

ابن واصل ، مفرج الكرب ، أخبار متفرقة في الجزء الرابع .  
(٢) هما الملك الكامل محمد صاحب مصر ، والملك الأشرف موسى صاحب ميافارقين والبلاد الجزرية .

(٣) وتفصيل ذلك ، أنه بعد وفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق ، استقل الملك الكامل محمد هذه الفرصة وتوجه إلى الشام لينزعها من ملكها الجديد الناصر صلاح الدين داود ، فاستنجد الثاني بعمه الأشرف . فاستقل الصليبيون هذه الفوضى ، وعادوا إلى الديار واحتلوا "صور" . ثم اتفق عما الملك على خلعهم ، وتهادنا مع الصليبيين على أن يسلموا اليهم القدس ، وتم ذلك سنة ٦٢٦هـ . انظر :

الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٨٢ . النجم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٧١ .

الذيل على الروضتين ، ص ١٥٤-١٥٦ .

مفرج الكرب ، ج ٤ ، ص ٢٤١ .



وكان لعملية تسليم "القدس" الى الصليبيين صدى كبير في  
النفوس . فبكى الناس وتألّموا . . . وحزنوا وتفجّصوا . . . ورثوا  
حال المدينة المقدسة . . . وافتقدوا محررها "صلاح الدين" ، وأخذوا  
يذمّون الملك "الكامل محمد" ويشتمّون عليه .

فأنشيد الشعراء معبرين عن هذه الفاجعة المؤلمة ، وافتقدوا  
البطل الذي يذلم الصفوف ويعيد اليهم "القدس" من جديد .  
ومن هؤلاء الشعراء "ابن الجاور" الذي أنشد يحثّ عينيه على أن  
تجسودا بالبكاء على "القدس" ، ويطلب من فمه أن ينوح على ما حل بالمدينة ،  
علّ ذلك يطفىء ما في قلبه من حسرات :

أعيني لا ترقني من العبرات      صلي في البكا الآصال بالبكرات  
لعل سيول الدمع يطفىء فيمها      توقّد ما في القلب من حجرات  
وما تمّ نوح بالشجر منك لعله      يروح ما ألقى من الكبريات

وحتى يحقق الشاعر استنارات دينية في نفوس المسلمين ، ينتقل  
الى بيان أهمية "القدس" الدينية ، ومكانتها عند المسلمين . "فالقدس" تتميز  
بمسجدها الأقصى الذي فضّله الله على أماكن العبادة ، فكان ثالث الحرمين  
الشرين . والصخرة المشرفة تختص بأنها كانت موقع معراج النبي (عليه السلام) ،  
الى السماوات العلى . كما أن "بيت المقدس" هو القبلة الأولى عند المسلمين ،  
حيث كانوا يتوجّهون في الصلاة اليها قبل أن يتوجّهوا الى الكعبة المشرفة :

على المسجد الأقصى الذي جل قدره      على موطن الأخبات والصلوات  
على سلم المعراج والصخرة التي      أنافت بما في الأرض من صحرات  
على القبلة الأولى التي اتجهت لها      صلاة البرايا في اختلاف جهات

ان هذه الأمور تربط "القدس" بالعقيدة الإسلامية ، فتزيد من تعلق المسلمين  
بالأرض المقدسة . وطالما أنها تتميز بكل تلك الميزات ، فهي من الأماكن  
المقدسة ، بأرضها وسكانها ومبانيها :

على خير معصور وأكرم عامر      وأشرف مبني لخير بناءة (١)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٥-٢٠٦ .



ويستعرض الشاعر صورة "القدس" قبل التسليم وبعده . فكانت المكان الذي يأوي اليه المسلمون المتعبدون ، ويعكفون في خلواتهم يناجون الخالق ، ويستغفرون على ما بدا منهم من أعمال تفضيه ، فكانت بذلك الأرض التي لا يمل منها التائبون . ولكن بعد أن سلّمت إلى الصليبيين ، ذهبت حرارة الأيمان من النفوس ، فخلت من حنان التائبين وحزنهم ، ومن بر الصلّين واحسانهم ، فأصبحت أرضاً عادية لا تميّز بالمشاعر الدينية وبخلوات المتعبدين :

وما زال فيه للبنين معبداً

يوالون في أرجائه النجدات

عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الر

سرفيح العماد العالي الشرفات

يوافي اليه كل أشعث قانت

لمولاه بر دائم الخلوات

خسلا من صلاة لا يمثل مقيمها

توشح بالآيات والسورات

خلا من حنين التائبين وحزنهم

فمن بين نواح وبين بكاة

وهكذا تحوّل الأقصى إلى مكان للعويل والبكاء بدل العبادة والتقرب

إلى الله . ثم يشير الشاعر إلى ما حدث " للقدس " قبل عشر سنوات من تاريخ التسليم ، وذلك حين أقدم الملك " المعظم عيسى " على هدمها فيقول :

لقد أشمتوا عكا وصوراً بهدمها

ويا طالما غادرتها بشمات

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها

وكل اجتماع مؤذن بشتات

ويهدف الشاعر من ذلك أن يربط بين أعمال الأيوبيين خلفاء " الناصر " ،

فبين جريرتهم على المسلمين ، وما أحدثوه ابتداءً من هدم " القدس " وانتهاءً

بتسليمها إلى الصليبيين . وكل ذلك من شأنه هدم المجد الذي بناه جددهم :

وقد كدّموا مجدّ الصلاح بهدمها

وقد كان مجدداً بانح الخرفات

وقد أحمّدوا مجدداً وصيتاً أناره

لهم عظم ما والوا من الغزوات (١)

ويشّح الشاعر على الأيوبيين خلفاء " الناصر " بسبب أعمالهم ، ويعظم

من هول جريمة التسليم ، ثم يذكرهم بمجد جددهم الذي سجّل للأيوبيين كلهم ،

لأن تحرير " القدس " أساس ملكهم ، فهي كالزهرة التي هي أصل الثمرة :

أما علمت أبناء أيوب أنهم

بسماته عدّوا من السروات

وأن افتتح القدس زهرة ملكهم

وعمل تمرّاً لا من الزمرات

ويختم قصيد تمجيدت فيه كل مظاهر الصويل والبكاء على " القدس " ، حيث

يطلب نواحا ينحن على ما حل " بالقدس " :

فمن لي بنواح ينحن على الذي

شجاني بأصوات لمن شجاة (١)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

وهكذا نلاحظ سيطرة المشاعر الحزينة على كل القصيدة ، كما أنها تثير وجدان المسلم حين تشده بالمدينة المقدسة . يضاف الى ذلك أنها تذكر "بصلاح الدين" محرر القدس ، وتشعر المسلمين بافتقارهم بطلهم . ومن الملاحظ طغيان الوصف الحرفي لمشاعر المسلمين في القصيدة ، أكثر من محاولة بعث الهمم في النفوس ، وحثهم على ضرورة تجاوز الواقع السيء الذي يعيشونه . ومعروف أن الشاعر الذي يستطيع أن يتخذ من موقف البكاء ، مواقف أخرى لتغيير الوضع الذي يعيشه المسلمون ، أقدر من الشاعر الذي يبقى محصوراً في دائرة البكاء والعيويل .

ولكن يبدو وأن نفسية المسلمين آنذاك ، ووضع "القدس" المبكي ، وافتقارهم البطل الذي يعيد اليهم الأمل من جديد ، كل ذلك كان عاملاً في سيطرة البكاء والعيويل على القصيدة أكثر من أي شيء آخر . وكأن الشاعر رأى الناس في هذه الحالة المشجبة ، يبكون وينوحون على "القدس" ، فيكي وناح بشعره ، دون أن ينقذ الى أبعاد فنية جديدة ، تحاول النهوض بالمسلمين وشحن هممهم .

ولكن فرح المسلمون من جديد عندما تمكّن "الناصر داود" (١) من تحرير "القدس" سنة ٦٢٧هـ (٢) ، فعبر "ابن مطروح" (٣) عن هذه الفرحة قائلاً :  
 المسجد الأقصى له عادة  
 سارت فصارت مثلاً سائراً  
 اذا غدا الكفر مستوطننا  
 أن يبعث الله له ناصراً  
 فالشاعر مدرك أطماع الأعداء في "القدس" ، حتى صار أمراً احتلالاً له عادياً ، لأن هذا الاحتلال لا يدوم طويلاً ، إذ سرعان ما يهيء الله له ناصراً ينقذه من الآثمين . ويربط الشاعر بين "الناصر داود" و"الناصر يوسف" فيقول :  
 فناصر طهره أولاً  
 وناصر طهره آخراً (٤)

- (١) هو الملك الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبو بكر بن أيوب . كان سلطان دمشق بعد أبيه نحو من سدة ، ثم اقتصر له على الكرك وأعماله ، ثم سلب ذلك كله ، وصار متنقلاً في البلاد موكلاً عليه ، وثارة في البراري الى أن مات في البويعا جنوب دمشق وذلك سنة ٦٥٦هـ . انظر : أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٥٢-١٥٣ .
- (٢) انظر : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، ص ٥ . الذيل على الروضتين ، ص ١٥٣ .
- (٣) انظر أخباره في : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٢٥٨ .
- (٤) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ . أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

ويتحقق قول " ابن مطروح " في " القدس " ، اذ اتفق الملك " الناصر داود والصالح اسماعيل " صاحب " دمشق " على تسليم " القدس " من جديد الى الصليبيين ، وذلك سنة ٦٤١ هـ (١) .

ولكن تمكن الملك " الصالح " نعم الدين أيوب " من تحرير " القدس " نهائيا سنة ٦٤٢ هـ (٢) . وبذلك يكون التحرير النهائي على أيدي الأيوبيين أيضا ، رغم ما قاموا به من عمليات التسليم .

فصار الشعراء ينظرون الى الصليبيين بنظرة سخرية واستهزاء ، بل نلج التمدد والتكلم في الآونة الأخيرة (٣) . ومن ذلك قول " ابن مطروح " :

قل للفرنسيين اذا جئتسه

مقال صدق من قول فصيح

آجرك الله على ما مضى

من قتل عباد يسوع المسيح (٤)

فالشاعر ينصح قائد الصليبيين بترك البلاد نهائيا ، اذ لم يعد لهم مقام فيها ، ثم يذكره متهكما بقتلهم ، وذلك بسبب طيشه وسخف عقله . ويقول شاعر آخر مستهزئا بالفرنسيين أيضا :

قل للفرنسيين ان كالأ

له من المسلمين شاكر

لأنه محسن اليانا

بقوده نحونا العساكر

فالشاعر يشكر القائد الصليبي بماى توجيهه الجيوش الى المسلمين ، لأنه بذلك قد حقق أجرا للمسلمين عند الله بجهادهم .

ثم يتمنى الشاعر أن يعود الجيش الصليبي ، حتى لا يبقى المجاهدون منهم أحدا ، فيستريح المسيح (عليه السلام) من الأجلح الكفار :

أعاده الله عن قريب

لملها انه لقادر

بحيث لم يبق للنصارى

من بعد كسر الصليب جابر

ويستريح المسيح منهم

من كل عالج وكل كافر (٥)

(١) انظر: مجير الدين الحنبلي ، الأانس الجليل ، ج ٢ ، ص ٦٠٦ .

(٢) انظر: المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٧٠ .

(٣) بيد وأن هذه الأشعار قيلت بعد رد الفزاة في معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ .

(٤) ديوان ابن مطروح ، ص ١٨١ .

(٥) فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ٨٤ .



وهكذا كانت الأشعار بعد وفاة " الناصر " بكائية في  
طابعها العام . فمن رثاء البطل الى بكاء "القدس" ، والى  
أشعار تفتقد البطل في مضامينها . وهي كلها تعبير عن  
أحاسيس الأمة في تلك الفترة .

ولكن مما يؤخذ عليها ، أنها كانت وصفا حرفيا لأحاسيس  
الأمة ومشاعرهم ، فلم يعمد الشعراء الى وسائل الأثارة والتحرير ،  
بدل البكاء الحقيقي .

ومما يكن من أمره ، فإن لهذه الأشعار قيمة كبيرة ما  
نستطيع من خلالها التعرف على فترات الانحسار والتراجع التي  
مرت فيها الأمة . وهي تدلنا على أن الشعراء بقوا متابعين  
الأحداث التي مرت بها الأمة ، وعبروا عن منحنيات مشاعرهم  
تجاه الأحداث .

## الفصل الخامس

دور المفسر في تسجيل الأحداث التاريخية

## دور الشعر في تسجيل الأحداث التاريخية

عاشت الأمة حالة حرب طويلة مع الغزاة الصليبيين . ورغم ما مرت به من فترات انحسار وتراجع ، إلا أنها تمكنت من تحرير المصن والقلع والحصون . ونريد أن نتبين مدى مواكبة الشعراء لأحداث هذه الحرب ، وامكانية الاعتماد على الشعر كمصدر للمعلومات التاريخية ، في الصراع بين المسلمين والصليبيين .

بدأت عمليات تحرير الديار من الغزاة في عهد عماد الدين زنكي ، حين التقى بالصليبيين سنة ٥٣١ هـ ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على " حصن بارين " بعد تلك الموقعة (١) . فأشاد " ابن القيسراني " في هذه الموقعة يحذر الصليبيين من فتك سيفهم المسلمين . ونستدل من التحذير أن النصر كان للمسلمين حيث يقول :

حذارِ منّا وأنّى ينفِغُ الحُدْرُ      وهي الصوارمُ لا تُبقي ولا تُذرُ  
وأين ينجو ملوكُ الشركِ من ملكٍ      من خيلهِ النصرُ لا بل جندُهُ القُدْرُ

وندرِك نتيجة الموقعة ، من خلال هذا التفاؤل الكبير ، والثقة العارمة بقوة المسلمين ، والاستهزاء بموقف الصليبيين أمام المسلمين :

فلا تخفِ بعدُ ما الأفرنجُ قاطبةً      فالقسومُ ان نَفروا ألوى بهم نفرُ  
ان قاتلوا قُتلوا أو حاربوا حُربوا      أو طاردوا طردوا أو حاصروا حُصروا (٢)

وهكذا كل القصيدة اعتراف بقوة المسلمين ، وتمجيد لبطولاتهم ، ولا نجد فيها ما يلقي أضراراً على المعركة وجوانبها ، بل لا نجد فيها حتى اسم الحصن الذي حرره المسلمون ، مما يشير إلى أن الشاعر لم يشغل نفسه بتفاصيل تاريخية عن المعركة ، بقدر ما كان يهتم تهجيد البطولة ، وبث الحماس فسي النفوس .

(١) انظر الموقعة في :

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٥١ .

ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٣٩ .

يذكر الجزري أن اسم الحصن هو " الأتاب " ، وأما صاحب الروضتين

فيذكر تاريخها ب ٥٣٤ هـ . انظر : ج ١٠ ، ص ٣٤ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٤ .

وبعد انتصار عماد الدين "على الصليبيين في "شيزر" سنة ٣٢٤هـ (١)،  
أنشد "ابن تميم الحموي" ، يبين الصعاب التي واجهها المسلمون في هذه الموقعة ،  
حيث كان الصليبيون مستعدين للقاء المسلمين ، ولكن كانت الدائرة عليهم فانتصر  
المسلمون وحرروا الحصن :

بمزمك أيها الملك العظيم	تذل لك الصعاب وتستقيم
الم تر أن كلب الروم لما	تبين أنك الملك الرحيم
فجاء يطبق الفلوات خيلاً	كأن الجحفل الليل البهيم
وقد ترك الزمان على رضاه	فكان لخطبه الخطب الجسم
فحين رميته بك في خميس	تيقن أن ذلك لا يدوم (٢)

فهذه القصيدة على منوال قصيدة "القيسراني" ، لا نجد فيها ما ننتفع  
به من معلومات تاريخية ، سوى أن الصليبيين كانوا مهئين أنفسهم للهجوم ،  
وكانوا مخططين لامتلاك أراض واسعة ، ولكن انقلبت عليهم مخططاتهم ، فكان  
النصر حليف المسلمين . ويمكن أن يكون هذا الوصف منطبقاً على مواقع أخرى  
كثيرة ، وليس على هذه الموقعة فحسب . كما أننا لا نستطيع تحديد الموقعة من  
خلال هذه القصيدة ، ولا نستدل على الحصن الذي حرره المسلمون .  
وهكذا فقد كان الشاعر مشغولاً بالاعتزاز بالنصر ، أكثر مما يهتم بتمييز  
الموقعة عن غيرها من المواقع . ولولا معرفتنا بمناسبة القصيدة ، لما استطعنا  
ادراك المناسبة من القصيدة نفسها .

- (١) يذكر المؤرخون أن حصار المسلمين استمر أربعة وعشرين يوماً ، قبل أن  
يستسلم الصليبيون ويسلموا الحصن . انظر :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٦ .  
ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٥٥ .  
ومما يذكر ، أن المسلمين أدركوا أن احتلال الحصن يعني احتلال كافة  
مناطق حماة ، فاستطاع زنكي أن يوهم الصليبيين بأنهم كثيرون العدد ،  
فما كان من الأعداء إلا أن رحلوا عن الحصن مخلفين مجانيقهم وأسلحتهم .  
انظر : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ .
- (٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤٧١ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٢ .

وبعد فتح " الرها " سنة ٥٣٩ هـ (١) ، سجل " ابن القيسراني " هذا الفتح ، وحدد الفترة الزمنية التي بقي فيها الصليبيون مسيطرين على " الرها " ، وهي خمسون عاما فقال :

لقد كان في فتح الرها دلالة  
يُرجنون ميلاد ابن مريم نصرته  
على غير ما عند الملج اعتقاده  
ولم يفن عند القوم عنه ولادته  
مدينة افك منذ خمسين حجة  
يفل حديد الهند عنها حداده (٢)

ونعلم من قصيدة ثانية ، أن المسلمين تمكنوا من فتح المدينة بعد ثمنها وحصارها . كما أن لهذه المدينة أهمية خاصة ، حيث كانت من الإمارات المهمة بالنسبة الى الصليبيين ، ولذا يعتبرها " القيسراني " فتح الفتح فيقول :

ان الصفائح يوم صافت الرها  
فتح الفتح مبشرا بتما مه  
عطفت عليها كل أشوس ناكب  
كالفجر في صدر النهار الآيب  
أترى الرها الورها يوم تمنعت  
ظنت وجوب السور سورة لأعب (٣)

وقد أكثر المسلمون من الأسر والقتل حتى فتحت " الرها " ، كما كسبوا غنائم كثيرة من الصليبيين ، فاستحق هذا الفتح السمو على كل الفتوحات ، وذلك لأهمية المدينة من ناحية ، ولما حققه المسلمون من ناحية ثانية . وسجل كل ذلك " ابن منير الطرابلسي " في قوله :

جمعت الى فتح الرها سد باب  
هو الفتح أنسى كل فتح حديثه  
بجمعك بين النهب والأسر والقتل  
وتن مسطور الرواية والنقل (٤)

(١) انظر في الفتح : الكامل ج ١١ ص ٩٨ .

النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٥ .

تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٦٦ .

(٢) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعرا ، الشام ج ١ ص ١٥٥ .

أبو شامة المقدسي ، الروضتين ج ١ ص ٣٧-٣٨ .

(٣) المصدر السابق ج ١ ص ٣٨ .

(٤) المصدر السابق نفسه ج ١ ص ٣٩ .

وسجل " ابن منير الطرابلسي " في قصيدة ثانية ، أهمية هذا الفتح على كل الفتوحات . ثم نعلم أن " عماد الدين " كان قائد المجاهدين ، " وجوسلين " قائد الصليبيين من قوله :

بعماد الدين أضحت عروة الدي  
والرهما لو لم تكن الا الرهما  
برنست رأس برنسن ذلّة  
بعسدا ما جاست جوايا جوسلين (١)

وهكذا فقد دقق الشعراء في هذا الفتح أكثر من الفتوحات السابقة ، فذكروا اسم المدينة التي تم تحريرها ، ووصفوا تمتعها ، كما ذكروا اسمي القائدين ، وحددوا الفترة الزمنية التي سيطر فيها الصليبيون على المدينة . وكل هذه المعلومات ، تضيف قيمة تاريخية كبيرة على هذه القصائد .  
ويبدو أن أهمية الفتح جعلت الشعراء يدققون في هذه المعلومات التي تتعلق بالفتح ، فلم يقصروا اهتمامهم على الأشادة بالمجاهدين والاستهزاء بالصليبيين .

ورغم هذه التفاصيل التاريخية ، إلا أن هناك جوانب أخرى لا نجدنا في القصائد ، مثل مدة الحصار ، وكيفية تسليم المدينة ، وبعض القصص التي تميز بها هذا الفتح ، وأدوات القتال التي استعملها المجاهدون المحاصرون ، وأدوات المدافعين ، وغير ذلك من معلومات (٢) .

وبعد وفاة " عماد الدين " سنة ٥٤١هـ (٣) ، وتمكن " نورالدين " من القضاء على العصيان الذي قام في " الرهما " (٤) ، وفتحها ثانية بعد " عماد الدين " .

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٣٩ - ٤٠ .
- (٢) يذكر المؤرخون أن الحصار دام ثمانية وعشرين يوماً ، كما أن عماد الدين تظاهر بالمجموع على مواقع أخرى في البداية حتى ترك الصليبيون الرهما ، فعاد عماد الدين وحاصر المدينة . انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ٩٨ .
- (٣) تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٦٦ . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ . انظر في وفاته : ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٨٤ .
- (٤) طمع الصليبيون من جديد في استعادة ما كان بحوزتهم من الديار الإسلامية ، حيث راسل جوسلين أهل الرهما من الأرمن ، فقاموا بعصيان ضد نورالدين ، لكنه تمكن من القضاء على العصيان في مهده . انظر: ابن واسل ، مغز الكروب ، ج ١ ، ص ١١١ - ١١٢ . ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ١١٤ . ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ٨٦ . أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٩ .

ونستدل من شعر " ابن منير الطرابلسي " أن هذا أول فتح تحقق من بداية عهد " نور الدين " حيث يقول :

ملك ما أذلّ بالفتح أرضاً      قطّالا أعزّما اغلاقه  
والوها في الرها أزجى إليها      عارضاً شيب الدجى ابراقه  
تلك بكر الفتح فالشام منها      شامة والعراق بعد عراقه (١)

ومما يزيل اللبس بين هذا الفتح في عهد " نور الدين " ، والفتح السابق في عهد " عماد الدين " ، هو ذكر " ابن منير الطرابلسي " لنور الدين " في قصيدة ثانية حيث يقول :

بنور الدين روض كل محل      من الدنيا وجد كل بال  
أقام على ثنية كل خوف      سهادا بات يكل كل كال (٢)

ويسجل " الطرابلسي " موقعة " بصرى " (٣) التي جرت سنة ٥٤٢ هـ (٤) ، كما يذكر اسم بطلها " نور الدين " فيقول :

أى شأن أدركت يا نور دين ال      له أعى على الملوك لحاقه  
سل بصيرا كم أعتقت يوم بصرى      من أسارى الموت الزوام عتاقه (٥)

وندرک من قول " الطرابلسي " أن المسلمين أسروا عددا من الصليبيين بالإضافة إلى النصر الذى أحرزوه .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٤٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٠ .

(٣) بصرى ، من أعمال دمشق ، مشهورة عند العرب قديما وحديثا . انظر :

ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٤٢ .

(٤) انظر : أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥١ .

(٥) المصدر السابق ، من الصفحة اياها .

ويبدو ان اصرار المسلمين على الجهاد قد اثار مخاوف الصليبيين ، مما اجعلهم يقومون بحملة صليبية ثانية سنة ٥٤٣ هـ ، ويتوجهون الى " دمشق " (١) .  
وصف ابو الحكم الاندلسي " كثرة الصليبيين الذين قدموا من مناطق مختلفة ويذكر انضمامهم الى الغزاة المحتلين في " فلسطين " فيقول : -

اتانا مائتا الف  
بعضهم من اندلس  
ومن عكا ومن صر  
اذا ابحرتهم ابحر  
عده هذا التسجيل لعدد هم وانتم المختلفة ، يذكر الشاعر حقيقة تاريخية عرضت  
عن الصليبيين اثنا حملاتهم وهي اخراق البساتين واتلاف المزروعات ،  
ولكن حرقوا في عدا  
وجازوا العرج والتعد  
وندرك من وصف الشاعر لفرحهم ، انهم كانوا يحملون القرابين والصلبان ، بالاضافة  
الى اقتنائهم الخزائن :  
تخالهم وقد ركبو  
وبين خيامهم ضموا  
ورايات ولها نسج  
قلنا اذ رايناهم  
ونعلم ان حاكم " دمشق " آنذاك هو " معين الدين اتر " ، حيث يشر الشاعر اليه والى  
المجاهدين الذين تصدوا للمهاجمين :  
سالهم معين قس  
وفتيان تخالهم  
وندرك ضراوة القتال وشجاعة المجاهدين في هذه المعركة الكبيرة حيث يقول الشاعر : -  
نولوا يطلبون المسر  
ولكن غادروا البس

عديدا او يزيد ونسج  
وبعض من فلسطين  
ومن صيدا وتبنيها  
ت اقرا ما مجانبها  
جل الحال البساتين  
جل ايضا والعياد  
فطائرها حراذ ينسج  
خنازير والقرابين  
على مسجد خاتون  
لعل الله يكفينسج  
اجان الخلق والد ينسج  
لدى المهيجا شياطينسج (٢)  
ج من شرقي جرنسج  
س تحت الثرب مد فوسج

(١) كان على رأس الحملة ملك الالمان كونراد الثالث واشترك معه ملك فرنسا لويس السابع وذلك سنة ١١٠٠ م .  
انظر : ستيفن رنسان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص ٤٦٢ .  
وانظر : ابن الاثير ، ج ١١ ، ص ١٢٩ - ١٣١ .  
ابن الاثير الجزري ، تاريخ الدولة لاتبكية ، ص ٨٨ .  
(٢) ابو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٣ .



ونستنتج ان عدد قتلى المسلمين بلغ السبعين في الموقعة ، منهم الفقيه "الفندلاوى"  
المالكي (١) .

وشيخا فندلاوي  
ولقيانا تقاترا  
ورغم كثرة الصليبيين الا ان الدائرة كانت عليهم ، وقد قتل منهم مائتان ، وهلك تسعون من  
خيلهم ، كما فر الباقون من الموت ،  
ومنهم مائتا عيسى  
واقبهم العيسى الآفة

والقتل نحو تسعين  
من القتل بمرورنا (٢)  
بالقيمة وثيقة تاريخية مهمة ، إذ تصف وصفا دقيقا الحطة الصليبية الثانية والهجوم على  
"دمشق" وقد دقق الشاعر فيما يتعلق بعدد الصليبيين وقتلاهم وتنوع جنسياتهم ، وسأله  
المجاهدين وقتلاهم ، وذكر اسم حاكم "دمشق وجهاده" ، وشجاعة الفقيه الشهيد  
وغير ذلك من معلومات تاريخية  
ولولا أهمية القصيدة من الناحية التاريخية ، لما استحدثت من الخوف ، إذ انها توحى  
بقدره الشاعر الفقيه على تعمق الأحداث وتسجيلها بطريقة الشعر الخاصة ، بل كانتا امتسام  
مؤرخ عادي يقوم بتسجيل وقائع الاحداث .

وفي سنة ٥٤٣ هـ ايضا ، جمع صاحب "انطاكية" الصليبيين ، وهاجموا "نهر الديسن"  
في بغري " وفي موانع قرب " حلب " والحقوا بالبيش الاسلاني بعض الخناسر (٣)  
واننا ندرك نتيجة هذه الموقعة من خلال اعتذار "ابن منير الظرابلسي" عن المجاهدين  
وما لعلمهم ، حيث يذكرهم بعبارة "حينئذ" فيقول :

لم يثنه من ما بغري ان فسر الا  
كان ليها ليث العرين حتى الا  
وشبه النبي يوم حنين  
وهي الحرب لعلها يحسن الكسر

الاشابات زاد منها ان لا تسه  
بال منه فضبان كالنار ما تسه  
اذ لا قرادوا هم دريا تسه  
ان عرض ياسها لانياتسه (٤)

(١) ما يذكر ان الفقيه الفندلاوي والشيخ الزاهد عبدالرحمن الحلحول قد قتل في مكان واحد  
اشاء جهادها في هذه الموقعة . وقد حاول معين الدين ان يمنع الفقيه من القتال لكبره  
لما كان من الشيخ الا ان قال : " قد بعث واشترى فلا ثقيله ولا نستقيه " يعني رسول  
الله تعالى ، ( ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة ) وتقدم  
فقاتل حتى قتل . انظر :

الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٢ - ٥٣ .  
(٢) الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٤ .  
(٣) انظر ، ابن الفلاني ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .  
(٤) الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٥ .

ونحن هذه المنزلة أيضا في قصيدتين نظمهما " ابن القيسراني " بعد  
أن التقى " نور الدين " بالصليبيين ، وحقق انتصارات كبيرة في السنة نفسها (١) ،  
فيقول في الأولى :

حتى اذا عادوا والى مثلها      قالت لهم هيبته عودوا  
طالبٌ بنا رُضْمَتَه الطَّبِي      فكلُّ ما يُضْمَنُ مردود  
والكزوالفرسجال الوضي      فطاردٌ طورا ومطرود (٢)

ويقول في الثانية :

تُفِي بضمانيها البيض الحدان      وتقضي دينهما السمر الصعاب  
وتدرك ثأرها من كل باغ      فوارسٌ من عزائمها الجلاذ  
ويغشى حومة العيجا همامٌ      يشدُّ بضعفه السبع الشداد (٣)

وهكذا فقد كان الشعراء يسجلون مواقف المنزلة كما يسجلون مواقف  
النصر، مما يضي على قراءتهم صفة الموضوعية في التسجيل التاريخي ، بالإضافة  
الى دورهم ، باعتبار أصواتهم بعدا من أبعاد الجهاد ضد الغزاة المحتلين .

ويسجل " ابن القيسراني " الانتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون في  
" أنب" سنة ٥٤٤ هـ (٤) ، فيذكر سيف المسلمين وما أحدثته في الأعداء ، وبخاصة  
ما جرى " للبرنس " صاحب " أنطاكية " :

أغرَّت سيفوك بالأفرنج راجفة      فوادٌ روميَّة الكُبرى لها يجب  
ضربت كبشهم منها بقاصمة      أودى بها الصلْب وانحطت بها الصلْب  
ثم يذكر يوم " أنب " ويوم " بغرى " ، حيث انتصر فيهما المسلمون :

ما يومٌ أنبَ والأيامُ دائلةٌ      من يومِ بغرى بعيدٌ لا ولا كتب

- (١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣١ .
- ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ٩٠ .
- (٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٦ .
- (٣) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (٤) انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٨ .
- ذيل تاريخ دمشق ، ص ٣١٠ .
- تاريخ الدولة الاتابكية ، ص ٩٨ .

واستكمالا لهذه المعلومات التاريخية ، ندرك أن السلاح الذي استعمل في تلك المعركة ، كان متنوعا بين السيوف والرماح والنبال ، بالإضافة الى الخيول التي كان لها دور كبير آنذاك :

والخيلُ من تحت قتلاها تقرلها  
والنقعُ فوق صقال البيض منقدهُ  
والسيفُ هامُ على هام بمعركةٍ  
والنبيلُ كالويل مطالٌ وليس له  
وللذئبي ظفرٌ حلومذاقتسه  
قوائمُ خانمِن الركنُ والغبب  
كما استقل دخانُ تحته لهُب  
لا البيضُ ذوزمة فيما ولا اليلب  
سوى القسي وأيدٍ فوقها سحِب  
كأنما الضربُ فيما بينهم ضرب (١)

ويميز " الطرابلسي " هذه الموقعة ، من حادثة مقتل " البرنس " صاحب " أنطاكية " ، ثم من خلال ذكره مكان القتال حيث يقول :

صدم الصليب على صلابه عوده  
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلعة  
ومضى يؤنب تحت انب همة  
فتفرقت أيدي سبا خشباته  
بالروح عقر ما جنت غدراته  
أمت زوافرغيها زفراته (٢)

وفي السنة نفسها ، توجه " نور الدين " الى حصن " أفامية " واستولى عليه (٣) . فسجل " الطرابلسي " هذا النصر ، وأشاد بأهميته حيث كان الحصن منيعا ، ومسهلا غارات الصليبيين على حماة :

فنزت أفامية فما فهمته  
أرهفت رائك فوق رائك تحتها  
أدركت تارك في البغاة وكنت يا  
كوسار أجناها الأران بوارها  
فحططت من شفافها أعقارها  
مختار أمة أحمد مختارها (٤)

وهكذا نستنتج أن " نور الدين " كان قد هزم في هذا الموضع في السنة السابقة على الفتح .

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٨-٥٩ .
- (٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٦١ .
- (٣) ذكر ابن الأثير أن ذلك حدث سنة ٥٤٥ هـ . الكامل ، ج ١١ ، ص ١٤٩ . وانظر في الموقعة أيضا : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٠٠ .
- (٤) الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٣ .

وفي هذه السنة أيضا ، استولى المسلمون على "سنجار" وأعمال "الرحبة" (٢) "والفرات" ، حيث يقول "ابن القيسراني" :

وملكت سنجاراً وما من بلدة إلا تمتت أنهما سنجاراً  
وثنى الفرات إلى يدك عنائه والبحر ما اتصلت به الأنهار  
وملكت رحبة مالك فبترجت منها لعينك كاعب معطارة (٣)

وهكذا فقد حرر المسلمون خلال سنتين ، "بغرى وأنب وأنامية وسنجار والفرات والرحبة" ، ونعلم كل ذلك من خلال تسجيل الشعراء لهذه الفتوحات .

وفي سنة ٥٤٥هـ ، تقرر الصلح بين "نور الدين" و"صاحب دمشق" ، حتى لا تهدر دماء المسلمين (٤) . ثم توجه "نور الدين" إلى القلاع التي يسيطر عليها "جوسلين" شمالي "حلب" ، فكان من نتائج الموقعة أسر "جوسلين" ، ثم الاستيلاء على قلاع كثيرة (٥) .

- 
- (١) سنجار : بكسر أوله وسكون ثانيه ، مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة ، بينهما وبين الموصل ثلاثة أيام ، وهي في سفح جبل عال . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .
  - (٢) الرحبة : قرية من قرى دمشق . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣ .
  - (٣) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٦٨ .
  - (٤) انظر : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٠ .
  - (٥) من هذه القلاع ، تل باشر ، عين تاب ، أعزاز ، تل خالد ، الراوندان ، برج الرصاص ، كفر سود ، كفر لاتا ، ودلوك وغيرها . انظر :  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٤ .  
ابن الأثير الحزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٠٢ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٢-٧٤ .

ونعلم أن "عزاز" من أول المواقع التي استولى عليها المسلمون في هذه المعركة ، حيث يجمع "الطرابلسي" بين الصلح في "دمشق" وبين الاستيلاء على هذا الموقع فيقول :

صَبَحَتْ دِمَشْقُ بِمَشِقِ الْجِيَا      د زبور الوغى بين أحداها  
فَأَعْطَتْكَ مَا لَمْ تَنْلُهُ يَسَدًا      وفازت رفاقٌ بأصحابها  
وعزّت عزازٌ فأذللتهَا      بمجرى مضيقٍ لأسبابها  
بأشخ من أنفها منكبا      وأكثر من عدّ طوراً بها (١)

ويجمع "الطرابلسي" بين قتل صاحب "أنطاكية" قبل هذه الموقعة بسنة ، وبين أسر "جوسلين" والاستيلاء على "عزاز" وتل خالد وتل باشر" فيقول :

صعق البرنسٌ وقد تلاًلاً برقته      وأطار ساكن جأشه أرعاده  
ولجوسلين اجتمهناً فأصحت      نُمبى لمن بلادُه وتلاده  
سلبت عزاز عزاه ويقورس      محجوبة فرشت له اقتاده  
وتل خالد يوم تل جبينهما      خلط الثرى بجبينه اخلاده  
وغدا يباشر تل باشر قلبه      بأحرما حمل القلوب عداده (٢)

ويسجل "الطرابلسي" مواقع أخرى تمت السيطرة عليها بعد هذه المعركة ، مثل : "باسوط وبصرى وصرخد وكفرلاتا وعاب وسرفود" :

ويوم بسوطا بسطت الحمما      م على المضب من ركنها فانهدم  
وبُصرى وصرخد لولم تثر      دراكا لكانا رديفتي ام  
وفي كفرلاتا وعاب حلك      ست عقد البرنس بيبيضي خذم  
ويوم بسرفود جرعتهم      أجاحا أغصهم واضظلم (٣)

ونستدل من قصيدة أخرى "للطرابلسي" ، أن المسلمين تمكنوا من الاستيلاء على "دلوک" ، بالإضافة الى "تل باشر" بعد هذه الموقعة :

وفي تل باشر باشرتهم      بزحفٍ تسور أسوارها  
وان دالكتهم دلوک فقد      شدت فصدقت أخبارها (٤)

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧١ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٧٥-٧٦ .

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٩٤ .

(٤) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٧٧ .

لقد كان لتلك الموقعة أهمية خاصة ، حيث تمكّن المسلمون على اثرها من الاستيلاء على قلاع كثيرة .

وتعد قصائد " الطرابلسي " التي تحدثت عنها ، من الوثائق التاريخية الهامة ، والتي يمكن الاعتماد عليها في معرفة أسماء المواقع التي حررها "نورالدين" بعد أسره "حوسلين" .

وفي سنة ٥٤٧هـ ، تمكّن "نورالدين" من الاستيلاء على " انطرسوس" (١) ، فذكرها " الطرابلسي " في قصيدته قائلا:

رفح القصور على نضائدهم  
من بعد ما جعل القصور قبورا  
غادرت انطرسوس كالطرس انمحي  
رسماً وحمراً دعها يحمورا (٢)

وفي سنة ٥٥١هـ ، انتصر "نورالدين" على الصليبيين في " حارم" ، حيث شدد عليهم الحصار ، حتى اضطروا الى الصلح واعطائه نصف الولاية (٣) ، فأثبت " الطرابلسي " هذا النصر بقوله (٤) :

حاموا فلما عاينوا حوض الردى  
حاموا برائث كيدهم أو كادوا  
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلّة  
حرماً بحارم والمصانئ مصاد  
وفي شجراً حارم شاجرهم  
سواهم كالسهم بكالسهام (٥)

وهكذا نلاحظ اهتمام الشعراء بذكر المواقع التي تحرر ، مع أنهم في المرحلة الأولى من الصراع لم يكونوا يهتمون بهذا الرصد التاريخي ، بقدر ما كان يهتمهم الافتخار بالنصر والأشادة بالمجاهدين .

- 
- (١) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٦٣ .  
 (٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٨٧ .  
 (٣) ذكر ابن الأثير أن هذا الحصن يقع بالقرب من أنطاكية غربي حلب ، وأنه كان حصناً منيعاً ومخيفاً للمسلمين .  
 الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٠١ .  
 وانظر: تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٠٩ .  
 (٤) جدير بالذكر أن الطرابلسي توفي سنة ٥٤٨هـ ، ومعنى ذلك أن القصيدة اما أن تكون قيلت في موقعة قبل هذا التاريخ ، أو أن وفاته كانت في غير هذه السنة .  
 (٥) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١٠١-١٠٢ .

ولعل خير مثال على الدقة في هذا الرصد التاريخي ، قصيد  
 بن منقذ ، التي يتتبع فيها الفتوحات التي تمت في عهدى " عماد ابن  
 و " نور الدين " ، فيذكر مقتل " البرنس " وسجن " ابن الفنشر " في " حصن  
 ثم يذكر انتصار المسلمين في وادي " اقليس " ( ٢ ) ، وأسر " حوسلين " حيث  
 قتلنا البرنس حين سار بجيحه  
 وفي سجننا ابن الفنشر خير ملوكهم  
 أسرناه من حصن العريمة راغماً  
 وسل عنهم الوادي بأقليس انه  
 ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن  
 تكف به الفرسان والعسكر الجبر  
 وان لم يكن خير لديمهم ولا بر  
 وقد قتلت فرسانه فهم جزر  
 الى اليم فيه من دمائهم غدر  
 ليخش من الأيام نائبة تصرو ( ٣ )

نلمس في هذه الأبيات نهجا جديدا ، ان يتحدث الشاعر بضمير  
 المتكلم ، مما يشير الى اشتراكه في الحروب ، وهذا يتفق مع ما نعرفه من سيرة  
 " أسامة بن منقذ " ، واتصاله بالمجاهدين ، واشتراكه في مقاومة الصليبيين ، ولعل  
 هذا مفسر للدقة التي نلاحظها في رصده التاريخي ، فذكر اسم الملك الصليبي  
 المأسور والحصن الذي أسرف فيه ، دون أن تفقد أشعاره قيمتها الفنية ، وغرض  
 التفاخر الذي هدف اليه .

- 
- ( ١ ) املاك نور الدين هذا الحصن سنة ٥٤٣ هـ . انظر:  
 ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ١٣١ .  
 ( ٢ ) اقليس : من الحصون التي استولى عليها نور الدين سنة ٥٤٣ هـ ،  
 وهو قرب حلب . انظر:  
 الكامل ، ج ١١ ، ص ١٥٤ .  
 ( ٣ ) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠١ - ٢٠٦ .

واستكمالاً لهذا الرصد التاريخي ، نجد أنه يعدد مواقع أخرى كثيرة  
تمت السيطرة عليها في معارك متعددة ، فيذكر فتح " الرها " في عهد عماد  
الدين ، ثم الفتوحات التي تمت في عهد " نور الدين " مثل : " تل باشر (١)  
وعزاز ورج الرصاص وحارم وكفرلاتا وهاب (٢) وباسوط وقورص وفامية والبارة (٣)  
وسرفود وأنب وتل عمار وتل خالد (٤) وراوندان " فيقول :

فتحنا الرها حين استباح عدائنا	جماعها وسنى ملكها لهم الخثر
ونحن فتحنا تل باشر بعد ما	وقد عجزت عنه الأكاصرة الفخر
وتل عزاز صيحت جيوشنا	فلم تحمينا الرجال ولا الخدر
وملنا الى بسج الرصاص وأنه	لكالسد لكن الرصاص له قطر
وأضحت لأنطاكية حارم شجى	وفيسا لها والساكنين بها حصر
وحصن كفرلاتا وهاب تدانينا	لنا وذراعا للأنوق به وكسر
وفي حصن باسوط وقورص ذلت الص	عاب لنا والنصر يقدمه الصبر
وفامية والبارة استنقذت ما	لنا همة من دونها الفرغ والغفر
وحصن بسرفود وأنب سهلت	لنا واستحال العر وهو لنا يسر
وفي تل عمار وفي تل خالد	وفي حصن سلقين لملكه قصر
وما مثل راوندان حصن وأنه	لمتنع لو لم يسهل له القسر
وكم مثل هذا من قلاع ومن ثرى	ومزدعات لا يحيط بها الحصر (٥)

- (١) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب ، بينها وبين حلب  
يومان ، وأهلها نصارى أرمن . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠ .
- (٢) هاب : قلعة عظيمة من العوامم . انظر :  
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٨٨ .
- (٣) البارة : بلدية وكورة من نواحي حلب ، وبها حصن ، ويسمونها  
زاوية البارة . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٢٠ .
- (٤) تل خالد : قلعة من نواحي حلب . انظر :  
معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤١ .
- (٥) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠١-٢٠٦ .



على هذا النحو سجل "ابن منقذ" معظم الفتوحات التي تحققت حتى سنة ٥٥٢هـ. وقد ذكر حصونا لم يذكرها أحد غيره مثل: "البارة وسلقين وبرج الرضا والراوندان وتل خالد وتل عمار". كما أنه كان يصف نمع الحصون قبل الاستيلاء عليها، بل أحيانا يعمد الى تحديد وقت هجوم المسلمين، كما حدث في "عزاز" حيث كان الهجوم من الصباح.

لكن الشاعر لم يكن يعتمد الى تسجيل هذه الفتوحات حسب تاريخ تحريرها، فقد كان مهتما بتعدادها من أجل المفاخرة بما حققه المجاهدون أكثر من الحرص على ذكرها حسب القدم في تحريرها.

ويبدو أن الدقة التي تميز بها الشاعر عن سابقه، تكمن لتوفر عنصرين أساسيين في الشاعر، وهما الموهبة كما تشهد له أشعاره، ثم المعاناة كما تشهد له وقائعه وبطلاته.

من هنا نلاحظ الفرق في رصد الأحداث بطريقة فنية، بين الشاعر الذي يعتمد على مشاهدته ومعاناته، وبين الشاعر الذي ينتقل بخياله الى ساحرة المعركة حتى يستحضر ما جرى فيها.

فالقصيدة لذلك، وثيقة تاريخية مهمة، إذ توجز كل الفتوحات السابقة، وكأننا بصدد بيان يلخص ما حققه المسلمون على لسان أحد المجاهدين الشعراء.

ونلمس من قصيدة "ابن رزيق" أن المجاهدين في "مصر"، الثقوب بالغزة في "غزة" و"عسقلان" وذلك سنة ٥٥٣هـ (١). وتدرك أن المسلمين كانوا المهاجمين حيث يقول:

ألا هكذا في الله تمضي العزائم      وتُنضى لسدى الحرب السيوف الصوامر  
 وتُستنزى الأعداء من طول عزيم      وليس سوى سمير الرماح سلالم  
 وتُنغزى حيوز الكفر في عُقر دارها      ويوطى حماها والأنوف رواقم

ويحدد "ابن رزيق" شهر صفر الذي توجه فيه الجيش الإسلامي، حيث وحّد صفوفه مع المجاهدين بالشام:

نذرتنا سير الجيش في صفر فماند      شتى نصفه حتى انثنى وهو غانم  
 بعشاه من مصر الى الشام قاطعاً      مفاوز خدا لعيس فيهن دائم

فلم ينسج منهم يوم ذاك مخبر      ولا تيبل هذا وحده اليوم سالم (٢)  
 وهكذا ندرك وحمية الجيش الإسلامي في مصر وتعاونه مع المجاهدين في الشام ضد المملوكيين، كما نعلم انتصار المسلمين في منتصف شهر صفر.

(١) ابنظر: ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٢٧٤.  
 (٢) ديوان طلائع ابن رزيق، ص ١٣٥-١٤٢.  
 الروضتين، ج ١، ص ١١٩.

ونعلم أيضا أن المصريين كان لهم أسطول يغير على الصليبيين في  
"عكا" و"أنطرسوس"، وتمكن من أسر مقدمي "الداوية"، حيث يقول "ابن رزيق":

وبقا يا الأسطول ليس له بعد      عد الى جانب الشام وصول  
فموى من عكا وأنطرسوس      عدة لم يحط بها التحصيل  
جمع ديوية بهم كانت الآف      رنج تسطو على الورى وتصول  
قيّد في سننط مقدّمهم يمسد      سدى الينا وحيداه مغلوسل (١)

وكما سجل الشراء انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، فقد سجلوا  
هزائمهم أيضا ، ولكن بطريقة الاعتذار وتبرير الهزيمة والتقليل من شأنها . وندرك  
ذلك من خلال قصيدة "ابن الدهان" بعد انهزام "نور الدين" في "حصن الأكراد"  
سنة ٥٥٥٨ هـ (٢) حيث يقول :

ظبّي المواضي وأطرائق القنا الذبيل      ضامن لك ما حازوه من نفل  
وكافل لك كاف ما تحاوله      عزّ وعزّم وبأس غير منتحل  
وما يعيبك ما حازوه من سلب      بالختل قد توّ سزاآساد بالحيل

وهكذا كل القصيدة تقليل من مكاسب الأعداء ومحاولة لرفع معنويات  
المسلمين . لذا لا نجد فيها تسجيلا دقيقا للهزيمة التي مني بها المسلمون .  
كما نجده في انتصاراتهم . فالشاعر لم يهدف الى تسجيل الهزيمة بقدر ما  
هدف الى الاعتذار عن المجاهدين . وقد لا يلحظ الدارس أن الشاعر يتحدث  
عن هزيمة المسلمين ، الا عندما يقف على البيتين :

جيثر أصابتهم عين الكمال وما      يخلو من العين الا غير مكتمل  
لهم ييم حنين أسوة وهم      خير الأنام وفيهم خاتم الرسل (٣)

حينها ندرك أن الشاعر يتحدث عن هزيمة المسلمين وليس عن انتصارهم .  
ومع ذلك فإن للقصيدة قيمة تاريخية ، إذ ندرك من خلالها الموقف  
الذي مني فيه المسلمون ، ولو أن الشاعر لم يحدد هذه الموقعة .

(١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ١١٩ .

(٢) انظر : ابن الأثير الجزري ، ص تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١١٦-١١٨ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٢٩٤ .

(٣) ديوان ابن الدهان ، ص ٢٢-٢٣ .

وبعد انتصار "أسد الدين شيركوه" على الصليبيين وأعوانهم من جماعة "شاور" في "مصر" سنة ٥٦٢هـ (١) ، سجل "العماد الأصفهاني" هذا النصر فقال :

لقد بغت فئة الأفرنج فانتصفت  
منها بأقدامك الهندية البتر  
غرست في أرض مصر من جسومهم  
أشجار خط لها من هامهم ثمر  
ثم يذكر مواعيد القتال في "الصعيد والنيل" :

أنهت منهم دماءً بالصعيد جرى  
منها إلى النيل في واد يهم نهر  
رأوا اليك عبور النيل إذ عدمو  
نصراً فما عبروا حتى قد اعتبروا  
وشير إلى "شاور" والساكين قصور القاهرة وما حل بهم من هزائم :  
والساكنون القصور القاهرة قد  
وشاور شاورة في مكابدهم  
نادى القصور عليهم أنهم قهروا  
فكاد الكيد لما خانته الحذر (٢)

ونستنتج من قصيدة ثانية "للمماد" ، أن "صلاح الدين" قد اشترك  
في حرب الصليبيين والقضاء على "شاور" في "مصر" سنة ٥٦٤هـ (٣) فيقول :  
لأن بالنيل شاور مثل فرعو  
شارك المشركين نعيًا وقدمًا  
شاركتهما قرينة والنضير

ثم يذكر عودة "صلاح الدين" من "مصر" إلى الشام ، مما يشير إلى اشتراكه :  
عاد من مصر يوسف والى يع  
فلايوب من اياب صلاح الد  
توب بالتمغنيات جاء البشير  
مدين يوم به توفى النذور (٤)

- (١) انظر : ابن الأثير الجزري ، تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١١٩ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٢٤ .  
البنداري ، سنا البرق الشامي ، ص ٦٣ .  
(٢) الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٥ .  
(٣) انظر : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٣٥ .  
سنا البرق الشامي ، ص ٧٥-٧٨ .  
تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٣٧ .  
(٤) الروضتين ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

ويربط "العماد الأصفهاني" بين "شاور" والصلبيين ، وذلك بسبب الأعمال التي قام بها ، وبسبب تعاونه مع أعداء المسلمين . ونعلم أن "شيركوه" قضى على الوزارة الفاطمية واستلمها من "شاور" سنة ٥٦٤ هـ (١) فيقول :  
بالجدُّ أدركت ما أدركت لا اللعب  
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من  
كم راحة حنيت من دوحة التمث  
نادى فعرف خير ابن خير أب  
من شر شاور أنقذت المباد فكم  
هو الذي أطمع الأفرنج في بلد الأس  
وكم قضيت لحزب الله من أرب  
سلام حتى سعوا للقصد والطلب (٢)  
وسجل "عرقلة" استلام "شيركوه" الوزارة في "مصر" ، والقضاء على  
"شاور" بقوله :

لقد فاز بالملك العقيم خليفة  
كان ابن شاذي والصلاح وسيفه  
له شيركوه الساعدي وزير  
علي لديه شبر وشبير  
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه  
وشاور كلب للرجال عقسور  
بنفسى وطفى حتى لقد قال قائل  
على مثلها كان اللعين يدور (٣)  
من كل ذلك ندرك أن نظرة المسلمين آنذاك الى الوزارة الفاطمية  
وبخاصة في عهد "شاور" ، كانت كمنظرتهم الى الصليبيين .

وبعد وفاة "شيركوه" في السنة التي استلم فيها الوزارة ، تسلّم صلاح  
الدين "الوزارة المصرية" (٤) ، فسجل "العماد الأصفهاني" هذا الحدث قائلاً :  
وقام صلاح الدين بالملك كافلاً  
ولما صبت مصر الى عصر يوسف  
وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدر  
أعاد اليها الله يوسف والحصرا (٥)

- 
- (١) انظر : تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٤٠ .  
سنا البرق الشامي ، ص ٧٨ .  
الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤٠ .
  - (٢) الروضتين ، ج ١ ، ص ١٥٩ .
  - (٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٢ .
  - (٤) انظر : الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٤١ . النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ .  
سنا البرق الشامي ، ص ٨٠ . النوادر السلطانية ، ص ٤٠ .
  - (٥) تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٤١ .  
الروضتين ، ج ١ ، ص ١٢٩ .

ويبدأ الصليبيون حملتهم الثالثة سنة ٥٦٥ هـ (١) ، ونسلم من قصيدة  
" الشاغوري " أنهم نزلوا " دمياط " ، وكانوا بأعداد كبيرة ، وأملوا من حملتهم أن  
يستولوا على المدينة ، لكن الحيش الأسلامي بقيادة " صلاح الدين " تمكن من  
القضاء عليهم واحباط مخططاتهم :

ولما أتوا دمياط كالبحر ظامياً  
يزيدُ عن الأحصاء والعُدَّ جمعهم  
رأوا دونهم أسداً بأيديهم القنا  
وداروا بهما في البحر من كل جانب  
رجا الكلبُ ملك الروم ان ذاك فتحها  
فعدوا على الأعقاب منها هزيمةً  
وليس له من كثرة القوم ساحل  
الوفُ ألوف خيلهم والسرواحيل  
وبيضاً رفاقاً أحكمتها الصياغيل  
ومن دونها سدٌ من الموت حائل  
فخاف فأم الملك والروم ما بل  
كأنهم ذلاً نعامٌ جوافيل (٢)

وهكذا فقد وصف استعداد الصليبيين في هذه الحملة ومخططاتهم ،  
كما سجل طبيعة الموقعة ونتائجها . ونلاحظ أن الحملة كانت بعد استلام  
" صلاح الدين " الوزارة ، مما يشير الى خوف الصليبيين وحرصهم على امداد  
الغزاة بالقوى الجديدة من الغرب ، وهي طريقة الصليبيين بعد ظهور كل  
قائد جديد .

وسجل " سعادة الأعمى " انتصار المسلمين في " غزة " سنة ٥٦٦ هـ (٣) ،  
وذكر حصار " صلاح الدين " للمدينة بالخيول والمشاة ، ثم ذكر كثرة قتلى الصليبيين :  
فتى قد غزا بالخيول والرجل غزاة  
رماهم بأسدٍ ما لمن مرابتر  
وهاك ضواحيها ضحى بكتائب  
وطاحت على تلك الرمال حسومهم  
نأى من نواحيها الرضا ودنا السخط  
ولا أجم الا الذي نبت الخط  
من الترك لا ردم ضغام ولا قبظ  
ففي كل سقط من جماحيم سقط (٤)

ونستدل من الأبيات على أن المسلمين عرفوا نظام الكتائب في حصارهم  
ومحورهم . ونلمح اشتراك العنصر التركي ، مما يشير الى وحدة الأجناس .

- (١) انظر: تاريخ الدولة الأتابكية ، ص ١٤٣-١٤٤ . النوادر السلطانية ، ص ٤١ .  
ستيفن رنسيان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٢ ، ص ٦١٧ .  
سنا البرق الشامي ، ص ٨٦ .
- (٢) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ٣١٥-٣١٧ .
- (٣) انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ٣٦٥ . سنا البرق الشامي ، ص ١٠٨ .
- (٤) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ٤١٦ .

واننا نعجب لوصف الشاعر، حيث جال بخياله موقع الحرب، فوصف كثرة  
الجيوش الإسلامي وأسلحته، وذكر فتكه بالأعداء، حتى لم يبق شبر من الأرض إلا  
وفيه من جماجمهم .

وسجّل "عمارة اليماني" هذا النصر، فيذكر الموقع الذي جرى فيه القتال،  
ثم يذكر المعارك التي اعتم بها الصليبيون حتى اذتموا من سيوف المسلمين:

غزوا عقر دار المشركين بنفزة      جهارا وطرنا الشرك خزيان مطرق  
وما عصمتهم منك إلا معاتل<sup>ه</sup>      تأنوا على تحصينها وتأنقوا  
وأخريت من أعمالهم كل عامر      يمر به طيف الخيال فيغرق (١)

ونتعرف على هزيمة مني بها المسلمون من خلال اعتذار "ابن سعدان  
الحلي" عن "صلاح الدين"، وذلك حينما التقى بالصليبيين في "الرملة" سنة ٥٧٣هـ (٢):

قل للفرنجية الخذلي رويدكم      بالنار أو تخرج الشعري من الحمل  
ترقبوها من الفوار طالعة      خوارق الأرض تمحورونق الأعمال

ولا يشعر القارئ أنه بصدد موقعة كانت الدائرة فيها على المسلمين،  
فالشاعر لا يتحدث عن الهزيمة، بل يمدد ويتوعد، لكننا ندرك نتيجة الموقعة  
من خلال البيتين التاليين:

حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم      أن يقرقوك بجرح غير مندمل  
وهل يخاف لسان النحل ملتمس      مرث على اصبعيه لذة العسل (٣)

فالشاعر لا يفصل القول بالنسبة إلى الهزيمة، ولا يتحدث عن الموقعة،  
بل يصرف النظر عنها . وقد لاحظنا مثل هذا الاتجاه عند "ابن الدهان" أيضا .

(١) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ١٩٣ .

(٢) انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج ٢، ص ٥٨ .

ابن شداد، النوادر السلطانية، ص ٥٣ .

البنداري، سنا البرق الشامي، ج ١، ص ٢٥٢ .

ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٤٢ .

(٣) أبو شامة المقدسي، الروضتين، ج ١، ص ٢٧٤ .

ورغم هزيمة المسلمين في الموقعة السابقة ، إلا أننا ندرك بسالة المجاهدين فيها ، من خلال قصيدة " العماد " التي يقول فيها :

وَيَوْمَ الرَّمْلَةِ المَرْهُوبِ بِأَسَا      تركتُ الشُّرْكَ مُنْزَعَجِ القَطِينِ  
وَكُنْتَ لِمُسْكَرِ الأَسْلَامِ كَهْفَا      أوى منه إلى حصنِ حَصِينِ  
وَقَدْ عَرَفَ الفَرَجُ سَطَاكَ لَمَّا      رأوا آثارها عَيْنَ اليَقِينِ  
وَأَنْتَ ثَبَتَ دُونَ الدِّينِ تَحْمِي      حماه أَوْانَ وَلِي كلِّ دِينِ (١)

فندرك من الأبيات شدة المعركة ، وثبات المجاهدين فيها . وان لهذه الأشعار قيمة ، حيث سجلت بعض فترات التراجع التي كانت تمر بها الأمة .

ويسجل " ابن سناء الملك " انتصار المسلمين في " مع العيون " سنة ٥٧٥هـ (٢) . وزيادة في تحديد هذه الموقعة ، فقد ذكر أسماء مقدمي " الداوية والأستارية " الذين تم أسرهم ، أمثال : " بادويل والكند واليسكند " :  
وأضحى أسيراً بادويلٌ وَغَيْرُهُ      قرون ملوك كس أبادوا لهم قرنا  
أسارى جبارى لا يُرْجُونَ قَدِيَّةً      ولا يأملون الدهر فكاً ولا أمنا  
بكى الكندُ والمِسْكَندُ لا وَحْشَةً لَهُم      ولكن على نفسَيْهما أسبلا الجفنا (٣)

ونتعرف على بعض أساليب القتال في هذه الموقعة ، من خلال قصيدة " ابن التماويذى " (٤) ، فيذكر أن الأعداء اتبعوا طريقة الكائن في قتالهم ، لكن المحامدين تغلبوا عليهم في " مع العيون " :

كمنوا وكم لك من كمينٍ سعادة      في الغيب تظهر من وراء كمين  
فهوت نحمم سمودهم وقضى لهم      بالنحس طائرهم بمنح عيون (٥)

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٤ .
- (٢) انظر: ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٥ .  
ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٧٥ .
- (٣) البندارى ، سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٣٢٦ .  
ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٧٥٥-٧٦١ .
- (٤) هو سبط أبو محمد المبارك بن المبارك بن علي بن نصر السراج الحواهرى ، ولد سنة ٥١٩هـ ، وكان كاتباً بديوان المقاطعات في بغداد ، وعي في أواخر عمره ، وتوفي سنة ٥٨٣هـ . انظر: وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٩٠-٩٧ .
- (٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٩ .  
أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠ .

ويبدو أن القتال كان شديداً ، وكادت أن تقع الدائرة على المسلمين ،  
مما جعل " الجويني " يقرن هذه الموقعة بيوم " حنين " ؛  
ان هذا الفتح المبين شفاءٌ  
لصدور وقرّة لعميون  
هو يومٌ أضحى ليوم حنين  
سهل الله نصره في الحزون (١)

وعلى اثر هذه الموقعة ، تمكّن المسلمون من احراز نصر على الصليبيين  
في حصن " بيت الأحزان " (حصن المخاض) (٢) . فيخبرنا " ابن الساعاتي " أن  
المسلمين تمكّنوا من تخريب الحصن ، ثم يذكر أعلام المسلمين الصفراء التي  
كانوا يحملونها في حروبهم ضد الصليبيين ؛

بجدك أعطافُ القنا تتمطّفُ  
وقفت على حصن المخاضِ ، وانسه  
وطرفُ الأعداى دون مجدك يطرفُ  
وما رفعت أعلامك الصفراء ساعة  
لموقفٍ حقيقٍ ما يوازيه موقفُ  
الى أن غدت أكبادُنا السود تجرفُ (٣)

وكان " صلاح الدين " قد استعد بجيش كبير لأداء هذه المهمة ، ولذا  
فقد تمكّن من تخريب الحصن والقضاء على الصليب ، حيث يقول " سماعة الأعمى " ؛  
وقدّت الى الأعداء جيشاً عرمرماً  
فلم تُبق للطفيان شلاً مجتمعا  
إذا أبرقت فيه الصوامرُ أرعدا  
وزرت به الحصن الذي لو تحصنت  
ولم تُبق للأيمان شلاً مبددا  
قصمت به صلبُ الصليب وزعته  
فوارسه بالنجم أوردته الردى  
وشهدته لما غفا فتشهدا (٤)

- 
- (١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٨ .
  - (٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٩ .
  - (٣) انظر: البنداري ، سنا البرق الشامي ، ج ١ ، ص ٣٣٣ .
  - (٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٨٣ .
  - (٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ، ص ٤٥٦ .
  - (٦) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
  - (٧) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٢ .



انظر الصليبيون بعد هذه الموقعة أن يعقدوا صلحا مع المسلمين ،  
وذلك سنة ٥٧٦هـ (١) . فيذكر "عبيد الله بن أسعد الموصلي" هذا الصلح ،  
ويشير إلى عنوان الصليبيين وما لحقهم حتى طلبوا الصلح :

وما خضع الفرنجُ لذيكَ حتى رأوا ما لا يطاقُ من الكفاح  
وما سألوكَ عقدَ الصلحِ ودا ولكن خوف معلمة رداح  
ملأت بلادهم سهلاً وحزنا أسودا تحت غابات الرماح (٢)

وبعد أن هاجم "صلاح الدين" الكرك سنة ٥٨٠هـ (٣) ، سجل  
"ابن سناء الملك" هذا الهجوم . ونعلم أن "الناصر" كان معدا حيشه لهذا  
الهجوم ، وقد استعمل المنجنيقات ، حتى أصيب "البرنس" صاحب "الكرك" بعزيمة  
كبرى من كثرة القتل والأسر :

هل الكركُ الثكلي بأولادها انتبت عن النسل مما حرعته من الثكل  
إذا كنت من قتلاك تملأ سبلها فكيف يسير الحيشُ فيها بلا سبل  
غدا بعلمها الأبرنس يلعن عرسه بها وهي لا تنفك من لعنة البصل  
يرى الذليل والفرسان يفشون روحه فيضطر لاستعماله غفلة الغفل  
وقد رجمتها المنجنيقات إذ رمت لشيخ لعين كافر جامل رذل  
ويطلعنا "ابن سناء الملك" أن "الناصر" انتقل من "الكرك" إلى "نابلس"  
فيقول :

فنا بلس لما نزلت بربعها أقامت بهم حق الضيافة والنزل (٤)  
ويحلنا "ابن سناء الملك" أيضا ، أن "الناصر" قام بفارات كثيرة سنة  
٥٨٢هـ (٥) ، حيث كان الصليبيون محصنين أنفسهم في قلاع وحصون كثيرة ،  
فيقول من قصيدة ثانية :

وما يعصم الكفار عنك حصونهم ولا شي يعسد الله غيرك يعصم  
شنت بها الفارات حتى نساتها وأعشابها من حمرة السدم عندم (٦)

- (١) انظر: الكامل هـ ١١١ ص ٤٦٤ . مفرج الكروب هـ ٢ ص ٩٦ .  
البنداري ، سنا البرق الشامي هـ ١ ص ٣٤٠ .  
(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين هـ ٢ ص ١٧ .  
(٣) انظر: الكامل هـ ١١ ص ٥٠٦ . النجوم الزاهرة هـ ٦ ص ٩٥ .  
مفرج الكروب هـ ٢ ص ١٥٨ . النوادر السلطانية ، ص ٧٤ .  
(٤) ديوان ابن سناء الملك هـ ٢ ص ٥٦٦-٥٦٨ .  
(٥) انظر: الكامل هـ ١١ ص ٥٢٧ . مفرج الكروب هـ ٢ ص ١٨٥ .  
(٦) ديوان ابن سناء الملك هـ ٢ ص ٧١٠ .

بعد هذه المنارات المتكررة ، فقد كانت سنة ٥٨٣ هـ سنة الفتوحات التي  
في عهد "صلاح الدين" . فكان أولها فتح "طبرية" (١) ، وذلك بعد حصار  
شديد ، وتمنّع الجنود فيها ، إذ يقول "ابن الساعاتي" :

وما طبرية الا همدى  
ترفع عن أكف التلاميذ  
فضضت ختامها قسراً ومن ذا  
يصدّ الليث أن يلج العرينا  
لقد أنكهتها دم الموالي  
فكان نتاجها الحرب الزبونا  
تسكت حتى رأيت كفو فلانت  
وغاية كل قاسي أن يلينا (٢)  
ومن الملاحظ أن الشاعر لم يذكر ما يحدد الموقعة سوى اسم المدينة ، وأما وصفه  
لتمنّع المدينة ، فيصح أن يقال في كل المدن المحصنة .

وبعد هذه الموقعة ، التجأ الصليبيون إلى "تل حطين" ، فأحاط بهم  
المسلمون من كل جانب ، وعزموهم سنة ٥٨٣ هـ (٣) . فأكثر الشعراء من تخليد  
هذه الموقعة وتسجيل انتصارات المسلمين ، ومن هذا التسجيل قول "العماد" :

سحبت على الأردن ردنا من القنا  
ردنية ملداً وخطية ملسا  
حططت على حطين قدر ملوكهم  
ولم تبق من أجناس كفرهم حنسا  
ونعم محال الخيل حطين لم تكن  
معاركها للجرد ضرساً ولا دهما (٤)

وما يميّز هذه الموقعة ، كثرة الأسرى والقتلى من الصليبيين ، ثم قصة  
"البرنس" صاحب "الكرك" الذي كان قد نذر "الناصر" بقتله إن تقربه ، فأجز  
الله نذره . ونعلم ذلك من قول "الجلياني" في الأسرى :

ترى المنسر الديوى يلقى سلاحه  
وينساق ما بين السبايا ملهدا  
يباعون أسراباً شرائم أحبيل  
كشلة عصفور من الريش أجردا

- (١) انظر: العماد الأصمغاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٧٦ .  
ابن واصل ، مفرج الكرب ، ج ٢ ، ص ١٨٨ . الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٢ .  
ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٧٩ .  
(٢) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ - ٤٠٨ .  
(٣) انظر: الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٤ . الفتح القدسي ، ص ٧٦ .  
مفرج الكرب ، ج ٢ ، ص ١٨٨ . النوادر السلطانية ، ص ٧٥ .  
(٤) أبو شامة المقدسي ، الروضين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

ويذكر قصة " البرنس " وارتعاد " القمص " الذي خاف على مصيره :

لم ترَ للسلطانِ صدقَ نذره دم الفادِرِ الأبرنسِ فاقْتيدَ أريدا  
وباشرَهُ بالفتكِ وسطَ حنابِهِ وعائِنُهُ الكنْدُ المليكُ فأرعدا  
وضاقت بنفسِ القمصِ الأرضُ مَهْرَبًا فأدرَكهُ الموتُ المفاحيُّ مُكْمدا (١)

بعد النصر الكبير في " حطين " ، توالى الفتوحات على يد " صلاح الدين " (٢) .

ومن قصيدة للعماد الأصفهاني " ندرك أنه على أثر هذه المعركة تم فتح " عكا (٣) وسيدا وبيروت وتبنين (٣) ويافا وأرسوف (٤) وغزة وعسقلان (٥) إذ يقول :

وعكا وما عكا فقد كان فتحها لأحلائهم عن مدن ساحلهم كنسا  
وصيدا وبيروتاً وتبنين كلها بسيفك ألقى أنفه الرغم والتعسا  
ويافا وأرسوفاً وتبنى وغزة تخذت بما بين الطلي والظلي عرسا  
وفي عسقلان الكفر نزل بملككم فمنظره بل أمره أريد وأرجسا (٦)

ونلمح دقة الشارفي هذا الرصد التاريخي للفتوحات ، إذ يسجلها حسب أولويتها في الفتح . وما يفسر هذه الظاهرة هو معرفتنا عن حياة " العماد " بأنه كان ملازماً " صلاح الدين " في حروبه ، بل كان واحداً من المجاهدين في هذه المعارك . فالقصيدة بالتالي وثيقة تاريخية ، نستطيع الاعتماد عليها في تتبع فتوحات " الناصر " .

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
- (٢) انظر في ذلك : النوادر السلطانية ، ص ٢٩ - ٨٠ .
- الفتح القدسي ، ص ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ .
- الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٥ .
- مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ، ٢٠٩ .
- (٣) تبنين : بلدة في حبال بني عامر المطلقة على بانياس بين دمشق وصور .
- ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤ .
- (٤) أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا .
- معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٥١ .
- (٥) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت حبرين ، ويقال لها عروس الشام .
- معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .
- (٦) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

وبعد هذه الفتوحات توجه " صلاح الدين " الى " القدس " هدفه الأكبر ،  
وتمكن من تحريرها في نفس السنة (١) . ونعلم هذا الفتح من قصائد كثيرة ،  
منها قول " العماد " :

بفتحہ القدس للاسلام قد فتحت  
ففي موافقة البيت المقدس للـ  
في تمع طاغية الأشرار أبواب  
بيت الحرام لنا نية واعجاب  
نقى من القديس حلبانا كما نقتت  
من بيت مكة أزلام وأنصاب (٢)  
ويحدد " الجويني " تاريخ هذا الفتح ، حيث تحقق بعد أن احتل  
الصلبيون " القدس " مدة تسعين عاما فيقول :

تسمون عاماً بلا دة الله تصرخ والأسد  
فآلان لبي صلاح الدين دعوتكم  
لام يطوى ويحوى وهو سكران  
بأمر من هو للمعموان معوان  
ويذكر أن ذلك تحقق في منتصف الشهر (٣) فيقول :

في نصف شهر غدا للشرك مصطلماً فظهرت منه أقطار وبلدان (٤)  
ونستنتج من الأشعار التي قيلت بعد تحرير " القدس " ، أن هناك بعض  
المدن ما زالت في أيدي الصليبيين مثل : " صور وطرابلس وأنطرسوس وأنطاكية " ،  
حيث يقول " العماد " في معرض تحريضه على اكمال الفتوحات :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من  
من بعد فتحك القدس ليس سوى  
يمشي على الأرض أو يركب الفرسا  
صور فان فتحت فاقصد طرابلسا  
اثر على يوم انطرسوس ذا لجيب  
وابعث الى ليل أنطاكية المسما (٥)

---

(١) انظر: الفتح القدسي ، ص ١٣٠ . الكامل ، ج ١١ ، ص ٥٤٦ .  
النوادر السلطانية ، ص ٨١ . مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٢١١ .  
النجم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٤٠ .  
(٢) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .  
(٣) وكان ذلك في الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣ هـ . انظر:  
الفتح القدسي ، ص ١٣٠ .  
(٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٥ .  
(٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٢ .

وهكذا فقد سجل الشعراء معركة " حطين " وفتح " القدس " في قصائد كثيرة ، وأبرزوا ملاح خاصة للمؤمنين ، حتى انه بإمكاننا أن نميز هاتين المؤتمتين في الشعر أكثر من المواقع الأخرى .

ولعل أهمية الفتح الكبير ، جعلت الشعراء يتفنون متأنين عند هذا الفتح ، مما حجبهم عن ذكر حصون وقلاع كثيرة تم فتحها في عهد " صلاح الدين " ، مثل :  
 " حبله وصميون وبرزية ودرساك وبغراس " وغيرها .  
 ولكن عندما حاول الصليبيون الاستيلاء على " القدس " من جديد سنة ٥٨٧ هـ (١) ، نجد الشعراء يسجلون ذلك من خلال استهزائهم بهذه المحاولة ، ومن ذلك قول " الرشيد بن بدر النابلسي " :

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أو ما      فيهم لبيبت على العلات يعتبر  
 فكم نرتيم ضرباً اذا انتظموا      وكم نلتمهم طعننا اذا انتثروا  
 فحائم عن حسوة البيت المقدس لا      خوف وحاشاك من خوف ولا ضرر (٢)  
 وكذلك يسجل " ابن الجاور " أطماع الصليبيين من جديد في " القدس " حيث يقول :

يا صاح قل لأنكثير الكسب دع      عنك الجنون وخذه مقالة مُصنف  
 القدس ما فيه لسرحك مطبخ      كلا ولا نور الأله بمنطسفي  
 والمسجد الأقصى فعنه تقمر من      وقع الدبابيس الأليمة تُعرف

فالشاعر يذكر ملك الصليبيين الذي حاول احتلال " القدس " مرة ثانية ، ثم يشير إلى الصلح الذي جرى سنة ٥٨٨ هـ (٣) فيقول :

قد قلت لما قيل صلح قد جرى      هذا حديث مخرف ومعرف  
 ظنوه سلماً وهو في أرواحهم      سلم إلى أجل لهم متخلف (٤)

فالشعراء سجلوا فترات السلم كما سجلوا فترات الحرب ، وهذه ناحية مهمة في قيمة هذه الأشعار التاريخية .

- (١) انظر: الكامل هـ ج ١٢ ص ٦٦ . الفتح القسي ، ص ٥٢٨ .  
 مفرج الكرب هـ ج ٢ ص ٢٩٠ .
- (٢) الروضتين هـ ج ٢ ص ١٩٤ .
- (٣) انظر: الكامل هـ ج ١٢ ص ٨٥ . الفتح القسي ، ص ٦٠٣ .  
 النوادر السلطانية ، ص ١٨٢ .
- (٤) الروضتين هـ ج ٢ ص ٢٠٤ .

ويسجل الشعراء أطماع الصليبيين من جديد في الديار الإسلامية،  
 بعد وفاة "الناصر صلاح الدين"، ويتحدثون عن مواقف خلفائه والأمراء من بعده.  
 فعندما سمع الأمير عز الدين سامة (١) أمير "بيروت" بوصول الصليبيين إلى صيدا  
 سنة ٥٩٣ هـ، خرج من "بيروت" فتسلمها الأعداء بدون قتال (٢). فنظم  
 الشعراء في هذا الموقف المشين، حيث قال أحدهم:

سلمن الحصن ما عليك ملامة      ما يلام الذي يكره السلامة

فمطأ الحصون من غير حرب      سنة سنّها ببيروت سامة (٣)

ولهذه الأبيات قيمة كبيرة، حيث نذكر أن الأعداء صاروا ينسلبون الحصون  
 والمواقع بدون قتال، وذلك لتخاذل الأمراء والخلفاء.

كما سجل "ابن الجاور" حادثة خراب "القدس" سنة ٦١٦ هـ (٤)،  
 فذكر تشتت المسلمين وخروجهم من "القدس" فقال:

لقد أشمتوا عكا وصوراً بهدمها      ويا طالما غادرتها بثمات

لقد شتتوا عنها جماعة أهلها      وكل اجتماع مؤذن بشيات (٥)

ثم سجل عملية تسليم "القدس" إلى الصليبيين سنة ٦٢٦ هـ (٦) فقال:

عفا المسحذ الأتقى المبارك حوله الر      رفيع العماد المالي الشرفات

خلا من صلاة لا يصل مقيمها      توشم بالآيات والسورات

خلا من حنين التائبين وحزنهم      فمن بيك نواح وبين بكاء (٧)

وتكمن أهمية هذه القصيدة في أنها الوحيدة التي وصلتنا، وتسجل هذه  
 الحادثة. فهي وثيقة تاريخية مهمة.

- 
- (١) انظر في نعوته: الروضتين، ج ٢، ص ٢٣٣.  
 (٢) انظر: الكامل، ج ١٢، ص ١٢٦.  
 (٣) الروضتين، ج ٢، ص ٢٣٣.  
 (٤) انظر: الذيل على الروضتين، ص ١١٥.  
 (٥) النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٤٤. مفرج الكروب، ج ٤، ص ٣٢.  
 (٦) الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٦.  
 (٧) انظر: الكامل، ج ١٢، ص ٤٨٢. النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٢٧١.  
 مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤١. الذيل على الروضتين، ص ١٥٤.  
 الروضتين، ج ٢، ص ٢٠٥.

ويسجّل "ابن مطروح" اسم "الناصر داود" حين تمكّن من تحرير  
"القدس" ثانية سنة ٦٣٧هـ (١) فيقول :

فناصر طهّره أولاً وناصر طهّره آخراً (٢)

ولكن عندما عاد "الناصر" وسلّم "القدس" من حديد الى الصليبيين  
سنة ٦٤١هـ (٣) ، ثم تمكّن الملك "الصالح نجم الدين أيوب" (٤) من تحرير  
"القدس" سنة ٦٤٢هـ (٥) ، سجّل "ابن مطروح" هذه الأحداث بقوله :

المسجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلاً سائراً

إذا غدا الكفر مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً (٦)

وبعد أن صد المسلمون هجوم الصليبيين في "المنصورة" سنة ٦٤٨هـ (٧) ،  
ذكر "ابن مطروح" "الفرنسيس" ملك الصليبيين بقوله :

قل للفرنسيس إذا جئتكم مقال صدق من قول فصيم

أجرك اللسه فيما مضى من قتل عباد المسيح (٨)

لكن الشاعر لا يحدد الموقعة بل نعرفها من خلال ذكره ملك الصليبيين فقط .

- 
- (١) انظر: أبو شامة المقدسي ، الذيل على الروضتين ، ص ١٥٣ .  
مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ص ٥ ؛  
(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .  
(٣) انظر: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج ٢ ، ص ٦ .  
(٤) انظر أخباره : الذيل على الروضتين ، ص ١٨٥ .  
(٥) انظر: الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٧ .  
(٦) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ .  
(٧) انظر: الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .  
(٨) النجم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٩ .  
ديوان ابن مطروح ، ص ١٨١ .

من الأشعار التي أثبتناها ، نستطيع أن نؤكد بأن الشعراء كانوا حاضرين في مسرح الأحداث ، ولم يغيبوا عن الصراع الذي عاشته الأمة .

وقد أدى الشعر دورا وثقافيا كبيرا ، وذلك برصد الشعراء الأحداث التاريخية ، ومواقبتهم مراحل الحرب ، حتى انه بناءً على ما كاننا أن نتبين معالم الممارك بين المسلمين والمسيحيين من هذه الأشعار .

لكن هذا التسجيل التاريخي لم يكن دقيقا عند جميع الشعراء . كما أن اهتمام الشعراء بالفتوحات والتدقيق في جوانبها ، لم يكن يوازي اهتمامهم بالمجاهدين والثناء عليهم . ولولا أسماء الحصون وبعض المدن التي كانت تذكر في القصيدة ، لما استطعنا تمييز المعركة عن غيرها في كثير من الأحيان . ويمكن أن نرد هذه الظاهرة الى عدة أمور :

ان طبيعة المرحلة التي عاشتها الأمة ، وما حصل لها من مكبات باحتلال المقدسات ، جعلت النفوس تتطلع الى شخصيات تستطيع جميع القوى ، لتنفذ الأمة من المحتلين . ويظهر الأبطال المجاهدين ، فقد تعلقت الأمة باسم ، فتوجه الشعراء الى الأبطال ، يثنون على خصالهم ، ويحمّدون بطولاتهم .

كما أنه ليس سهلا أن يصف شاعر حدثا بصدق دون ماعده ، الا اذا كان متممعا بموسمبة أصيلة وخيال خلاق . ومعظم شعراء هذه الفترة ، كانوا يعتمدون على السماع في تدوينهم الأحداث . وقد لاحظنا الفرق بين أشعار " أسامة بن منقذ " و " العماد الأصفهاني " وبين أشعار غيرهم ، حيث كان الشاعران يصفان بناء على معاناتهم ومشاركتهم في الحروب .

وأمر آخر أساسي ، وعمومي الاستعدادات والقدرات الفنية لدى الشاعر . فالذي يتمتع بحس فني وخيال مخلق ، أقدر من غيره على استحضار الأحداث وتسجيل جزئياتها . ويبدو أن شعراء هذه الفترة لم يكونوا قادرين على تعمق الأحداث ، ونقلها بالصورة المتحركة النابضة بالحياة ، كما استطاع " المتنبي " في وصفه معارك " سيف الدولة " .

يضاف الى كل ذلك ، أن الأهتمام الذي بذله الشعراء بأنواع البديع والتضاميم اللفظية ، كان بعيد الحدود ، مما جعلهم ينصرفون الى قضايا شكلية جزئية ، بدل تسجيل الأحداث تسجيلا عنقوديا متسلسلا .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشعراء واكبوا الأحداث ، فسجلوا الانتصارات والهزائم والمعهود ، وذكروا المدن المفتوحة والقلاع والحصون ، فأدوا بذلك الدور التاريخي الذي تنتظره من الأشعار الحربية .



## الفصل السادس

الخصائص الثنية لشعر القديسيات

- ١- الصور البيانية .
- ٢- الزخارف السبديعية .
- ٣- الأتباعية .
- ٤- هيكل القصائد القديسية .

## الصورة البيانية

من الطبيعي أن يعبر الشعراء بطريقة تبعد عن تقديم  
 الأحاسيس والأفكار جاهزة وخالية من الحس الفني والتحليق الخيالي .  
 فالطريقة الصادقة في التعبير ، والتي تخلو من الصور وتلمس الجمال  
 الفني في التراكيب ، تجعل من الشعر عملاً عادياً وليس فنياً .  
 ولا يعني هذا أن تصبح هذه القضايا الفنية هدفاً في حد ذاتها ،  
 بقدر ما تكون ضرورية للتفاعل مع المضمون وأظهر الممارسة العملية  
 الشعرية في معمار فني متكامل .

وقد أكثر البلاغيون الحديث عن هذه الجوانب ، حتى  
 عدّ كل فريق أن الجانب البلاغي الذي ينشده ، تتمثل فيه  
 الصور الجمالية ، وتحقق من خلاله غروب القول وأفانين الكلام (١) ؛  
 فمعروف أن التشبيه هو الدلالة على مشاركة شيء لآخر  
 في معنى (٢) . وهو يزيد المعنى وضوحاً ، ويكسبه تأكيداً ، حتى  
 عدّه "المسكري" النوع البياني الوحيد الذي اتفق عليه العرب  
 والعجم ، ولم يستغن أحد عنه (٣) .

(١) فالجرجاني بين أهمية القول في التشبيه والتمثيل والاستعارة ، وذكر أن  
 جل محاسن الكلام متفرعة عنها . انظر:

الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص ٢٠ .

بينما رأى ابن حجة أن تلك المظاهر الفنية الثلاثة ، لا يمكن بأية حال  
 أن تكون الصورة الجمالية المثلّي ، إذ لا فائدة منها ما لم تكن وسيلة للإبارة  
 عن النفس الإنسانية ، وسمى ذلك "حسن البيان" ، وقد استخدم ابن حجة  
 هذه التسمية أكثر من مرة . انظر:

ابن حجة ، الخزانة ، ص ١٥٦ . وانظر كذلك في المصدر نفسه ،

ص ٥٨ ، ص ٤٥٦ .

(٢) انظر: القزويني ، الأيضاح ، ج ٢ ، ص ٧ .

(٣) انظر: المسكري ، الصناعتين ، ص ٢٤٣ .

وكانت الحروب الإسلامية الصليبية مجالا رحبا لخيال الشعراء ،  
 كسي يصفوا المسارك والانتصارات ، ويثبوا على المجاهدين والابطال ،  
 ويصوروا أدوات القتال المختلفة ، وما يتبع ذلك من قتلى وجرحى وأسرى .  
 وقد قلّد الشعراء من سبقهم في تشبيهات كثيرة ، بالإضافة  
 إلى توليدهم صوراً جديدة ، نلاحظ فيها ابداع خيالهم وحرصهم  
 على التجديد .

فتشبيه الجيش الضخم بالبحر ، وتشبيه المجاهدين  
 بالأسود ، من التشابيه المألوفة في الشعر العربي . ومن ذلك  
 قول " الشاغوري " :

ولما أتوا دمياداً كالبحر طامياً      وليس له من كثرة القوم ساحل  
 يزيد عن الأحصاء والعدّ جمعهم      ألوف ألوف خيلهم والرواحل  
 رأوا منهم أسداً بأيديهم القنا      وبيضا رقاقاً أحكمتها الصياقل { ١ }

كما أن تشبيه القائد بالسيف ، للدلالة على معاني القوة  
 والصلابة في المواقف الحرجة من التشابيه التقليدية أيضاً .  
 كقول " الجلياني " في " صلاح الدين " :

سيفُ أمّامٍ فلسطينَ يرى أمّاماً      خلف البحار لقد أمّاه صيقله { ٢ }

ومن التشابيه المعروفة تشبيه المرأة بالفصن المياد ،  
 وبالشمس السالعة ، وبالغزال الرشيق . لكنها في القديسات خصت  
 بنساء الصليبيين اللواتي تم أسرهن كقول " الشاغوري " :

من كل حورئ ضئيل موشج      كالفصن ميادٍ ثقيل مؤزر  
 وأوانس مثل الشمس سوافره      من كاعب مثل الخزال ومعصر { ٣ }

ونكتفي بهذه الأمثلة على التشابيه المألوفة ، إذ أنها كثيرة ولن نستطيع  
 حصرها ، فالهدف ليس استقصاءها .

( ١ ) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ٣١٧ .

( ٢ ) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١ .

( ٣ ) ديوان الشاغوري ، ص ١٤٤ .

فبالإضافة إلى التشابه المألوفة ، فإن طبيعة الأحداث الجارية ،  
وطبيعة الصراع العقائدي مكنت الشعراء من انتزاع صور جديدة . فعماد الدين  
في شعر " ابن قسيم الحموي " شهاب نور يضيء لمن حوله ، بينما  
القائد الصليبي شيطان يستحق الرجم :

كأنك في العجاج شهاب نور  
توقد وهو شيطان رجيم (١)

كما أن انتصار المسلمين في " بيت الأحزان " ، شبيه بانتصار المسلمين  
الأوائل في " حنين " كما يقول " الجويني " :

هو يوم أضحى كيم حنين  
سئل الله نصره في الحزون (٢)

فمذه التشابه تدل على تمثّل الشعراء لطبيعة الصراع الدائر .  
ولم يفتوا عند حدود تشبيه الشيء المفرد بالمفرد ، بل دققوا في مقارنتهم  
التي تجعل القارئ يتعمق ملامح الشبه ، حتى يدركه من قرائن الكلام ، ويلمحه  
من المعاني الخفية . وقد استندوا في هذا النوع من التشبيه على الدليل العقلي ،  
أو البرهان المنطقي ، ليقنع القارئ بالصورة الفنية . ومن ذلك قول " ابن الدهان "  
في المسلمين الذين أسروا بعد معركة الرملة سنة ٥٧٣ هـ :

وما يعيبك ما حازوه من سلب  
بالختل قد تؤسر الآساد بالجيل (٣)

فشبه الشاعر حالة أسر المسلمين ، بوضع الأسود التي قد تؤسر بالحيطة .  
وأوجد من هذا التشبيه علاقة منطقية للدلالة على صحة قوله وامكانيته ، وأخرجه  
من نطاق التقليد إلى الجدة والأبداع .

وبالما أن هذا النوع من التشبيه يقوم على المنطق والعقل ، فإن هناك  
مجالا كبيرا للانتفاع من الأمثال والحكم المأثورة . إذ أن ما فيها من حجاج  
يجعلها ملائمة ليقبلها العقل ، كقول " الشاغوري " في فتح " القدس " :

فتح تطأ كل فتح دونه  
والشمس تكسف كل جم نير (٤)

وكقول " ابن سعدان الحلبي " مبررا انهزام المسلمين :  
حسب العدا يا صلاح الدين حسبهم  
وهل يخاف لسان النحل ملتمس  
مرت على اصبعه لذة العسل (٥)

(١) العماد الكاتب ، الخريدة ، ج ١ ص ٤٧١ .

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٣) ديوان ابن الدهان ، ص ٧٢ .

(٤) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤٢ .

(٥) أبو شامة ، الروضتين ، ج ١ ص ٢٧٤ .

وقد جمع " العماد الأصفهاني " بين تشبيه المفرد بالمفرد ، والحالة بالحالة ، حينما شبه الصليبان بالأزلام ، وما جرى في " القدس " بعد تطهيرهما من الصليبن ، بما جرى في " مكة " حينما ظهرت من الأزلام والأنصاب :  
نفسى من القدس صليباناً كما نثيت من بيت مكة أزلاماً وأنصاباً (١)

ونجد في شعر القديسيات صوراً فنية متكاملة ، تتجاوز حدود التشابيه التي ذكرناها . فقد عمدوا الى تكتيف جزئيات كثيرة ، حتى تقوم كل جزئية بدورها في الصورة الكلية . ولم يعد البيت الشعري الواحد كافياً لأخراج الصورة الفنية . وعليه فأنصنا نحس الخيال الخلاق ، والعقل المبدع للصورة . فانظر الى قول " العماد الأصفهاني " في وصفه عملية قتل " البرنس " بعد " حطين " :

رأيت فيه عظيم الكفر محتقراً      معقراً خدّه والأنف قد تحساً  
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد      أصاب أعظم من بالشرك قد نجساً  
وغاص اذ طار ذاك الرأس في دمه      كأنه ضنّغ في الماء قد عطساً  
ما زال يعطس مزكوماً بضد ربه      والقتلُ تسميت من بالقدرد قد عطساً (٢)

وكيأننا أمام مشهد فني مكتمل العناصر التي تشد المشاهد اليه ، وقد تضمن كل عوامل التشويق والأعجاب ، وحقق الأغراض التي رمى اليها مبدعه .

ويبدو أن الشعراء تفتنوا في رسم الصور الجديدة . فلم يكتفوا بالسعي وراء المعاني الجديدة ، وانما عمدوا الى تشخيصها في صور مبتكرة . فانظر الى قول " الشاغوري " :

فهنالك لم ير غير نجم مقبل      في اشرع فريت رجيم مدبر  
ولوا عقبان المنون مسفة      والخيل تعثر بالقنا المتكسر  
لا ينظرون سوى حسام مشير      ومن الدماء كأنه لم يشهر (٣)

تجد أنه يثير كوامن النفس الانسانية ، التي تشد الى ساحة الوغى لتتصور المجاهدين الأبطال وهم نجم مقبل ، تلاحق العفاريث التي استحقت الرجم . ثم تتخيل الأعداء وهم منهزمون ، والخيل المتعثرة بالرماح .

- (١) الروضتين ، ج ٤٢ ، ص ١٠٢ .
- (٢) المصدر السابق ، ج ٤٢ ، ص ٨٣ .
- (٣) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤٤ .

وقد أكثر الشعراء من استخدام الصور المستمدة من الطبيعة  
وحيواناتها، فيقول " الجلياني " في " صلاح الدين " وفي أعدائه:  
أعمى اليهم صلاح الدين مفترساً وهو الخضفر أعدى ظفره الخفر  
أملى عليهم فصاروا وسط كفتيه كسرب أمير حواها القانص الذكر (١)

يضاف الى ذلك أن الشعراء أكثروا من التشبيه البليغ ، فهو الوجه  
الذي يحقق مقصود الشعراء في وصف المدد وحين بطريقة توازي قيمتهم  
بين الأمة التي تخوض صراعاً حضارياً مع الخزاة المحتملين . كما أنه يؤدي  
الغاية في التعظيم من شأن الانتصارات الإسلامية ، والبالفعة في ذم الأعداء  
والتحقير من شأنهم في الحروب . ومن هنا كانت عملية الربط بين المصارك  
الاسلامية الصليبية ، وبين مصارك المسلمين السابقين ، والربط بين المجاهدين  
والجيش الملائكي الذي لا يمد الا المؤمنين . ومن هذا القبيل قول " ابن  
القيسراني " :

لله أينة وقفه بدرية نصرت صحائبها بأين صاحب  
وأمدكم جيش الملائك شمرة يكتائب محفوفة بكتائب  
جنبوا الدبور وقد تمزج الضبا جند النبوة هل لها من غالب (٢)  
ومن التشابيه البليغة قول " العماد الأصفهاني " في رثاء " صلاح الدين " :  
جبل تضعض من تضعض زكنه أركائنا وتمدنا عدائته  
ما كنت أعلم أن طوداً شامخاً يهوي ولا تهوى بنا مهوائته  
ما كنت أعلم أن بحراً طامياً فينا يظم وتنتهي زخراته  
بحر تخلوا من وارديه ولم تنزل مهنوفة بسوفوده حفاته (٣)  
فصلاح الدين جبل شامخ ، وبحر عرم الجميع بخيره وفنائله .

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٦٢ ، ص ٢١٦ .
- (٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٨ .
- (٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .

وإذا كان التشبيه يؤدي المعنى على نحو مفقود ، ويزيده  
وضوحاً وتأكيذاً ، فإن المجاز في التعبير أبلغ من الحقيقة ، وأكثر  
تأثيراً في النفس من التعبير العادي .

فالاستعارة والتي هي ضرب من ضروب المجاز ، كانت معروفة في الشعر  
العربي والقرآن الكريم . والأحاديث النبوية الشريفة ، إلا أن الشعراء في هذه الفترة  
كانوا يقصدونها في معانيهم وصورهم ، فكانت صادقة مؤثرة أحياناً ، ومتكسفة  
مبتذلة أحياناً أخرى .

ونزارة الى أبيات " ابن القيسراني " التالية :

تفي بضائنها البيضُ الحدادُ      وتقضي دينها السمْرُ الصَّعادُ  
وتدركُ ثأرها من كل باغ      فوارسٌ من عزائمها الجلالُ  
ويغشى حومة الهيجا هُمامٌ      يشدّ بضبعه السبعُ الشدادُ (١)

ندرك حينها معاملته السيوف والرماح كأنها أحياء وفيه ، وهي  
كذلك تدرك ثأرها وتقضي ديونها ، وتشد على أزر المجاهدين . فلم  
تعد أدوات القتال الإسلامية مجرد جمادات ثابتة ، لأنها تكتسب  
حيويتها ومرونتها من نشاط المجاهدين ووفائهم لدينهم .

وهي كذلك متعطشة لترد ضاهل الأعداء كما يقول  
" الشاغوري " :

أوردت أطرافَ الرماحِ صدورهم      فولّغن في علقِ النجيعِ الأحمرِ (٢)  
- وتقوم الرماح والسيوف بأداء واجباتها الدينية وفرائضها خير  
قيام في شعر " ابن القيسراني " :

وقد أدت البيضُ الحدادُ فروضها      فلا عهدة في عنق سيفٍ ولا نذر  
وصلت بمعراج النبي صوامم      مساجدنا شفغ وساجدنا وتر (٣)

واهتم الشعراء في استعاراتهم بوصف ما يحصل لأعدائهم من مباحة  
فيما يتعلق بأهم عضو في الجسم وهو الرأس . فعند " ابن الخياط " صارت  
رؤوس الأعداء يانعة ، وسمان قطافها كالثمرة الناضجة ، والتي سهل  
قطعها فيقول :

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٦ .  
(٢) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤٣ .  
(٣) العماد الكاتب ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

فقد أينعتْ أروؤس المشركين فلا تغفلوها قطافاً وحْصداً (١)

وتتحول هذه السهولة في القطف الى أن يأتي الرأس ذاته راکضاً الى البطل ليتم قطعه في قول "ابن القيسراني" :

أتى رأسه ركضاً وفؤور شلوه وليس سوى عافي النسورله قبر (٢)

وهذه محياولات جادة من "ابن القيسراني" وغيره من شعراء القدسيات ، لابتكار مجازات جديدة في التعبير الشعري ، اذ المأارة تتطلب اللهوت وراء الصور المبتكرة الجديدة .

وفي حديث "ابن الساعاتي" عن "طبرية" بعد تحريرها ، عدها هديا يتعالى عن أن يسمه أحد . بل هي فتاة عذراء وعنيدة ، أبت الرضوخ لأحد حتى كان "صلاح الدين" الأسد الذي تمكن اجتياز كل الصعوبات ، فكانت الحرب ثمرة النكاح :

وما طبرية الا هديّ ترفّع عن أكفّ السلامينا

فضضتْ ختامها قسراً ومن ذا يصدّ الليث أن يلجّ المرينا

لقد أنكحتهما دمّ العسوالي فكان نتاجها الحرب الزبونا

قست حتى رأث كفوؤا فلانت وناية كلّ قاسٍ أن يلينا (٣)

"والكرك" زوجة ثكلى لم تعد تنجب بعد أن فقدت بعلمها "الأبرنس" ، حيث يقول "ابن سناء الملك" :

هل الكركُ الثكلى بأ ولادها انتمت عن النسل مما جرّته من الثكل

غدا بعلمها الأبرنس يلحن عرسه بها وهي لا تنفك من لعنة البقل (٤)

فرغم أن الشعراء في قدسياتهم تخلّوا عن الغزل وهوضوعاته ، الا أنهم في تعابير كثيرة كانوا يستعملون ما هو خاص بالفزل والمشق ، ولكن في مجالات الحرب ووصف القتلى وتحرير المدن . لكننا نحس أيضا بتكلف بعض هذه الاستعارات ، كقول "ابن سناء الملك" الأخير ، حيث تعمّد ابداع هذا المعنى في صورة مبتكرة أيضا .

(١) ديوان ابن الخياطه ، ص ٢٨٦ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ١ ، ص ٧٣ .

(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .

(٤) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ .



وغني عن البيان أن الرمز للمعنى أشد وقعاً وتأثيراً على النفس من التصريح به . فهذه الطريقة تجعل السامع أو القارئ مشاركاً في استجلاء المعنى والكشف عنه ، بدل أن يتلقاه جاهلاً ، فيكون دوره كدور المستبكم السلبى . ومن هنا كان للكناية مثل هذا الدور الفني في الأدب .

وطبيعى أن نجد مثل هذه الظاهرة الفنية في شعر القديسيات ، وبخاصة أن التعريض أوقع من التصريح ، والتلميح أبلغ من الأنصاح . وقد استمدوا بعض هذه الكنايات من الشعراء السابقين ، ونلمح في بعضها الآخر آثار الابتكار والتوليد .

قال البيوردي " قترع الحكام المتساوكلين ، وسدد بالمتأخرين عن الجهاد ، في الوقت الذى يلاقي فيه المسلمون أنواع الذل والهموان ، على أيدي الخزاة المحتلين بقوله :

أتهوميمة في ظل أمنٍ وفبطية  
وكيف تنام العين ملء جفونها  
واخوانكم بالشام يضحى مقيلمهم  
تسومهم الروم الهوان وانتهم  
الى أن يقول مكنيا عن الندم الذى سيحسون به ان بقوا على حالتهم :

وتلك حروب من يغب عن غمارها  
ليسلم يقترع بعدها سن نادم (١)

فانظر الى تعابيره " هفوات أيقظت كل نائم ، يضحى مقيلمهم ظهور المذاكي ، تجرون ذيل الخفض ، يقترع بعدها سن نادم " ، وكلها تعابير لها الدلالات التي أشرنا اليها ، ونستطيع كشفها من خلال السياق ، أو من خلال أبعادها التي عرفناها في التراث الشعرى الموروث " النابلسي "

وعندما مدح " الرشيد بن بدار الأندلسي " صلاح الدين " بالكرم ، كنى عن هذه الصفة بالطريقة المألوفة ، من خلال عبارته " في كفه للجود سبعة أبحر " في بيته :

الميم بدار الناصر الملك الذى  
في كفه للجود سبعة أبحر (٢)

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٩٣ .

(٢) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

وقد وظّف الشعراء الكناية كثيرا في وصف الأعداء ونبهتهم  
بالمهزيمة . إذ أن التقرّيع والسخرية بالفزاة يكون أشدّ عنفاً وأدلّ  
تعبيراً بالكناية من الأستمزا المباشراً . فالعماد الأصفهاني جعل  
"النكسة سمة سهامهم فيقول :

أتواهُ شُكْسُ الأَخلاقِ خِشْناً فلينت  
كسرتهم إذ صحّ عزمك فيهم .  
حدودُ الرقاقِ الخشنِ أخلاقها الشكسا  
ونكستهم إذ صار سهمهم نكسا (١)

ويكني " ابن سناء الملك " عن خذلان الفزاة وانكسارهم ، حينما تعول  
كفرهم صمنا ، ودرعهم مرويا ، والفرار مجنا وذلك بقوله :

واستحالت شقاشق الكفر صمنا  
أشجع القوم فيكم جاعل الدر  
حين عادت تلك الشجاعة جننا  
ع مرويا والفرار مجنا (٢)

ومما أضافه الشعراء في هذا المجال هو استعمال الرمز ، إذ كانوا  
يستعملون ألفاظا لها دلالات وأبعاد تغاير معانيها القريبة المعروفة . ومن  
ذلك الرمز إلى المحتلين بقولهم " بني الأصافر " ، وقد أكثروا من هذه  
الطريقة في التعبير ، كقول " ابن الدهان " :

بني الأصافر ما نلتهم بمكركم  
وقول " الرشيد بن بدر النابلسي " :  
أضحى بنو الأصفر الأناكس موعظة  
فيها لأعدائك الآيات والنذر (٣)

ومما يشير إلى أن الشعراء كانوا واعين لهذا التعبير بالذات ، وروده  
أكثر من مرة في الشعر ، بل في شعر الشاعر الواحد . فالعماد الأصفهاني  
يقول في أبيات متفرقة :

الله أكبر أرض القدس قد صُفرت  
من آل أصفران حين به حانوا (٥)  
وقوله: أرى الراية الصفراء يرمي اصطفاها  
بني أصفر بالراعفات اللهم اذم (٦)  
وقوله: إذا صُفرت من آل الأصفر ساحات  
مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما (٧)

- (١) أبو شامة المقدسي ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .
- (٢) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٨١٥ .
- (٣) ديوان ابن الدهان ، ص ٧٢ .
- (٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .
- (٥) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
- (٦) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .
- (٧) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

ويجمع " الشافعي " في بيت واحد بين آيات المسلمين الصغرى وبين  
آل الاعصر بقوله :-

آيات صغرى تؤرد وتتسنى  
حررا تجم نجوع آل الاعصر (١)  
ورمز الشعراء ايضا الى الاعداء بلفظة " الاملاج " كقول " ابي الحكم الاندلسي " :-  
ومنهم ما كنا على حجاج  
وجيل نحو تسمينا  
واقبيهم السلى الان  
من القتل يهروننا (٢)

ويمكن القول ان الشعراء اغنوا فصائدهم القدسية بصورة نسيئة كثيرة ، نظريتها طريقة  
التصوير الشعريه الخاصة ، التي تبعث عن تقديم الحقائق جاهزة دون اعمال العقل  
البدع فيها ، ونشجة لشيوخ الاهتمام بانواع البيان ، حتى صار ابتكار الصور " موضوعة "   
العصرين ، ولذلك نجد صورا مألوفة في الشعر العربي ، واخرى تتضح فيها تلا مسخ  
الجدة والاختراع ، ولا نستطيع ان نحكم لنعم بمنع هذه الصور او يهرودها طبيعيسنة  
بعيد عن التكلف ، كما ان استعمال الشعراء لها لم يكن بنفس الطريقة ، او على المستوى  
نفسه من القدرة في التمييز :-

(١) ديوان لحيان الشافعي ، ص ١٤١

(٢) الروضتين ، ج ١ ، ص ٥١ .

## الزخارف البديعية

عرف البديع في أواخر القرن الثالث الهجري ، " وابن المعتمر " أقدم من ألف في هذا العلم ، فقد وضع كتابه المشهور " البديع " سنة ٢٧٤هـ وجاء فيه قوله : " فأما العلماء باللغة والشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ، ولا يدرون ما هو ، وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحد " (١) .

وواضح أن في هذا القول اعتدادا ومبالغة ، إلا إذا كان قصده الجمع من الناحية العلمية ، لأن هنالك علماء كانوا على معرفة بالبديع ، لكنهم لم يقوموا بسبقه في الجمع ضمن إطار العلم . كما أن " ابن المعتمر " نفسه استمد بعض أنواع البديع من الذين سبقوه .

جاء أبو هلال العسكري " المتوفى سنة ٣٩٥هـ ، فجمع في كتابه " الصناعتين " سبعة وثلاثين نوعا . ثم جمع " ابن رشيق القيرواني " المتوفى سنة ٤٥١هـ ما يقارب ما جمعه " العسكري " ، وذلك في كتابه " العمدة " .

غير أن " عبد القاهر الجرجاني " المتوفى سنة ٤٧١هـ ، لاحظ ازدياد التكلف البديعي بين الشعراء المتأخرين ، فنذّر بهذه الظاهرة في كتابه " أسرار البلاغة " ، وقال : " وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاما معمل صاحبه فرط شغفه بأمر ترجع إلى ما له في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول لبيبي ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع في السامع من طلبه في خبط عشواء " (٢) .

ازدادت الأنواع البديعية في القرنين السادس والسابع ، فوضع " زكي الدين بن أبي الأصبغ " المتوفى سنة ٦٥٤هـ كتابه المشهور " تحرير التحبير في علم البديع " ، وقد عد أنواعه تسعين نوعا .

وقد طغى البديع على الفترة التي نحن بصدددها ، حتى عرف العصر بعصر البديع . وليس من باب العشوائية قول " ابن حجة " : " إن لكل زمان بديعا تمتع بلذة الجديد " (٣) .

ووصل تأثير الشعراء بما صنّفه علماء البلاغة من أنواع البديع ، وافتتانهم به ، أن صار مقياس الجودة هو بمقدار تفننهم في اختراع الصور البديعية .

(١) ابن المعتمر ، البديع ، ص ١٠٦ .

(٢) الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ص ٦ .

(٣) ابن حجة ، الخزانة ، ص ٥ .

اهتم الشعراء في ابراز معانيهم بتوشيحها ببعض الزخارف  
البديعية الملائمة . فالمعنى المقصود يدل عليه بلفظة لها  
معنيان : قريب غير مقصود ودلالة اللفظة عليه ظاهرة ، وبعيد  
مقصود ودلالة اللفظة عليه خفية . وقد أطلق البلاغيون على هذا  
النوع من البديع اسم " التورية " .

لفظة " الخال " في تعبير " ابن الساعاتي " ، لها معنى قريب  
وهو أخ الأم ، وليس معنى بعيد مقصود وهو العلامة الخاصة على  
وجنة الإنسان :

غدث في وجنة الأيام خالاً      وفي جيد العلى عقداً ثميناً  
فيما للهكم سرت قلوبنا      ويا للهكم أبكت عيوننا (١)

ومما يلاحظ على شعراء القديسيات ، أنهم عمدوا الى استعمال  
لفظة " يوسف " مرات كثيرة . ومعروف أن أول ما يخطر في  
الذهن الرسول عليه السلام ، لكنهم قصدوا " صلاح الدين " ،  
اذ أن اسمه " يوسف " أيضاً . ومن ذلك قول " العماد الأصفهاني " :

توفي العاضد الدعوي فما      يفتح ذوبدعة بمصر فما  
وعصر فرعونها انقضى وغدا      يوسفها في الأمور محتكما (٢)

ولعل الارتباط كبير بين اليوسفيين ، وبخاصة أن كلا منهما  
حكم " مصر " ، كما كان لكل أياد بيضاء عليها بعد التلمس والجور  
الذي عانت منهما قبل سيادة العدل والدين . فيقول " سعادة الأعمى " :

ألا أيها الصديق يوسف متنا      من الضمنا لا نستطيع به نخطو  
فأوف لنا كيل الندى متصدقا      فان جزاء المحسنين هو الشرط (٣)

ومعروف أن اختيار ألفاظ تثير أكثر من معنى في النفس  
تدل على حرص الشعراء في اعمال الفكر في اختيار الألفاظ ، وفي البحث  
عن المعنى المقصود من قبل القارئ . مما يشير الطرافة في دقة الاستعمال  
وحسن الاختيار .

- 
- (١) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ .
  - (٢) الروضتين ، ج ١ ، ص ١٩٥ .
  - (٣) العماد الكاتب ، الخريدة ، ج ١ ، ص ٤١٩ .

وكما عرضوا المعنى من خلال لفظة تشير معنى آخر بعيدا ، فان المعنى يذكر بنقيضه . فجمعوا بين المتضادين ، من خلال لفظة من نوع واحد أحيانا ، ومن نوعين مختلفين أحيانا أخرى . ولا ضير في الاستعمال بحد ذاته ، فالطباقي يزيد المعنى المقصود وضوحا ، ويبعد الوهم عن أى معنى آخر . كما أن من شأنه التأكيد على أهمية المعنى الذى يريد به الشاعر ، بذكر المعنى المناقض الذى لا يرتضيه .

فتبسم البلاد في عهد " صلاح الدين " ، يزداد تأكيدا بعد أن يذكر " ابن الفراء " عبوسها قبل هذا العهد :

تبسمت البلاد اليك أنسا  
وكانت قبل موحشة القطوب (١)  
وشبيه بهذا المعنى قول " ابن سناء الملك " :

وكان في ظلمة ليل دجبت  
فجاء عثمان معاه النمار  
اما على البرأتى راضيا  
أوبجناح القلع في البحر طار (٢)  
فطبيعي أن يذكر السرور والابتهاج في عهد " صلاح الدين " ، بالضم والعبوس كما يقول " ابن الساعاتي " :

تحل به الأضداد واللفظ واحد  
فكم سر قلبا في الأنام وكم غما (٣)  
ولم يقتصر الأمر على مجرد الجمع بين لفظتين متضادتين ، بل نجد أكثر من ذلك في البيت الواحد . إذ كانوا حريصين على المقابلات المعنوية واللفظية . ويبدو أن طبيعة الأحداث تسهل مثل هذا النوع من البديع ، أو أنها تجرهم اليه .

ولعل نظرة " العماد الأصفهاني " الى طبيعة الانتصار بفتح " القدس " توضح ما ذهبنا اليه . فأحياء الهدى بانتصار الأسلام . اماتة للشرك ، وتجلسى الهدى اقول للشرك :

أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه  
لقد تجلى الهدى والشرك منجاب  
بفتح القدس للأسلام قد فتحت  
في قمع طاغية الأشرار أبواب (٤)

- (١) العماد الكاتب ، المخريدة ، ج ١ ، ص ٣٠٠  
(٢) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٢٨٥  
(٣) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٣٨٥  
(٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٢

ومن المقابلات الدينية أيضا قول " الرشيد بن بدر النابلسي " :  
 يا بهجة القدس اذ أضحى به علم  
 يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت  
 شتان ما بين ناقوس يدان به  
 الله أكبر <sup>صوت</sup> تقشعر لـ شم  
 والأسلام من بعد طي وهو منتشر  
 بعد الصليب به الآيات والصور  
 وبين ذى منطلق يصفي له الحجر  
 سم الذرى وتكاد الأرض تنفطر (١)

ولننظر الى دقة " الجلياني " في مقابلاته ، حين جعل كل لفظة  
 في الشطر الأول تقابلها لفظة في الشطر الثاني ، وذلك في تشابه تام  
 في البناء وعدد الحروف والأيقاع ، ومعنيين متضادين لكل كلمتين :

والحق يعسر<sup>س</sup> والطفيان متحب  
 والكفر يطمس والأيمان مزدهر (٢)  
 وتتضح هذه الدقة ، وذلك التعمد في اختيار الألفاظ المتقابلة  
 في شعر " ابن القيسراني " اذ يقول :  
 فيا فلرا عم البلاد صلاحه  
 فما مطان الا وشد وثاقه  
 الى أين يا أسرى الضلالة بعد ما  
 بمن كان قد عم البلاد فساده  
 ولا موثق الا وحل صفاده  
 لقد ذل غاويكم وعز رشاده (٣)

وهكذا كانت اللفظة سبيلا الى لفظة أخرى ، مناقضة لها في المعنى .  
 وكأن رسم الكلمة محدد رسم الكلمة التالية ، مع اهتمام بالفكرة التي  
 يسعى لتصويرها وايضا حيا . ونكتفي بالنص التالي " لسعادة الأعمى " ، ليوضح  
 الطريقة كليهما في ابتكار الألفاظ المتقابلة ، والتعمد في الأكتثار من هذا الضرب  
 البديعي :

ولك الذي قد سر من أفراحها  
 لا يقعدت لك ما حلوا وما عقدوا  
 والقوم قد قعدوا عما نهضت به  
 صدعت ما شعبوا تقطعت ما وصلوا  
 وله الذي قد ساء من أحزانها  
 هم الذئاب وأنت الضيفم الأسد  
 من السداد فلا قاموا ولا قعدوا  
 فللت ما شحذوا وحللت ما عقدوا (٤)

ان هذا الأكتثار من الأضداد في الأشعار القدسية ، كان نتيجة للاهتمام  
 الكبير بأنواع البديع كلها ، بالإضافة الى أن علماء البلاغة كانوا يرون أنه كلما كثر  
 عدد الكلمات المتضادة ، كان التعبير أبلغ (٥) .

- |     |                             |
|-----|-----------------------------|
| (١) | الروضتين ج ٢ ص ١١٨          |
| (٢) | المصدر السابق ج ٢ ص ١١٧     |
| (٣) | الخريدة ج ١ ص ١٥٥           |
| (٤) | المصدر السابق ج ١ ص ٤١١-٤١٣ |
| (٥) | ابن حجة ، المخزاة ، ص ٥٧    |

وقد توحى اللفظة عند شعراء القديسيات بلذتة أخرى معادلة لها  
في عدد حروفها ، أو مغايرة في بعض هذه الحروف ، وتعني كل واحدة معنى  
لا تكون العلاقة بينهما قائمة على التضاد . وذلك ما أسماه علماء البلاغة " بالجناس " .

فصفة الصفيح في " صلاح الدين " أوحى " لابن سناء الملك " بالصلح ،  
والحَرْب - بسكون الوسط - بالحَرْب - بكسر الأول وفتح الثاني - إذ يقول :

ولابن أيوب دانت كل مملكة بالصلح أو بالتراب والحرب (١)

وليس غريبا أن تشير رابطة جأش " صلاح الدين " في نفس " الرشيد  
بن بدر النابلسي " فتذكره بجيشه الإسلامي فيقول :

وإذا بصرت بجأشه وبجيشه فاحث التراب على ذؤابة سنجر (٢)

ونجد التنوع في استعمال الجناس في مقطع واحد كسعادة الأعمى ،  
فمن الجناس التام الى الجناس الناقص ، ومن جعل الفعل أصلا لاشتقاقات  
أخرى ، الى جعل الاسم أساسا للاشتقاق كقوله :

فلا ثياب المعالي فوقهم جدد ولا طريق الأمان نحوهم جدد

خانوا فخانوا وما حازوا الذي طلبوا خابوا قابوا وما نالوا الذي قصدوا

فرقتهم فرقا فاستسلموا فرقا بنظائر القرن والأقران تطرد (٣)

فانظر الى الألفاظ : " جدد و جدد ، خانوا فخانوا ، خابوا ، آباو وطلبوا ،  
فرقا ، وفرقا ، القرن والأقران " .

وانظر أيضا الى الألفاظ " عصمت والعواصم ، بدب وذباب ، أطرم  
وطارت ، عادية والأعادي ، ذباب والذباب " في قوله :

عصمت بالعواصم كل نغسر بدب لا يفيل له ذباب

أطرم عنه عادية الأعادي كما طارت من الريح الذباب (٤)

فالإيقاع الموسيقي للكلمة قد يذكر بكلمة أخرى ، كما أن رسمها قد  
يذكر برسم آخر للكلمة نفسها ، هذا بالإضافة الى طرق التوليد والاشتقاقات  
الكثيرة التي لجأوا اليها .

ومن هذا القبيل أيضا الألفاظ : " صفاحه وصفحاته ، صدور وصدور ،  
قناته وقناته ، لذاته ولذاته " في قول " العماد الأصفياني " :

- (١) ديوان ابن سناء الملك ، ج ١ ، ص ٩٠
- (٢) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٦٨
- (٣) الخريدة ، ج ١ ، ص ٤١٢ - ٤١٣
- (٤) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٤٢٨



مَنْ فِي الْجِهَادِ صِفَاخَهُ مَا أَعْدَتْ      بالنصرِ حتى أَعْدَتْ صَفْحَاتِهِ  
مَنْ فِي صَدُورِ الْكُفْرِ صَدْرَ قَنَاتِهِ      حتى تَوَارَتْ بِالرِّيحِ قَنَاتِهِ  
لِذِ الْمَتَاعِبِ فِي الْجِهَادِ وَلَمْ تَكُن      مَذْ عَاشَ قَطْ لِنِذَاتِهِ لِنَاتِهِ (١)

وإن مصير الموت الذي يتمناه " ابن قسيم الحموي " للأعداء تذكره بتلازم هذا المصير لأنسان . لكنه لم يعبر عن ذلك بالفاظ عادية ، بل اختار لفظتين مرتبطتين ببعضهما في نوع الحروف . فانظر الى لفظتي " الحمام والخمير " : أراد بقاء مهجتيه فولسى وليس سوى الحمام له خمير (٢) . ووقع الفعل " هام " عند " ابن القيسراني " يعيد الى ذاكرته ما يقوم به السيف من تقطيع هامات الأعداء ، فيقول :

والسيف هام على هام بمعركة      لا البيض نومة فيها ولا اليلب (٣)  
ومهما يكن من أمره فقد شغف قسم كبير من شعراء القديسيات بهذا الضرب البديعي ، كما شغلوا بالطباق ، حتى ألف الضريان مذها أسلوبيا خاصا وقد أشار " العماد الكاتب " الى ذلك في الخريدة كثيرا .

وقد اختلف البلاغيون في تقييمهم لهذا الضرب البديعي ، اذ عدّه " ابن رشيق " من أبواب الفراغ وقلة الفائدة ، وهو مما لا شك في تكلفه " (٤) . وأورد " ابن حجة " كلاما " للشهاب محمود " جاء فيه : " يحسن اذا قل وأتى في الكلام عفوا من غير كسد ولا استكراه ، ولا بعد ولا ميل الى جانب الركاة " (٥) . مع أن " ابن حجة " نفسه يعدّه " طرفة من طرف الأدب عزيز الوجود جدا " (٦) .

والذي يهمنا تأكيدّه أن الجنس الذي يرد بشكل عفوي ، ودون أن يحس القارئ أن الشاعر متعمّد هذا الاتجاه فلا ضير على ذلك . أما أن يتحول شكل الكلمة سواء في ايقاعها ، أو في رسمها ، أو في صوتها ، الى مصدر أساسي لتوليد ألفاظ أخرى جديدة ، فهذا ما يتناقض مع نظرنا المعاصرة الى كيفية تفجير اللغة ، وجعلها لغة حية في شكلها ومضمونها . اذ أنه لا وجود لشكل الكلمة منفصلا في أذهاننا عن معناها ، كما أن التجديد على هذا النحو يتحول الى تجديد شكلي محض . والنظرة المعاصرة أن يكون التجديد في الشكل والمضمون دونما فصل بينهما .

- 
- |     |                                   |
|-----|-----------------------------------|
| (١) | الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢١٦ .          |
| (٢) | الخريدة ، ج ١ ، ص ٤٧١ .           |
| (٣) | الروضتين ، ج ١ ، ص ٥٩ .           |
| (٤) | ابن رشيق ، العمدة ، ج ١ ، ص ٢٩٧ . |
| (٥) | ابن حجة ، الخزائن ، ص ٢٠ .        |

مما يلفت الأنباه في شعر القديسات هو التمثيل الكبير من قبل الشعراء  
للإسلام ، حتى انه لا تخلو قصيدة من لفظة دينية ، أو عبارة مقتبسة من القرآن  
الكريم . وقد ساعدهم على ذلك أمران : أولهما الثقافة الدينية التي كان المثقفون  
ينالونها منذ حداثتهم ، وثانيهما طبيعة الأحداث الكبرى التي عاشتها الأمة .  
وكان الاقتباس من القرآن الكريم ضرورة في هذا الشعر الذي يمجّد الانتصارات  
الاسلامية ، ويحطّ من شأن الأعداء المحتلين .

" فابن القيسراني " في مدحه " نور الدين " ، يقتبس عبارة " قضي الأمر " من الآية الكريمة ( وأنذرهم يوم الحسرة ان قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون ) (١) . فيقول :

كأنني بهذا العزم لا فل حده      وأقصاه بالاقصو ، وقد قضي الأمر "   
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً      وليس سوى جاري الدماء له طهر (٢)

" وابن الساعاتي " يتمثل الآية القرآنية ( ان قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ) (٣) ، فيقول :

فكنت كيوسف الصديق حقاً      له هتوت الكواكب ساجدين (٤)

ويكاد " الجواني " يقتبس جميع الآية القرآنية ( اذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان تواباً ) (٥) ، وذلك بقوله :

قد جاء نصر الله والفتح الذي      وعد الرسول فسبحوا واستغفروا (٦)

ويجمع " الجويني " في اقتباسه بين آيتين من سورتين مختلفتين ، ان يقتبس في الشطرة الأولى من قوله تعالى ( انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ) (٧) ، وفي الثانية من قوله تعالى ( ويخزئهم وينصرهم عليهم ويشف صدورهم مؤمنين ) (٨) ، وذلك في البيت :

ان هذا الفتح المبين شفاءً      لصدور وقرة لسيون (٩)

- (١) سورة مريم ، سورة ١٦ ، آية ٣٩ .
- (٢) الخريدة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .
- (٣) سورة يوسف ، ١٢ ، آية ٤ .
- (٤) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٤٠٧ .
- (٥) سورة النصر ، ١١٠ ، آية ١-٣ .
- (٦) مفتح الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .
- (٧) الفتح ، سورة ٤٨ ، آية ٢ .
- (٨) التوبة ، سورة ٩ ، آية ١٤ .
- (٩) مفتح الكروب ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

ولعل تطابق اسم "صلاح الدين" مع اسم "يوسف عليه السلام" من الأمور التي سهّلت على الشعراء اقتباس آيات كثيرة من قصة الرسول المعروفة. ف"سعادة الأعمى" يقتبس الآية (يوسف أيذا الصديق) (١) في الشطرة الأولى ثم الآية (فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز منا وأعلمنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ان الله يجزي المتصدقين) (٢) ، وذلك بقوله:

ألا أيها الصديق يوسف منا من الضر ما لانستطيع به نخطو  
فسأوف لنا كيل الندى متصدقا فان جزاء المحسنين هو الشرط (٣)

كما أن "الشاغوري" يشير إلى الآية (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا) (٤) وذلك بقوله:

هو الملك عند السلم حلوا مذاقه  
إذا ما بدا خرت إلى الأرض سجدا  
ولكنه في حومة الحرب باسل  
له عن ظهور الصافنات الجحافل (٥)

وواضح أن المسألة ليست شكلية وحسب ، بل إنما تمثل النظرة الإسلامية المتمثلة لما يجري ، وخير مثال على هذه النظرة ، قول "ابن سناء" الملك :

أصاب بك الله البلاد فصاحبها  
فهو متمثل قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (٧) . وكذلك فأن قوله :

وهو ضيم من بعد سخطهم رضا  
فهو من الآية القرآنية (وليبذلنهم من بعد خوفهم أمنا) (٨) .

- (١) يوسف ، سورة ١٢ ، ص آية ٤٦ .
- (٢) يوسف ، سورة ١٢ ، آية ٨٨ .
- (٣) الخريدة ، ج ١ ، ص ٤١٩ .
- (٤) يوسف ، سورة ١٢ ، آية ١٠٠ .
- (٥) ديوان الشاغوري ، ص ٣١٧ .
- (٦) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٦٥٣ .
- (٧) الأنفال ، سورة ٨ ، آية ١٧ .
- (٨) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٧٥٧ .
- (٩) النور ، سورة ٢٤ ، آية ٥٥ .

واقْتَبَسَ من الآية ( وامرأته حمالة الحطب ) (١) ، في قوله :  
جمالهم من مغازيهم اذا قفلوا حمالة السبي لا حمالة الحطب (٢)  
"والسماد الاصفهاني" يستحضر الآية ( وشت الجبال بسا ) (٣) في قوله :  
بواقعة رجّت بها الأرض جيثهم رماداً كما بسّت جبالهم بسّا (٤)  
ان هذا انحصر على الاقتباس من القرآن الكريم ، وهذا التمثل الكبير  
للآيات القرآنية كان من بداية الحروب الإسلامية الصليبية من قبل شعراء القدسيات .  
فمنذ احتلال " القدس " وعندما قال أحد الشعراء :  
فقل لذوى البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٥)  
كان قد تمثّل الآية القرآنية ( أجيبوا داعي الله ) (٦) .  
وهكذا ندرك أن البعد الشكلي الذي حرص عليه الشعراء ، قد واكبه  
بعد فكري في ادراك حقيقة هذه الحروب ، والانطلاق من وجهة نظر دينية ،  
فكان الشعراء معبرين تعبيراً صادقاً عن هذه النظرة الحقيقية .

x

- 
- (١) المسد ، سورة ١١١ ، آية ٠٤
  - (٢) ديوان ابن سناء الملك ، ج ١ ، ص ١٢٠
  - (٣) الواقعة ، سورة ٥٦ ، آية ٠٥
  - (٤) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٣
  - (٥) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١
  - (٦) الأحقاف ، سورة ٤٦ ، آية ٠٣١

عرف التضمين في الشعر العربي ، فكان الشاعر يودع في شعره بعض ما يستلمحه من شعر السابقين ، وذلك باقتباس بيت كامل أو نصفه أو ريعه ، بعد أن يسبق ذلك روابط متلائمة ، تجعله منسجما مع ما قبله وما بعده .

لكن الظاهرة التي نحن بصدد هنا أشمل من التضمين ، إذ تتجاوز حدود بقول شطرة أو جملة شعرية ، إلى الأحتذاء والاقتراء بشعر السابقين في نواح متعددة ، وبشكل واسع ومقصود أيضا ، مما جعلنا نأخذ مصطلح الدكتور " محمود ابراهيم " في كتابه " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني " (١) . ومن يستقرى شعر القدسيات ، يلاحظ بشكل ملفت للنظر مدى اهتمام الشعراء بتعابير الشعراء السابقين ، وبطرقهم في النظم ، وبخاصة أولئك الذين تناولوا موضوع الجهاد ووصف القتال وأدواته وأبطاله أمثال " أبي فراس الحمداني والمتنبي وأبي تمام " .

فأول ما يلاحظه القارئ من هذه الأتباعية ، هو تمثّل شعراء القدسيات مطالع الشعراء السابقين . فمطلع قصيدة الملك " الصالح طلائع بن رزيك " الذي يمجّد فيه العزيمة والقوة والسيوف :

ألا هكذا في الله تضي الصرائم وتضي لدى الحرب السيوف الصوام (٢)

يحمل معنى مطلع قصيدة المتنبي " كما أنه على وزنه ورويّه ان يقول :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم (٣)

وعلى منواله أيضا قول " ابن قسيم الحموي " في مطلع قصيدته :

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم (٤)

فالمطلع الواحد يحدو حدوه أكثر من شاعر ، وليست المسألة مقصورة

على شاعر دون آخر ، وإنما هي تتنوع من شاعر إلى آخر .

- (١) محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، ص ١٧٢ .
- (٢) ديوان الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ص ١٣٥ .
- (٣) ديوان المتنبي ، ج ٤ ، ص ٩٤ .
- (٤) العماد الكاتب ، الخريدة ، ج ١ ، ص ٤٧٠ .

- ومطلع قصيدة " ابن القيسراني " بعد انتصار " نور الدين " في " أنب " :  
 هذى العزائم لا ما تدعي القُضْب      وذى المكاييم لا ما قالتِ الكُتُب (١)  
 يحمل فكرة مطلع قصيدة " أبي تمام " ، ويجرى على وزنه ورويه إذ يقول :  
 السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكُتُب      في حذو الحدِّ بين الحدِّ واللَّعب (٢)  
 ونجد هذا المعنى والأيقاع نفسه في مطلع قصيدة " العماد الأصفهاني " التي نظمها بعد ضم " مصر والشام " :  
 بالجدِّ أدركتَ ما أدركتَ لا اللَّسبِ      كم راحةٍ جنيتَ من دوحةِ التَّعبِ (٣)  
 وقد نجد الاحتذاء مقصوراً على الأيقاع ، كقول " ابن سناء الملك " في مطلع قصيدته :  
 الشَّامُ للأسلامِ دارُ القرار      وكان من قبلُ طريقُ الفرار (٤)  
 فهو على وزن قصيدة " أبي تمام " :  
 الحقُّ أبلجُ والسيوفُ عوار      فحذارٍ من أسدِ العرينِ حذار (٥)  
 ومن مظاهر الاحتذاء والتقليد ، تناول قضايا في أوائل القصائد كان السابقون يتناولونها ، فتكذيب " ابن سناء الملك " للمنجمين وادعاءاتهم في قوله :  
 سمودك ردت ما ادعاه المنجم      وقد كذبت في الذي كان يزعم  
 يشرُّ بالريحِ العقيمِ وأنها      كما قال عما قاله بك يعقُم  
 ويقسمُ أن الأمر لا بدُّ كائن      وبالأمر قد أحنته حين يُقسم  
 وجودك أمنٌ للوجودِ من الذي      عن الريحِ يحكي أوبه النجمُ يحكم  
 وقد قيل أحكامُ النجومِ على الوري      وأنت على أحكامها تتحكَّم (٦)  
 هذا المعنى الكلي شبيه بقول " أبي تمام " :  
 أين الروايةُ أم أين النجومُ وما      صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذب  
 تخرصاً وأحادٍ يشأ ملفقة      ليست ينبع إذا عدت ولا غرب (٧)

- (١) الخريدة هج ١ ، ص ١١٢ .  
 (٢) ديوان أبي تمام هج ١ ، ص ٤٠ .  
 (٣) الخريدة هج ١ ، ص ٢٧٧ .  
 (٤) ديوان ابن سناء الملك هج ١ ، ص ٢٨٣ .  
 (٥) ديوان أبي تمام هج ٢ ، ص ١٩٨ .  
 (٦) ديوان ابن سناء الملك هج ٢ ، ص ٧٠٦ .  
 (٧) ديوان أبي تمام هج ١ ، ص ٤٢ .

هذا التلاقي في المعنى الكلي ، يتجاوزه الى تلاق في الموضوع نفسه ،  
وفي جزئيات ضمن الموضوع . فوصف " ابن سناء الملك " للجيش بالضخامة وكثرة  
عدده وعتاده في قوله :

جئت لتبنيّن ومن حولهما قوم كأعداد الحصى للحصار  
سدّوا عليها الطرق حتى لقد كادوا يسدّون طريق القطار  
وطبقوا البحر سفينا فما بان وساروا فوقها في قفار (١)  
هذه الصورة شبيهة بالصورة التي رسمها " المتنبي " في قوله :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمانم  
تجمع فيه كل لسن وأمة فما تفهم الحداث الا التراجم (٢)  
ولعل الصورة التي رسمها " الشاغوري " للجيش بقوته واعماله السيوف  
في الأعداء حين قال :

جاشت جيوش الشرك يوم لقيتم يتدامرون على متون الضمر  
وكأنهم بحر تدافع موجّه بظمى وزغف محكم وستور (٣)  
توحي بقول " أبي فراس الحمداني " في الجيش الإسلامي :  
أناهم بمثل الرمل ينقل خيلهم الى الأفق ما فوق الطريق من الرمل  
عساكر أرواح المساكير شرهبها وليس لها غير الفوارس من أكل (٤)  
مع ملاحظة الفارق في قوة التعبير عند " أبي فراس " ، وفخامة الألفاظ الدالة على  
الحرب وبسالة المجامعدين .

وفي مواقف الكشف عن مخططات الأعداء ، ونوايا قادتهم الرهيبة ،  
ندرك التشابه أيضا . " فالجلياني " يبين نية الأعداء بالاحتلال والاستيطان بقوله :  
وأقسم أن يسقي بسدجلة خيلك فماورد الأردن الا مصفدا (٥)  
" والمتنبي " يكشف عن فشل زعمهم بتساؤل يدل على ما حصل لهم فيقول :  
أين البطارقة والحلف الذي حلفوا بفرق الملك والزعم الذي زعموا (٦)

- (١) ديوان ابن سناء الملك ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .
- (٢) ديوان المتنبي ، ج ٤ ، ص ١٠٠ .
- (٣) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤٣ .
- (٤) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ٣٢ .
- (٥) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .
- (٦) ديوان المتنبي ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

وعند انتصار المجاهدين ، فاننا نحس نشوة الشعراء الكبرى في الفترتين .  
 " فابن الساعاتي " يدعو الى عدم ادخار الشعر والنثر ، لأن هذا هو الموقف الذي  
 يستحق فيه النظم والكتابة :

- أعيًا وقد عاينتُم الآية المثلّمي . لآية حال تذخرُ النثرَ والنظما (١)  
 " وأبو تمام " عد الأنتصار فتح الفتح ، وهو أعلى من أن يحيط به الشعر والنثر ؛  
 فتحُ الفتحِ تعالى أن يحيطَ به نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخطبِ (٢)  
 وقد عبر " ابن سناء الملك " عن النشوة بالطريقة نفسها ، وعلى الوزن نفسه بقوله :  
 فتحُ الفتحِ يلا مين وصاحبه ملكُ الملوكِ ومولاها بلا كذبِ (٣)  
 وفي تشبيه المعركة " ببدر " ، فعمالك تلاق بين " ابن القيسراني " وبين  
 " أبي تمام " . فيقول الأول :  
 لله آيةٌ وقفه بسدرية نصرت صحائبها بأيمن صاحب (٤)  
 ويقول الثاني :  
 فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب (٥)  
 وفي نعت السيوف فان " ابن الساعاتي " ينسبها الى الهند في قوله :  
 وكانت سيوف الهند سر غمودها فما هي سر لا تطيق له كتما (٦)  
 وهو النعت نفسه في قول " أبي فراس الحمداني " :  
 جمعت سيوف الهند في كل بلدة وأعدت للهيجاء كل جالد (٧)  
 وعندما عبر " الجلياني " عن الانتصار الإسلامي على الشرك بقوله :  
 والحق يعرس والطغيان منهب والكفر يطمس والأيمان مزدعر (٨)  
 فهو المعنى الذي أكده " المتنبي " ، بأن الانتصار ليس انتصار ملك على ملك ،  
 بل انتصار التوحيد للشرك :  
 ولست مليكاً هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم (٩)

- (١) ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٣٨٥ .  
 (٢) ديوان أبي تمام ج ١ ص ٤٦ .  
 (٣) ديوان ابن سناء الملك ج ١ ص ١٥ .  
 (٤) الروضتين ج ١ ص ٤٧ .  
 (٥) ديوان أبي فراس الحمداني ص ٣٤ .  
 (٦) ديوان ابن الساعاتي ج ٣ ص ٣٨٦ .  
 (٧) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٠٣ .  
 (٨) الروضتين ج ٢ ص ٢١٦ .  
 (٩) ديوان المتنبي ج ٤ ص ١٠٧ .



والانتصار الديني الذي أكده " الشاغوري " بقوله :

فلقد وأدت الشرك يوم لقيتهم  
كان قد أكده " أبو تمام " في قوله :  
وعدت للإسلام عين المنسر (١)  
حتى تركت عمود الشرك معفرا  
ولم تعرج على الأوتاد والطناب (٢)  
وإذا كان قتال " الناصر " شارا للدين وانتقاما له كما يقول " ابن جبير  
الاندلسي " :

ثارت لدين الهدى في العدا  
فان هذا هو منطلق " سيف الدولة " ، كما عبّر عنه " أبو فراس الحمداني " بقوله :  
نأشرك الله من نائر (٣)  
غضباً لدين الله أن لا تنضبوا  
لم يشتهر في نصره سيفان (٤)  
وعندما تحقق النصر بتحرير " القدس " ، فقد ربط " الجويني " بين الفتح  
وفتح الأنبياء التي تنزلت فيها الآيات بقوله :

لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقد  
وهو التشبيه نفسه الذي استحضره أبو فراس الحمداني " حين قال :  
حتى كأن الوحي فيكم منزل  
ولكم تخصم فضائل القرآن (٦)  
وفي مجال الحث والتحريض على القتال ، عندما قال أحد الشعراء  
بعد احتلال " القدس " :

أما والله للإسلام حق  
فقد كانت طريقة " أبي فراس " في الاستحاث حين قال :  
يدافع عنه شبان وشيب (٧)  
يا للرجال أما لله منتصف  
من الطفاة ؟ أما للدين منتقم ؟ (٨)

- 
- (١) ديوان فتیان الشاغوري ، ص ١٤١ .
  - (٢) ديوان أبي تمام ، ج ١ ، ص ٦٤ .
  - (٣) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .
  - (٤) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ٤٣ .
  - (٥) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .
  - (٦) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ٤٣ .
  - (٧) النجم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٥١ .
  - (٨) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ١٢٨ .

- وعندما استعمل " ابن القيسراني " تعبير " خيل النصر " في قوله :
- وأين ينجو ملوك الشرك من ملك من خيله النصر لا بل جندُه القدر (١)
- فانه التعبير نفسه الذي استعمله " المتنبي " في قوله :
- لما رآته وخيل النصر مقبله والحرب غير عوان أسلموا الحلا (٢)
- وعبارة " سورة الحرب " في قول " عمارة اليمني " :
- جلبت لهم من سورة الحرب ما التقى بوادره سور عليهم وخذق (٣)
- كان قد استعملها " أبو فراس الحمداني " في قوله :
- ولو لم تفتني سورة الحرب فيهما جريت على رسم من الصفع أول (٤)
- وهو في وصف الشعراء لما حل بالأعداء من قتل وأسر ، والحالة التي تدل على الهوان التي وصلوا اليها ، نجد " ابن القيسراني " يشير الى استفاحتهم بـ " عيسى " عليه السلام اذ يقول :
- يترجون ميلا ذابن مريم نصره ولم يغب عند القوم عنه ولأده (٥)
- هذه الحالة النفسية المؤلمة نفسها نجدها في وصف " المتنبي " اذ يقول :
- ويستنصران الذي يعبدان وعندها أنه صلب
- لقد فع ما ناله عنهما فيا للرجال لهذا العجب (٦)
- وعادة يترك المنهزمون وراء ما يشير الى الذل الذي لحقهم ، سواء من أدوات قتالية ، أو أشياء خاصة بهم يقدرونها كل التقدير . فابن القيسراني يذكر القرابين والصدقات التي خلفها الأعداء وراءهم فيقول :
- فغادروا أكثر القران وانجفوا وخلفوا أكبر الصلبان وانحزموا (٧)
- وهو نفس ما تركه أعداء " سيف الدولة الحمداني " في قول " المتنبي " :
- وخلى العذارى والبطريق والقرى وشعت النصارى والقرابين والصلبا (٨)

- (١) الروضتين ج ١ ص ٣٤
- (٢) ديوان المتنبي ج ٣ ص ٢٨٧
- (٣) الروضتين ج ١ ص ١٩٣
- (٤) ديوان أبي فراس ج ١ ص ١٣٩
- (٥) الروضتين ج ١ ص ٣٨
- (٦) ديوان المتنبي ج ١ ص ٢٣٢
- (٧) الروضتين ج ١ ص ٥٤
- (٨) ديوان المتنبي ج ١ ص ١٨٩

والقائد المسلم "صلاح الدين" يخاف الأعداء ذكر اسمه ويرعبهم في شعر "الجلدياني" :

وانما اسم صلاح الدين يذكر في جيش العدو وفيسيهم تخيله (١)  
وكذلك الحال بالنسبة الى "المعتصم" ، فان الأعداء يخافونه ويحسبون له كل حساب حسب قول "أبي تمام" :

يقظ يخاف المشركون شداته متواضع يعنوله الجبار (٢)

ونجد التشابه في الحديث عن القتل والأسرى من الأعداء . ومن ذلك وصف "ابن سناء الملك" لما حصل للصليبيين من قتل وأسره ، وذكره بعض قادتهم وما جرى لهم بعد المعركة :

وأضحى أسيراً بساد ويل وغيره قرون ملوككم أبادوا لهم قرنا  
أسارى جباري لا يرجون فدية ولا ياملون الدهر فكا ولا أمنا

وهل زادهم بالسجن ضيقاً عليهم وقد جعل الأرض الفضا لهم سجننا (٣)  
وانظر أيضاً الى وصف "أبي فراس" لما حصل بالأعداء وقادتهم :

ولما وردنا الدرب والسرور فوقه وقد رقسطنطين أن ليس صادر  
وابن بقسطنطين وسو مكبتل تحف بطاريق به وزرار  
وآب ورأس القرمطي أمامه له جسدت من أكتب الرمح ضامر (٤)

ويتجاوز الأمر ذلك الى الحديث عما حل بنساء المشركين . "فالشاغوري" يتحدث عن الذل والهانة التي لحقت بنساء الأعداء ، بسبب كثرة ما أسر منهم :

حتى لقد بيعت عقائل أرهقت بالسني بالثمن الأخس الأحقر

من كل حوري ضئيل موشج كالضمن مياد ثقيل مؤزر  
وأوانس مثل الشمس سوافر من كاعب مثل النزال وممصر (٥)

ويشير "أبو فراس" عما حل بنساء المشركين بسبب مقتل أزواجهن ، وعن تحرر الأماة لمقتل أسيادهن :

' بحيث نساء الفسادين طوالق وحيث أماء الناكثين حرائر (٦)

- (١) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
- (٢) ديوان أبي تمام ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .
- (٣) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .
- (٤) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ٣٥ .
- (٥) ديوان فتيان الشاغوري ، ص ١٤٤ .
- (٦) ديوان أبي فراس الحمداني ، ص ٣٢ .

- وبعد الانتصار الكبير فلا بد أن يحتل القائد مكانة خاصة .  
 ويشير " ابن سناء الملك " الى هذه المكانة التي شغلها " صلاح الدين " فيقول :  
 ومن كان في هذا الوري مثل يوسف  
 وتخزله الأسلاك ذلاً وانصا  
 ومن أين هذا المثل كان بلا مثل  
 تعز إذا خرت لديه من الذل (١)  
 ومثل هذه المكانة المالمية احتلها " سيف الدولة " في شعر " المتنبي " أيضاً :  
 وأضحى ذكره في كسل أرض  
 وتخزله القبائل ساجدات  
 تدار على الفناء به المقار  
 وتحمده الأسننة والشفار (٢)  
 وبعد كل هذا الاحتذاء في مواقف النصر وتمجيد المجاهدين ،  
 والاستهزاء بقتلى الأعداء ، وأسراهم ، فإن الاقتداء كان أيضاً في مواقف المهزومة  
 التي كان يمني بها المسلمون . فتبرير " ابن الدهان " لما حصل بالمسلمين  
 ومحاولته رفع معنوياتهم بقوله :  
 وما يعيبك ما حازوه من سلب  
 وما رجعتهم بأسرى خاب سفيكم  
 بهذا الموقف الإعلامي ، شبه بموقف " المتنبي " عندما برر هزيمة " سيف الدولة " ،  
 وجعل ما حصل نتيجة لخيانة من ضاعف النفوس ، بالإضافة الى تمكثهم أسر  
 غير القادرين على القتال وليس الأقوياء ، حين قال :  
 قل للمستقي ان المسلمين لكم  
 وجدتموهم نيماً في دماكم  
 ضعفي تعف الأيادي عن مثاليهم  
 لا تحسبوا من أسرتم كان ذا رمق  
 وبواصل الشاعران في قصيدتيهما محاولة تشجيع المسلمين ، والتقليل من قيمة  
 ما أحرزه الأعداء ، الى أن يقول " ابن الدهان " :  
 واستيقظوا وأراد الله فقلتكم  
 ويقول " المتنبي " ، طارحا الفكرة نفسها :  
 وانما عرض الله الجنود بكم  
 لكي يكونوا بلا فسل اذا رجعوا (٦)

- (١) ديوان ابن سناء الملك ج ٢ ص ٥٦٥  
 (٢) ديوان المتنبي ج ٢ ص ٢١٣  
 (٣) الخريدة ج ٢ ص ٢٨٩  
 (٤) ديوان المتنبي ج ٢ ص ٣٣٩  
 (٥) الخريدة ج ٢ ص ٢٨٩  
 (٦) ديوان المتنبي ج ٢ ص ٣٤٠

ان ما أثبتناه من أبيات ونصوص شعرية كانت على سبيل التمثيل لا الحصر،  
اذ يضاف اليها ما تميزت به القصائد الخيرية من تضخيم للمعاني ، وانتقاء  
للألفاظ الفخمة المتلائمة مع أجواء القتال من حدة وعنف ، وحديث عن أدوات  
القتال الكثيرة والخيول وقصص الأبطال . كما أن البدايات الحماسية الموحية  
بطبيعة الموضوع ، والتخلي عن المقدمات الغزلية بشكل عام ، الى غير ذلك من  
أمور نجدها في شعر الفترتين ، مما يدل على الاحتذاء الواعي والمقصود .

وقد يخطر في الذهن أن هذا مظهر من مظاهر التقليد الدال على  
عدم مقدرة الشعراء على الأبداع ، وبالتالي انتفاء شعر القديسيات من صفة  
الأصالة ، والتي هي عنصر أساسي في الشعر المبدع الصادق . لكننا  
نعتمد أن الجسري وراء ابتكار الجديد ، والأتيان بكل ما هو غريب وفريد  
ليس المقياس الصحيح للحكم على أصالة الشعر أو عدمها . هذا مع  
اعتقادنا أيضا بأن التوقُّع عند حدود ما توصل اليه القدماء ، والأقتصار  
عليه دليل على الجمود ، وفقدان أسس الاستقلال والتفرد والتميز . بل  
اذا كانت المسألة إعادة المعاني القديمة بتعابير ووصيف جديدة ،  
فلا يعني بهذا سوى اجترار أفكار القدماء ، وإثبات لسعة محفوظ  
الشعراء منها .

وإذا كان شعراء القديسيات قد اتبعوا الشعراء الحربيين الى  
الدرجة التي أبناها هنا من خلال نصوصهم ، فأن لهذه الظاهرة  
أبعادا كثيرة ، يمكننا الحديث عن بعضها .

أعيد الى الذهن ما ساد في فترة من الفترات من نظرية  
مفادها أن القدماء سبقوا الى كل معنى ، اذ يقول " ابن طباطبا " :  
" والمحنة على شعراء زماننا في أشعارهم أشد منها على من كان  
قبلهم ، لأنهم قد سبقوا الى كل معنى بديع ولفظ فصيح وحيلة  
لطيفة وخلابة ساحرة ، فأن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ولا يرى  
عليهم ، لم يتلق بالقبول ، وكان كالمقرج المملول " (١) .

هذا المفهوم العام قد يكون من العوامل التي جعلت الشعراء  
بشكل عام يتجهون الى المادة الموروثة ، على اعتبار أن القدماء  
مثلهم الأعلى ، وأنهم المبدعون والسباقون الى كل معنى . والمهم  
بالنسبة الى المحدثين هو التماس اللطيف والغريب والبديع  
في المعاني القديمة والمسروفة .

(١) ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص ٨ .

وإذا كان اتجاه الشعراء بعمامة التي القديس ، فإن شعراء  
القدسيات بخاصة اتجهوا إلى الأشعار الحربية "لأبي فراس والمتنبي  
وأبي تمام" . ونحن نعترف طبيعة هذه الأشعار بموضوعاتها  
الجهادية ، وبأسلوبها الحماسي ، وبما تعلت به أصحابها من  
مقدرة فنيّة ، وضعتهم في مكانة خاصة بين الشعراء ، كل ذلك  
مفر لشعراء القدسيات أن يقتبسوا من أشعارهم ، وأن يحدوا حدوهم .  
ومعروف أن هؤلاء الشعراء السابقين ، كانوا على صلات  
بالأبطال والقادة المسلمين أمثال " سيف الدولة الحمداني  
والمعتصم" . وكان معظم شعراء القدسيات على صلات أيضا  
بالقادة المسلمين أمثال " عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين" .  
وكان القادة الأوائل في حالة حرب مع البيزنطيين والمشركون ،  
وأبطال القدسيات في حالة حرب مع الغزاة الصليبيين . من  
هنا ندرك أن هذا التلاقي في موقف الأبطال المسلمين في  
الفترتين ، أدى إلى تلاق في التعبير عن المواقف البطولية  
المشرفة بالطريقة الشعرية الفنية .

كما أن العلاقة وطيدة وطبيعية ، بين شعر قيل في  
الحروب الإسلامية البيزنطية ، وبين شعر يقال في الحروب  
الإسلامية الصليبية ، وبخاصة إذا تمثلنا حقيقة هذه الحروب ،  
وما سادتها من أجواء دينية في القتال ودوافعه .

يضاف إلى كل ذلك ، أن صراع الأمة الإسلامية مع  
أعدائها المحتلين كان حضاريا إلى جانب كونه عسكريا . فالمادة  
أن يحرض المحتلون على فصل الأمة التي احتلت أرضها عن كل ما  
يمت لها بصلة إلى ماضيها وتراثها وتاريخها المجيد ، بل  
كل ما تعزبه الأمة ويميزها بطابع مستقل بين الأمم . وذلك  
حتى يشعر الفرد بعدم انتمائه إلى أصوله ومقومات وجود أمته  
عبر التاريخ . مثل هذا الشعور يجعل الواحد يستهين بأرضه ،  
ويفرط في وطنه ، ولا يحرض على مقاومة المحتلين . من هنا يمكن  
أن نفسر هذه الاتباعية الواعية ، والتي من شأنها وصل حاضر الأمة  
بماضيها ، من أجل الأنطلاق نحو تحرير البلاد الإسلامية ، مع الحفاظ  
على شخصية الأمة وشدها بجذورها الأولى ، أمام محاولات التذويب والتميع  
الحضاري الذي يعمد إليه المحتلون .

لكل ما سبق ، نتيقن أن هذه الظاهرة لم تكن مسألة شكلية خالصة ،  
ولا نزعة تقليدية مجردة عن الدور التوجيهي الذي قام به شعراء القدسيات .

## هيكل القصائد المقدسية

ان القصائد الجهادية الكثيرة ، والمقطوعات الشعرية المتوالية ، التي قيلت في المراحل الأولى من الصراع بين المسلمين والصليبيين ، كانت أقل طولاً من القصائد التي قيلت في المراحل التالية اثر تحرير القدس . وكان همّ الشعراء أول الأمر كان منصبا على تشجيع المجاهدين ، والأشادة ببطولاتهم ، والاستهزاء بالأعداء والتحقير من قيمة مكاسبهم . فهذه الموضوعات ، بالإضافة الى الدعوات الصادقة للوحدة الإسلامية ، ونبذ الفتن والخلافات ، كلها من الأمور التي لا يجد الشاعر فيها مجالاً للتفصيل والتعمق في التناول ، وذلك لسعيه وراء متابعة الأحداث بشكل متواصل وسريع ، وبخاصة أن دوره الأساسي يكمن في رفع المعنويات الإسلامية بعد كل معركة ، وأثناء عمليات الصراع ، والتنظيمات المتبعة لتوفير أسباب النصر ومقوماته .

أما وقد حررت " القدس " ، فكان أمراً طبيعياً أن يقف الشعراء وقفات طويلة عند معركة " حطين " وموقعة تحرير " القدس " . فاستمت هذه القصائد في مجموعها بالطول ، والتفصيل في أفكارها الكبرى . ولعل هذا متلائم مع النفس الإنسانية التي تعاني مدة طويلة من قضية رئيسية ، ثم تعيش فترة طويلة وهي في حالة صراع شامل مع الفزاة ، مثل هذه النفسية تكون تواقفة الى أن تتنفس الصعداء بعد خلاصها من أزماتها . فلا تتسرد بالتالي عن الوقوف طويلاً عند الموضوعات الكبرى ، بل وعند جزئيات منها ، لتعبر عن الراحة التامة ، والفرحة الغامرة بتحقيق التحرير .

وهذه القصائد الطوال ، اشتركت في موضوعها الرئيسي الكبير ، كما اتفقت في تناول عناصر أساسية في القصائد الحربية وهي : البطل والقتال والدين . ويتجاوز التشابه في الكليات ، الى تشابه في المعاني المطروقة ، كما يتمجج " القدس " ، ونزول الصليب واعلاء الأذان ، وعزة المسلمين وهوان الصليبيين ، وغير ذلك من معاني الفرحة والابتهاج والتهاني . ونضرب على ذلك قضية علو الدين وانتصاره على الكفر والظفیان لثلاثة من الشعراء : " فالشاغوري " يقول :

وردت دين الله بعد قطوبه  
وأما الجلياني فيقول :

بالمسجد الأقصى بوجه مسفر (١)

(١) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

- والحقُّ يعرُسُ والطغيانُ مُنتحبٌ والكفرُ يطمسُ والأيمانُ مُردُّ هر (١)  
 وأما "الرشيذ بن بدر النابلسي" فيقول:  
 يا بهجةَ القدسِ إذ أضحى به علمُ الأسـ سلامٍ من بعد طيٍّ وهو مُنتشر (٢)  
 ونجد أيضاً أن هنالك تكراراً لمعاني القصيدة الواحدة في أغلب  
 الأحيان . "فالجلياني" مثلاً يصف هوان الصليبيين بعد انكسارهم ، ويتحدث  
 عن الذل الذي لحقهم حتى بيعوا بأرغص الأثمان جهاراً :  
 وساموا تجاراً تشترينا غواليها فبعناهم بالرخص جهراً على النداء (٣)  
 ثم نجده يكرر المعنى في القصيدة نفسها ويقول:  
 يُباعون أسراباً شرايحَ أحبُّل كشلَّةِ عصفورٍ من الريشِ أجرداً (٤)  
 وعلى هذا النحو فإن الأفكار في القصيدة الواحدة غير منضمة . فقد يبدأ الشاعر  
 بذكر فتح "القدس" ، وينتقل واصفاً الجيش الصليبي ، ثم يذكر الانتصار الإسلامي  
 في "حطين" ، ويعود إلى وصف الجيش الصليبي بعد المعركة ، ثم يصف  
 بطولات "صلاح الدين" ، ويعود مرة أخرى إلى وقعة "حطين" ، ثم يكرر وصفه  
 الجيش الإسلامي وتأييده ، وغير ذلك ، من معان .  
 وقد سارت هذه القصائد على نمط واحد بالنسبة إلى  
 الأسلوب والتساير . فطابعها حماسي ، وتكثر فيها العبارات  
 التقريرية المباشرة .  
 وبجانب سمات الطول والتكرار والتقريرية ، فإن هنالك  
 سمة مهمة تتعلق بمطالعها . إذ يحس القارئ أن الشعراء كانوا  
 حريصين على استئلال قصائدهم بمطالع معينة ، ولها دلالات  
 وإيحاءات خاصة في الذهن . "فابن سناء الملك" يثير فينا لدى  
 قراءة مطلع قصيدته كل مشاعر الفرح والتهنئة التي تفرم القلوب بقوله :  
 لست أدري بسأى فتحٍ تهنى يا منيلاً الإسلام ما قد تضى (٥)

- 
- (١) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٦ .  
 (٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٨ .  
 (٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٧ .  
 (٤) المصدر السابق نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٨ .  
 (٥) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٨١٣ .



ويحمل مطلع قصيدة "ابن الساعاتي" ما حمله المطلع السابق من تساؤل ، ومن مشاعر السرور والبهجة إذ يقول :

أعيا وقد عايَنتم الآية العظْمي  
لآية حال تدخر النثر والنظما (١)

ويتضح حسن الاستملال الذي نرعي اليه ، من خلال المطلع التالي " لابن الساعاتي " من قصيدة ثانية إذ يقول :

جَلَّتْ عِزَمَاتُكَ الْفَتْحَ الْمَبِينَا  
فقد قَرَّتْ عِيُونَ الْمُسْلِمِينَا (٢)

ان هذه السمة ليست محدودة في عدد من القصائد ، بل تكاد تكون ظاهرة عامة على شعر القدسيات . فانظر الى مطلع قصيدة " الشاغوري " وما يدل عليه من راحة كبرى بعد النصر:

هذا الذي كانت الآمالُ تنتظرُ  
فليوفِّ لله أقوامٌ بما نذروا (٣)

ثم انظر الى معاناة الأمة الطويلة التي مرت بها نتيجة الاحتلال ، وذلك من خلال هذه الدهشة بالنصر وكسر الأعداء ، التي يشير اليها " الرشيد بن بدر النابلسي " :

أترى مناماً ما بسيني أبصر  
القدسُ يفتح والفرجة تكسر (٤)

ولعل المطلع على أوائل هذه القصائد ، يدرك الشبه الكبير بينهما ، إذ أن لها دلالات كبرى واحدة . " فالسماد الأصفهاني " في مطلع قصيدة له يعد المجاهد بين أملاك السماء :

جنودك أملاكُ السماء وظنهم  
عدائُك جنُّ الأرض في الفتك لا الأنسا (٥)

كما أن " الجويني " يعبر عن هذا المعنى في مطلع قصيدته فيقول :

جندُ السماء لهذا الملك أعوان  
من شك فيهم فهذا الفتح برهان (٦)

وإذا كان " الجواني " عد ضرب الرمح نظما والسيف نقرا بقوله :

نثرٌ ونظمٌ طعنُته وضربُته  
فالرمحُ ينظمُ والمصنَدُ ينقُرُ (٧)

فقد عبر عن المعنى نفسه " الرشيد بن بدر النابلسي " في مطلع قصيدته :

فكم نثرتهُم ضرباً اذا انتظمسوا  
وكم نظمتهُم طعناً اذا انتثروا (٨)

- (١) ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٣٨٥ .
- (٢) ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ٤٠٦ .
- (٣) الروضتين ج ٢ ص ١١٨ .
- (٤) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٢٣ .
- (٥) الروضتين ج ٢ ص ١٠٤ .
- (٦) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
- (٧) المصدر السابق نفسه ج ٢ ص ١٠٥ .
- (٨) المصدر السابق نفسه ج ٢ ص ١٩٤ .

وبالنسبة الى مقدمات هذه القصائد فقد خلت بشكل عام من المقدمات الغزلية ، إذ أن الموضوعات المتعلقة بالجهاد ضد المحتلين ، كانت مسيطرة على أفكار الشعراء ومشاعرهم . فليس هناك وقت للأطالة في موضوعات تبعد عن القضية الرئيسة التي تعيشها الأمة .

ورغم هذه السمة ، إلا أننا وجدنا قصائد " لابن الدهان " في مدح " الناصر صلاح الدين " ، وكان يبدأها بمقدمات غزلية طويلة ، حتى يصل الى غرضه الرئيسي . ومن ذلك قوله :

ويقتلني عمداً لأنني أحبُّه      ليس عجباً أن أحبَّ فأقتلا  
إذا صرحت باليأس آياتُ هجره      دعّنتي من الأطماع أن أتأولا  
وقد كنتُ أشكو الهجر قبل رحيله      فأصبحتُ أبكي الهجر لما ترحلا

ويطيل الشاعر في هذه المقدمة الغزلية التي تبلغ ثلاثة وعشرين بيتاً الى أن يقول :

كأن ندى من كسفٍ يوسف جاده      فأصبح موسى الجوانب أخضلا  
كريم على العافين كالغيث مسبلاً      شديد على العادين كالليث مشبلا  
وسيل إذا ما المال أقنى فأجزلا      وسيف إذا ما سل أفنى وقتلا  
فما سل إلا هالك الشرك وحده      ولا سئل إلا حساناً الا تهللا (١)

و" لابن الدهان " قصائد أخرى كثيرة ، لا نجد فيها ذكر " صلاح الدين " الا في آخريتين أو بيتين . ومثل هذه القصائد يشعر القارىء أن صاحبها أغرق في تقليد الشعراء الصوفيين بشكل عام ، والفاطميين بشكل خاص . حيث كانت الفئة الأولى تتغزل بالذات الألهية ، والثانية بالخليفة الفاطمي ، للدلالة على مدى الحب الذي يكتونه للممدوح .

ولعل كثرة الألقاب والنسب التي يلحمها القارىء في شعر القدسيات ، مؤشراً الى الأثر الكبير الذي تركه الشعر الفاطمي في الشعر الأيوبي بعامة . صحيح أن النسب أمر مألوف في القصائد المدحية ، لكن الشعراء لم يكتفوا بالنسب المعروفة من مثل كونه " سيفاً قاطعاً ، وليثاً مفترساً ، وبحراً كبيراً " ، بسبل أكثرها من الألقاب التي أطلقوها على المجاهدين وبخاصة " صلاح الدين " . فهو " ناصر الإسلام " في الوقت الذي تخاذلت كل الملوك عن نصرته ، كما يرى " أسامة بن منقذ " :

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت      عنه الملوك ومظهر الأيمان (٢)

(١) ديوان ابن الدهان ، ص ٣٦ .

(٢) الخريدة ، ج ١ ، ص ٥٣١ .

وقد أكثر الشعراء من مخاطبة "الناصر" بأبي المظفر" إذ يقول "الجلياني":  
 أبا المظفر أنت المجتبي لهدى أخرى الزمان على خبيرٍ بخبرته (١).  
 ويقول في قصيدة ثانية:

لتظفرن بما لم يحو ملك  
 ويقول "العماد الأصفهاني":  
 أبا المظفر خطا خطه الأزل (٢)

أبا المظفر فاهناً خط منتخب  
 وأخرى الزمان لدين كاد ينبت (٣)  
 ولم يكتف "ابن الجاور" بلقب واحد ، بل ذكر ما يقرب العشرة  
 ألقاب في بيتين من الشعر:

بالناصر المهدي والهادي الى  
 المستمين بره والواثق المنصور  
 سبل الجهاد أبي المظفر يوسف  
 والمستظمر البر الوفي (٤)

ويصل حد المبالغة في الألقاب والنعوت ، الى أن يعده "ابن الساعاتي"  
 "كاشف الجلي ، وصحبي الهدى ، وقاتل البلوى ، وكاشف الغما" فيقول:

فيا كاشف الجلي ويا محيي الهدى ويا قاتل البلوى ويا كاشف الغما (٥)

هذا بالإضافة الى أن "صلاح الدين" المهدي المنتظر الذي بشر  
 به النبي عليه السلام ، وهو يشبه الأنبياء والخلفاء الراشدين ، الى غير ذلك من  
 نعوت مرت في أشعار كثيرة عندما تحدثنا عن "صورة البطل" . وهذه النعوت  
 تدل بوضوح على أثر الشعر الفاطمي في هذا الشعر (٦) ، وعلى مكانة الناصر  
 "صلاح الدين" عند المسلمين .

- 
- (١) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
  - (٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١١٥ .
  - (٣) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٦ .
  - (٤) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٣ .
  - (٥) ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .
  - (٦) وهذا ما جعل الدكتور محمد كامل حسين يخصص فصلاً للحديث  
 عن أثر الشعر الفاطمي في الشعر الأيوبي . انظر:  
 محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، ص ٢٥ .

وبالنسبة الى اللغة ، فقد دخلت مفردات كثيرة الى اللغة العربية . فالأحداث الكبرى التي شهدتها العصر كانت عاملاً من عوامل هذا الوفر اللغوي في الألفاظ العربية المحررة . ومن هذه المفردات ما هي غريبة في شكلها ومعناها ، ومنها ما هي مسروقة في دلالاتها ، لكن هذه الدلالات لاصقة بالمحتلين وليس بالمسلمين .

فقد وردت في أبيات " سعادة الأعمى " الألفاظ : " جَلَّقَ ، وصوالج وجواشن " ، اذ يقول :

نزلت بواديهما منازل جَلَّقَ      فاستوطنت في الفيح من أوطانها  
دحيت كرات مياهما بصوالج      حالت فوارسهن في ميدانها  
واعتد شاذ روائها بعساكر      لَمَعَتْ جواشئها على فرسانها (١)

كما وردت أسماء بعض قادة الأعداء في الشعر مثل : " بادويل ، والكند واليسكند " كما في قول " ابن سناء الملك " :

وأضحى أسيراً بادويل وغيره      قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا  
بكي الكند واليسكند لا وحشة لهم      ولكن على نفسيهما أسبلا الجفنا  
غدا بادويل وهو يلعن نفسه      وحق لتلك النفس أن تريم اللعنا (٢)

ومن هذه الأسماء والألقاب أيضاً : " الأبرنس ، الأكتير ، جوسلين ، الفنش " كما في قول " العماد الأصفهاني " :

يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد      أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا (٣)  
وقول " ابن الساعاتي " :

سل عنه قلب الأكتير فان في      حفقانه ما شئت من أنبائه (٤)  
وقول " ابن الجاور " :

يا صاح قل للأكتير الكلب دع      عنك الجنون وخذهُ مقالة مُنصف (٥)

(١) الخريدة ، ج ١ ، ص ٤٠٨ .

(٢) ديوان ابن سناء الملك ، ج ٢ ، ص ٧٦٠ .

(٣) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٤) مفرج الكرب ، ج ٢ ، ص ٤٠٤ .

(٥) الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٠٤ .

وهكذا كانت ترد أسماء قادة الأعداء وألقابهم ، في معرض وصف ما حل بهم والأستبزاز بوضعهم . ومن الشعراء الذين أكثروا من ذكر أسماء الأعداء " أسامة بن منقذ " ، إذ اهتم كثيرا بالتسجيل التاريخي للأحداث . ومن ذلك قوله :

قتلنا الأبرنس حين سارَ بجهله  
وفي سجننا ابنُ الفنثر خيرَ ملوكهم  
وتحفّ به الفرسانُ والعسكرُ المجر  
وان لم يكن خيرَ لديهم ولا بُرَّ (١)

ونحن أسرنا الجوسلينَ ولم يكن  
وذكر الشعراء أهم فئتين عسكريتين للأعداء مثل : " الداوية والاسبتارية " ، كقول " الجلياني " :

ما لي أرى ملكَ الأفريج في قفص  
والاسبتارُ الى الداوية التأموا  
أين القواضبُ والمسالمةُ السمر  
كأنهم سدُّ يأججٍ اذا استجروا (٢)

وعمالِك ألفاظ ندرِك معانيها ، لكن دلالاتها مرتبطة بالصليبيين مثل :  
" كنائس ، رهبان ، صلبان " ومن ذلك قول " سعادة الأعصم " :

فانخرّ فلو ردعت رومية بهما  
أولو بها صبحت قسطنطينية  
خرت كنائسها على رهبانها  
خفضت مرفعتها من صلبانها (٤)

كما وردت الألقاب الدالة على طبيعة عمل أصحابها في الكنيسة مثل :  
" بطريك ، قس ، قسيس " كما في قول " الجلياني " :

ازاءه زعماءُ الساحلين معاً  
يتلوهم صلبوتُ سيوكٍ منتكساً  
مصقدين بحبلِ القهر قد أسروا  
وحوله كل قسيسٍ له زبر (٥)

- 
- (١) ديوان أسامة بن منقذ ، ص ٢٠١ .  
(٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .  
(٣) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .  
(٤) الخريدة ، ج ١ ، ص ٤١١ .  
(٥) الروضتين ، ج ٢ ، ص ١١٧ .

يضاف الى ما سبق تعمّد بعض الشعراء اختيار ألفاظ لها دور شكلي مع ألفاظ البيت الأخرى . كأن تنظم قصيدة لا تخلو كلماتها من حرف السين ، أو أن تكون حروفها منجمة أو مهملة . لكن هذه الظاهرة نجدها في الموضوعات الشعرية الأخرى بشكل ملفت للنظر أكثر من القديسيات . ومع ذلك فنجد بعض هذا الاهتمام في أبيات معدودة ، كقول " العماد الأصفهاني " :

واهدِ الى الأستبارِ البتسا      روهّد السقوفَ على الأسقف (١)  
وقوله أيضا :

ولا تدعُ منهم نفساً ولا نفساً      فانهم يأخذون النفس والنفسا (٢)  
فكان تركيز الشاعر على الحرف " سين " أكثر من تركيزه على المعنى نفسه ، فصار شكل الكلمة مؤدياً للبحث عن كلمة متجانسة معها .

وانظر الى حرف " القاف " في قول " ابن سناء الطلك " :

حبيبةً هذا القلبِ من قبلِ خلقه      يحبك قلبي قبلَ خلقك من قلبي (٣)

وانظر الى هذا التلاعب اللفظي في قول " ابن سناء الطلك " :

وأنت الذي هذبتم فتهذبوا      وأنت الذي فؤمتم ففتهموا  
وأنهم يومَ الونى بك أقدموا      وأعداؤهم يومَ الونى بك أحجموا  
ضربت بهم قوماً نياماً جهالةً      فلا نائم الا وأيقأه الدّم (٤)

ونكتفي بالأمثلة السابقة على القضايا الفنية التي تميز شعر القديسيات . ولكن لا بد قبل أن نختم حديثنا عن هذه الخصائص ، أن نتناول قضية البديع والزخرفات اللفظية بعامة ، والعوامل التي تضافرت لشيوع هذه الظاهرة .

شاعت فكرة عند النقاد المتعصبين للقديم . أن القدماء لم يتركوا معنى الا طرقيه (١) . ومعنى هذا أن المعاني كلها قد استنفذت ، ولم يبق للمحدثين الا أن يصوغوا المعاني القديمة بطرق جديدة . وعملية الصياغة هذه تكون بتناول المعاني بصيغ تعبيرية مختلفة ، تحتوى على التشابيه والاستعارات وأنواع البديع .

وسبب تناول هذه القضية هو موقف النقاد من قضية " القديم والجديد " ، حتى وجدنا أناساً متعصبين للقديم مثل " ابن سلام الجصحي " (٢) ، وأناساً للمحدثين مثل " ابن المعتز " (٣) ، وآخرين لم يعتمدوا القدم أو الحداثة مقياساً للمفاضلة (٤) .

- (١) انظر : ابن طباطبا ، عيار الشعر ، ص ٨-٩ . العمدة ، ج ١ ، ص ٧٤ .  
(٢) ان تعصبه للقديم واضح من خلال طبقاته الذي لم يشرفه الى المحدثين .  
(٣) وذلك من خلال كتابه طبقات الشعراء الذي تركز حول المحدثين .  
(٤) مثل ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، انظر كتابه ص ١٠-١١ .

ومن العوامل التي ساعدت على الاتجاه اللغوي أيضاً، توظيف الكتاب في الدواوين . إذ أن المسؤول في النيان كان ينظر إلى المهارة البلاغية والقدرة في النواحي اللفظية حتى يمايز بين كاتب وآخر . فتسابق الكتاب في هذا المجال ، ليظهر كل واحد سعة محفوظه من مفردات اللغة ، وذلك عن طريق إيراد الألفاظ المتشابهة في المعاني والمختلفة في الحروف ، أو الألفاظ المتشابهة في جروفها والمختلفة في معانيها ، وغير ذلك من القضايا الشكلية التي أشرنا إليها .

وتخلف في البال طريقة " القاضي الفاضل " الخاصة في الكتابة ، الذي جنح إلى اللفظية جنوحاً واسعاً ، انعكس على الكتاب والشعراء . كما أننا نذكر مقامات الحمذاني والحريري في هذا الشأن ، وأغراقهما الأهتمام بالمحسنات البديعية ، والتصنع في اختيار الألفاظ معينة ، بهدف إظهار قدراتهم الخاصة .

ولعل اختلاط العرب بالأعاجم ، وبخاصة العناصر الفارسية باديء الأمر كان له أثر كبير على هذا الاتجاه الشكلي . ونعلم مدى اعتناء الفرس بالشكل في عمرانهم وأدوات زينتهم ومأكلهم وغير ذلك مما انعكس على كتاباتهم وأشعارهم ، فأثرت طريقتهم العامة هذه في الكتابة العربية والشعر العربي .

وقد يلجأ الأدباء إلى الأهتمام بالشكل ، في الفترات التي يحرم عليهم التعبير عن القضايا الفكرية التي يعيشونها . بمعنى أن التسلط السياسي والقهر الفكري يمكن أن يكون عاملاً يجعل الأدباء يتحدون نحو القضايا الشكلية ، على اعتبار أنهم ممنوعون من معالجة القضايا الفكرية العامة التي تعانيتها الأمة . وإذا سلمنا بصحة هذه الفرضية ، فهي لا تنطبق على الفترة التي نحن بصدد ها ، بقدر ما تنطبق على فترات سابقة ، ثم ورث أدباء هذه الفترة مثل هذا الاتجاه .

يمكن أن تكون هذه العوامل مجتمعة ، من الدواعي التي تجعل الشعراء يتجهون إلى الشكل . وعندما تصبح هذه الطريقة سائدة ويقبلها الذوق العام ، تصبح عمليات الإنتاج الأدبي على غير هذا النبع أعمالاً شاذة . لأن موضة العصر ، والطريقة التي يقبل على أساسها الإنتاج الأدبي أو يرفض ، قد تتحكم في كثير من الأدباء . وقد يصل الأمر إلى أن يكون بعضهم مضطراً إلى هذا الأسلوب ، وذلك ليلاقى شعرهم رواجاً وقبولاً ، مما يوقع في التصنع والتكلف ، ويصبح همه ابتكار صور وفنون بديعية لم يأت بها أحد قبله .

والذي نلاحظه في القديسيات أن الشعراء رغم اهتمامهم بالجانب الشكلي ، إلا أن ذلك لم يكن على حساب القضايا الفكرية التي يعالجونها . فقد التزموا بالقضايا التي تشغل المسلمين ، واهتموا بالأحداث الكبرى الدائرة بين المسلمين والصليبيين . فجمعوا بين الفكر السليم والأسلوب الفني الرفيع .

## خاتمة

تعرضت "القدس" لغزوات كثيرة عبر التاريخ . ولعل أبشع غزوين ، الغزو الصليبي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة للهجرة ، والغزو الصهيوني في مطلع عتدا القرن . وقد ادعى كل من الصليبيين والصهاينة حقم التاريخي في المدينة المقدسة . لكن المصادر الدينية والتاريخية تؤكد عروبة "القدس" وبطلان مزاعم الغزاة . ويشهد التاريخ أن وضع "القدس" الطبيعي كان في ظل الدولة الإسلامية .

ومن خلال تلمسنا الأوضاع العامة لبلاد الشام في فترة الحروب الصليبية ، أدركنا الوضع غير الطبيعي الذي نتج عن الاحتلال . وأيقنا أيضا ، أن أمة تخوض حربا طويلة ضد المحتلين ، ثم تشهد ذلك الحشد الضخم من العلماء والمفكرين والأدباء ، وتبقى محتفظة بثقافتها الإسلامية وبطابعها المميز لها ، لا يمكن أن يوسم عصرها بالجمود والانحطاط .

وفي ظل تلك الأوضاع ، كان شعراء القدس ملتزمين بقضية الأمة الإسلامية ، قضية الاحتلال الصليبي لبيت المقدس ، والسبل الكفيلة بتحقيق النصر . وكان من مظاهر ذلك الألتزام ، تعبيرهم الصادق عن مشاعر الأمة العدائية تجاه المحتلين ، وتجاوزهم حدود البكاء الى الحث المتواصل على المواجهة ، وذلك بوسائل الأثارة المتعددة ، كالدين والوطن والمرأة . ثم اتخذهم الجهاد طريقا لتحقيق النصر .

ان شحنات الحماس القوية التي يمكن أحداثها من خلال الحث الشمري ، قد لا تكون كافية لتحقيق النتائج المتوخاة . من هنا كانت دعوة الشعراء المستمرة الى الوحدة الإسلامية التي تؤدي الى القوة . فابتهجوا بالقضاء على الفاطميين ، وبتوحيد مصر والشام تحت لواء الإسلام . كما هتفوا للأندلس تحت سلطة الخليفة العباسي ، ان هو رمز للوحدة والألتفاف حول سلطة واحدة . ثم كان ذمهم المفسدين ومسبي الفتن والقلقل أمثال "شاوور وضرغام" ، دليلا على وعيهم بضرورة التجمع والألتفاف حول قيادة ريادة واحدة ، وبخاصة أن "صلاح الدين" مؤمن بالفكر الذي تؤمن به الأمة الإسلامية ، كما كان بعمدا جديدا "لعماد الدين زنكي ونور الدين محمود" .



ومن خلال الرؤية الإسلامية الواضحة لمخاطر الغزو الصليبي الاستيطاني ، كان الشعراء ينطلقون في كل ما يصدر عنهم من أشعار قدسية • فربطوا بين "القدس" والدين ، إذ أنها الأرض التي بارك الله فيها ، ومنها عرج الرسول الكريم عليه السلام إلى السموات العلى ، ومسجدها الأقصى وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين • ولم يدغدغ الشعراء عواطف أمتهم وأبطالهم بعد كل نصر ، إذ كانوا مدركين أن النصر الحقيقي لا يكون بتحريك بعض الحصون ودك بعضها الآخر ، طالما أن المدوجائم على الأرض المقدسة • من هذا المنطلق ، وأصل الشعراء تذكيرهم المجاهدين "بالقدس" في كل مدحة وتمنئة •

وقد أدى الشسر دوراً إعلامياً على أحسن ما يكون الأداء •  
 فبالإضافة إلى تمجيد الشعراء للأبطال واستمزازهم بالصليبيين ، كانوا يسارون إلى التخفيف من وقع انتصار الأعداء على المسلمين • وفي ذلك رفع للمعنويات الأسامية ، ومحاولة للتحقير من مكاسب الأعداء • وعلمية لفت الأنظار إلى الانتصارات الإسلامية الكثيرة ، والتقليل من شأن الهزيمة مؤمنة في تشجيع المجاهدين ، بقدر ما هي مهمة في الحفاظ على معنويات الأمة • فأدوا بذلك دور أجهزة الإعلام وأقسام التوجيه المعنوي في الوقت الحاضر •

ان هذا الدور الوظيفي الذي أداه شعراء القديت ، يتضح أيضا في رصدهم الأحداث التاريخية ، ومتابعتهم مراحل الحرب ، وتسجيلهم البطولات الإسلامية والهزائم الصليبية • وبما كان القارىء أن يتبين معظم المعارك والأحداث الكبرى من هذه الأشعار القدسية • وكان تسجيلهم بطريقة فنية تفاير طريقة المؤرخ • فلو أنوا الأحداث بعوا لفهم الخاصة ، وتجاوزوا حدود النقل الموضوعي لأخبار المعارك وجوانب القتال • كما أن هذه المتابعة كانت على مستويين : القتال الجارى بين المسلمين والصليبيين ، والأحداث الداخلية الكبرى التي لها أثر على قضية الأمة ، كخلاف "شاوور وضرغام" ، وتوحيد مصر والشام ، وراثاء الأبطال الذين كانت تعقد عليهم الآمال بالنصر •

ولاحظنا أن تناول الشعراء للمعارك في المرحلة الأولى ، كان بشكل مسوجز وسريع • فالقصيدة قد لا تتضمن اسم المدينة التي تم تحريرها ، بل تتوالى أبياتها بالثناء على الأبطال والمجاهدين ، إذ كانوا أكثر أهمية من المعركة نفسها • وقد يكون هذا متعلقا بنفسية الأمة التي عانت من ويلات التشتت والغزو ، فاستبشرت ببروز القادة الذين عقدت عليهم الآمال • كما أن الانتصارات الأولى لم تكن هدفا في حد ذاتها ، بل خطوات نحو النصر الكبير وتحرير "القدس" •

من هنا كانت وقفة الشعراء الطويلة عند مسرحتي "حطين والقدس" . فوصفوا المجاهدين وبطولاتهم ، وأدوات القتال وأجواء الحرب ، والجيش المتحصرة والمدبرة ، وجثث القتلى وذل الأسرى وعلو الدين وخذلان الصليبيين . كل ذلك في قصائد طويلة اقتضت على هذه الموضوعات ، فاستمت بالوحدة الموضوعية ، رغم تشابك الأفكار وتكرارها في القصيدة الواحدة .

وقد حرصنا في تناولنا الخصائص الفنية التي تميز هذه الأشعار ، أن نحدد مظاهر التقليد والتجديد في الصور الفنية والأنواع البديعية . ووضح أن هناك فروقا بين الشعراء في هذا الاهتمام الشكلي ، لكنها دللت على حرص شعراء القديسيات بشكل عام على الأتيان بجديد في المعاني والصور وأنواع البديع .

وتعمقنا ظاهرة الأتباعية التي سبقنا إليها الدكتور "محمود إبراهيم" ، وحاولنا تفسيرها بما يتلاءم مع منطلق الشاعر الملتزم بقضايا أمته ، والذي لا يعيش على مستويين من التعبير في حياته ، مستوى الأفكار والمعاني ، ومستوى الشكل الفني لهذه المضامين . فكانت هذه النزعة من مظاهر التحدي والصمود الحضاري أمام محاولات التذويب والأندثار .

ولعل شكل القديسيات بعمامة ، مؤشرا كبيرا إلى أن الشعراء كانوا واعين على طرق تبسيطهم وتعهدهم مطالع معينة بوجلا شعرية موروثية ، وآيات قرآنية خاصة وغير ذلك من أساليب الاهتمام بالثقافة الموروثية والدين الإسلامي . وكل ذلك يجعلنا نقول : أن شعراء القديسيات جمعوا بين الفكر الملتزم البناء ، وبين الأداء الفني الجميل . فكانوا عين الأمة الباكية الساهرة ، وعقلها الموجه المخطط ، وقلبها المؤمن النابض ، واعلامها المشجع المحرض ، وجسرهما إلى الماضي والمستقبل .

فجرى بنا ونحن نعيش ظروفنا مسانلة ، أن نعني واقعا ونذكر أخطار المحتلين ، ثم نلتزم المبدأ الذي يوحد الصفوف ويجمع الطاقات ، وتتخذ الجهاد الإسلامي سبيلا لتحرير المقدسات . وجرى بالشعراء أن يتفهموا الواجب الملحق عليهم ، والمنهج المتكامل الذي ينطلقون منه ، والمسوق الصحيح الذي يتخذونه . فتتضافر الجهود كلها في خطط سير واحد ، وتحقق الوسائل الموقدية إلى النصر .

الفهرس

- ١- أعلام الأشغاص.
- ٢- أعلام البلدان والمناطق الجغرافية .
- ٣- المصادر والمراجع .
- ٤- المحتويات .

## أعلام الأشخاص

البابا أوربانوس ٦٩٦٤٢	أ
ابن اياس ٥٤	ابراهيم نصر ٩٧
ب	الابيوردى ٢٢٦٥١١٥٥١١٤
بادويل ٢٥٣٥٢٠٨٥١٠٧	ابن الأثير "جمال الدين" ٥١٨٨٥١٨١
باليان ١٣١٥٣٦	٥١٩٦٥١٩٥٥١٩٣٥١٩١٥١٨٩
برتقش ٢٢	٥٢٠٤٥٢٠٣٥٢٠٢٥٢٠٠٥١٩٩
بركياروق ١٩٥١٨	٢٢٦٥٢٠٩٥٢٠٨٥٢٠٧٥٢٠٦
البرنس "ملك الكرك" ٥١٤٣٥١٤٢٥٣٥	ابن الأثير "ضياء الدين" ٥٥٥٢٢٥١٥
٢٢٥٥٢٢٢٥٢١٠٥١٦٤٥١٥١٥١٤٧	٨٩٥١٨٨٥٦٥٥٥٧٥٤٣٥٤٢٥٢٦
البرنس "ملك أنطاكية" ٥١٢٣٥١٠٣٥٢٤	٢٠٤٥١٩٥٥١٩٣٥١٩١
١٩٥١٩٨٥١٩٦٥١٩٥	أحمد أحمد بدوى ٦٥
البياسيرى ١٦	أحمد بيلى ٤٢
بطرس البستاني ٣٢	أحمد سوسة ١٥٢٥٥
ابن البطريق ٦٥	أحمد عبد الغفور عطار ٢٥١
بلدوين ١٨٥١٠	أحمد كمال الدين حليمي ١٦
البلادارى ٩٥٧٥	آرميا ٦٥
البندارى ٥١٦٠٥٨٩٥٨٨٥٤٩٥٤٤٥٣٣	أرناباطا "أمير الكرك" ٣٤
٢١٠٥٢٠٩٥٢٠٨٥٢٠٧٥٢٠٤	أسامة بن منقذ ٥٣٥٥٢٥٤٧٥٤٦٥٤٣٥٤٣
بهاء الدين عيال ٥٨	١٥٤٥٩٧٥٨٦٥٧٦٥٦٥٦٢٥٥٦٥٤
ت	٢٥١٥٢٠٢٥٢٠١٥٢٠٠٥١٦٤٥١٥٦
تاج الدين الكندى ٩٦	اسحق موسى الحسيني ٢٥١
تاج الطوك بورى ٧١٥١٩	أسد الدين شيركوه ٩٥٢٨٥٢٧٥٢٦٥١٩
تتش بن ألب أرسلان ١٩٥١٨٥١٤	٥٢٠٥٥٢٠٤٥١٢٦٥٨٩
ابن التماويزى ٢٠٨	أسد الدين شيركوه الصغير ١٨١٥٣٨
ابن تغرى بردى ٥١٥٥١٤٥١٢٥١١٥١٠	ابن أسعد الموصلي ٢١٠
٥٣٩٥٣٧٥٣٤٥٢٧٥٢٢٥١٨٥١٧٥١٦	الأسكندر ١٥٤٥١٥٣٥٦
٥٩٣٥٩٠٥٨٨٥٧٧٥٧٠٥٥١٥٥٠٥٤٠	الأشرف موسى "صاحب ميافارقين والبلاذ
٥١١٩٥١١٨٥١١٧٥١١٣٥١٠٨٥٩٧	الجزيرة" ١٨١٥٦٠٤٤٠٥٣٩
٥١٧٤٥١٦٨٥١٦٧٥١٥٨٥١٣٢٥١٣١	الاعشى ٢
١٨٠٥١٧٩٥١٧٨٥١٧٦	افتخار الدولة الفاطمي ١٠
تقي الدين عمر ٥٩	الأفضل "علي بن صلاح الدين" ٥١٧٦
أبوتصام ٢٤٧٥٢٤٤٥٢٤١٥٢٣٩٥٢٣٨	١٨١٥١٧٧
تيطوس ٦	آسنقر "قسيم الدولة" ٤٢٥٢٠٥١٩
ابن تيمية ٦٤	ألب أرسلان ٤٢
	اليغافى ١٤٥١٠



سلامة بن قيصر ٩  
 سلجوق بن دقاق ١٤  
 سليمان "النبي عليه السلام" ١٤٠  
 سليمان بن قنموش ١٤٠ ١٥  
 ابن سناء الملك ١٠٧٤١٧  
 ١٦٢٥ ١٥٥٤ ١٤٧٥ ١٤٦٥ ١٣٥  
 ٢١٠ ٥٢٠ ٨٥١٧ ٥١٧ ٤٥ ١٦٥  
 ٢٣٦ ٤٢٣ ٢٤٢ ١٥٢ ٢٢٧ ٥٢٢٥  
 ٢٤٤ ٤٤٢ ٤١٥ ٢٤٠ ٥٢٣ ٩٤ ٢٣٧  
 ٢٥٥ ٤٢٥ ٣٤٢ ٤١٥ ٢٤٥  
 سنجار ٥٨ ١٥٣  
 سيف الدولة الحمداني ٢٤٤٣ ٢٤٤٥  
 ٢٤٧  
 سيف الدين غازي ٢٢ ٢٣

الشاتاني "علم الدين" ١٦٠  
 شاذى "والد الملوك الأيوبيين" ١٩  
 شارر ٢٠٥٤٠٤٤٩٨٥٢٧  
 ابن شداد ١٩ ٥٢٣٤٢٢٤١٩  
 ٥٢٤٥ ١٥٤٧ ٤٤٤٤ ٤٢٧ ٥٣٥ ٤٣٣  
 ١٠٥٨ ٩٤٦ ٧٤٦ ٥٥٩ ٥٥٦ ٥٥٤  
 ٢٠٧ ٤١٧ ٤١٦ ٧٤ ١٥ ٦٤ ١١  
 ٢١١

شرف الدين برغش ٢٧  
 شرف الدين بن أبي عصرون "قاضي دمشق" ٥٨ ٤٩  
 شرف الدين "صاحب بانياص" ٣١  
 شمس الدين بن المقدم "أمير عساكر دمشق" ٣١

ص  
 الصالح اسماعيل ١٩ ٤٠ ٤٣٢ ٤٣١  
 ١٨٥ ٦٩١ ٤٤٥  
 الصالح طلائع بن رزيك ٧٦ ٨٥ ٧٨ ٤٧ ٤٠  
 ٢٣ ٨٥ ٢٠ ٣٤ ٢٠ ٢٤ ١٥ ٤٤ ١٣ ٩٤ ٩٧ ٤٨ ٦

ر

الرعي "عماد الدين أبو عبد الله محمد بن عباس" ٦١  
 ابن رشد ٦٦  
 الرشيد بن بدر النابلسي ١٣٤ ١٣٦ ٤١٣  
 ٤٢٢ ٦٤٢ ١٤٥ ١٦٤ ٤١٦ ١٤٥ ١٥٦ ٤١٥ ٣  
 ٢٥٠ ٤٢٤ ٩٤ ٢٣٢ ٤٢٣٢  
 رضوان بن تتش ١٨ ٥٥  
 رمضان بن ششبن ٢ ٣١  
 رموند "قائد الحملة الصليبية التي احتلت القدس" ١٠

ز

الزوخشري ٦٥  
 زمرد خاتون "زوج تاج الملوك بوري" ٦٠  
 زكي الدين بن أبي الأصم ٢٢٩  
 زكي الدين بن رواحة الحموي ٦١  
 زين الدين "أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا" ٣١

س

ابن الساعاتي ٥٧٩ ٠٤٧٩ ١٣٣ ٤٨ ١٣٧ ٤١٣ ٨٤  
 ٤٢٣ ٠٤٢٢ ٥٤٢ ١١ ٤٢ ٠٩ ٤١ ٦٢ ٤١ ٥٧  
 ٢٥٣ ٤٢٥ ٢٤٢ ٥٠ ٤٢٤ ١٤ ٢٣ ٥٤ ٢٣١  
 سالم بن مالك العقيلي ١٥  
 سام بن نوح ٢  
 سبط بن الجوزي ٦٤ ٤٦٤  
 السبكي ٦٤ ٤٦٣ ٤٦٠ ٤٤٥  
 ستيفن رنسيان ٤١٠ ٤٢٣ ٤٢٨ ٤٢٤ ٦٩٤  
 ٢٠ ٦٤ ١٩٣ ٤١ ٤٨  
 السخاوي ٦٥ ٤٤٥  
 سعادة الأعصى ٦٥٩٢ ١٠ ٦٤ ١٠ ٦٤ ٢٠ ٩٤٠  
 ٢٥٤ ٤٢٥ ٣٤ ٢٣ ٦٤ ٢٣٢ ٤٢٣ ٠  
 ابن سعدان الحلبي ١١١ ٢٠ ٦٤  
 سقمان ١٤ ٤١٠  
 ابن سلام الجمحي ٢٥٥

ع

الملك العادل " سيف الدين محمد " ١٨٣٥٧٢٥٥٩٥٤٧٥٣٩٥٣٨٥٣٧٥٣٦  
١٨١٥١٣١

العاقد الفاطمي ٥٣٠٥٢٩٥٢٨٥١٢  
٩٤٥٧٤٥٧٣٥٤٣٥٣٢

عبد الرحمن بن عوف ٧  
عبد العزيز الأهواني ١٤٧  
عبد الصمد ٣٠

عبد القاهر الجرجاني ٢٢٩٥٢١٩٥٦٥  
ابن عبد القوى ٣٠

عبد الله الجبوري ١١٠  
عبد الملك بن مروان ٩  
ابن العبري ٢

أبو عبيدة بن الجراح ١٥٧٥٩٥٦  
ابن العديم ٦٤  
عرقلة الكلبي ٢٠٥٥٩٤

عز الدين بن عبد السلام ٦٤٥٤٥  
الملك العزيز عثمان ١٨١٥١٧٥١٧٤  
ابن عساكر الدمشقي ٥١٢٧٥٦٦٥٦٤  
١٦٠

العسكري " أبو هلال " ٢٢٩٥٢١٩٥٦٥  
عصمت الدين " بنت الأمير معين الدين أنر " ٦٠

علقمة بن مجزر ٩  
علي الجاوي ٦٥  
علي بن أبي طالب ٢٥٧

العماد الأصفهاني " الكاتب " ٥٣٥٥٣٤  
٥٧٤٥٧١٥٧٠٥٦٦٥٤٩٥٤٤٥٤٣٥٣٦  
٥٩٤٥٩٤٥٩٠٥٨٩٥٨٧٥٨٤٥٨٢  
١٢٤٥١٢٢٥١٠٥٥١٠٣٥١٠٥٤٥٤٧  
٥١٤٠٥١٣٨٥١٣٣٥١٣١٥١٢٨٥١٢٦  
٥١٥٦٥١٥٥٥١٤٩٥١٤٥٥١٤٣٥١٤٢  
٥١٩٠٥١٧٧٥١٦٨٥١٦٤٥١٦١٥١٥٩

الصالح نجم الدين أيوب ٥١٨٥٥٤٥  
٢١٦

صالح بن مرداس ١٥  
الصفدي ١٣٢٥١٤  
صفرونيوس ٧

صلاح الدين الأيوبي ٥٣٠٥٢٩٥٢٨٥١٢  
٥٤٣٥٣٩٥٣٧٥٣٦٥٣٥٣٤٥٣٣٥٣٢

٥٨٠٥٧٩٥٧٨٥٧٧٥٤٩٥٤٨٥٤٧٥٤٤  
٥١٢٨٥١١٢٥١١١٥١٠٧٥١٠٥٥٩٠

٥١٤٣٥١٤٠٥١٣٥٥١٣٥٥١٣١٥١٢٩  
٥١٥٥٥١٥٤٥١٥٣٥١٥١٥١٤٩٥١٤٧  
٥١٦١٥١٦٠٥١٥٩٥١٥٨٥١٥٧٥١٥٦  
٥١٧٢٥١٧١٥١٧٠٥١٦٩٥١٦٨٥١٦٧  
٥١٨٠٥١٧٩٥١٧٨٥١٧٧٥١٧٤٥١٧٣  
٥٢٠٦٥٢٠٥٥٢٠٤٥١٨٦٥١٨٤٥١٨٢  
٥٢١٥٥٢١٤٥٢١٣٥٢١٢٥٢١١٥٢١٠  
٥٢٣٣٥٢٣١٥٢٣٠٥٢٢٦٥٢٢٥٥٢٢٣  
٥٢٤٩٥٢٤٧٥٢٤٥٥٢٤٤٥٢٤٣٥٢٣٦  
٢٥٢٥٢٥١

صلاح الدين الباغسياني ٥٢

ض

ضرغام ٩٨ ٥٢٧

ط

ابن طباطبا ٢٥٥ ٥٢٤٦

الطبري ٩٥٨٥٧٥٦٥٥٥٣

طفنكين أتابك ٥٥ ٥٢٦٥١٧

طغرل بك السلجوقي ١٦

طه باقر ٢

ابن أبي طي ٦٦

ظ

الملك الظاهر " غياث الدين غازي " ٥١١

١٨١٥١٧٧٥٥٩٥٣٨٥٣٧

القاضي الفاضل ٢٥٦٥٦٧٥٤٩٥٤٥٤١  
 ابن قتيبة ٢٥٥  
 ابن قدامة ٦٤  
 القرويني ٢١٩  
 قسطنطين ٨  
 ابن قسيم الحموي ١٠٠٠٤٨٢٥٧٢  
 ٢٣٨٥٢٣٤٥٢٢١٥١٨٨  
 القفطي ١٠٨  
 ابن القلانسي ١٨٥١٧٥١٦٥١٥٤١٤  
 ٥٥٥٥٥١٥٥٠٥٤٦٥٤٣٥٤٢٥٢٥٢١  
 ١٩٤٥٨٤٥٧١٥٥٦  
 القلقشندي ٧٧٦٦٣  
 القيرواني "ابن رشيق" ٢٣٤٥٢٢٩  
 ابن القيسراني ٥٧٢٥٧١٥٦٧٥٦١  
 ٥١٠١٥٩٩٥٨٥٨٤٥٨٣٥٨١٥٧٥٥٧٤  
 ٥١٨٨٥١٢٤٥١٢٣٥١٢٢٥١٠٣٥١٠٢  
 ٥٢٢٥٥٢٢٤٥٢٢٣٥١٩٧٥١٩٥١٩٠  
 ٥٢٤١٥٢٣٩٥٢٣٨٥٢٣٥٢٣٤٥٢٣٢  
 ٢٤٣

ك

كافور الأخشيدى ٩٤  
 الملك الكامل محمد "صاحب مصر" ٥٣٩  
 ١٨٢٥١٧٦٥١٧٥٥٤٠  
 الكتبي "ابن شاکر" ٦٥  
 ابن كثير ٥٨ ٥٤٣٥٣٠ ٥٤٣٥٣٠ ٥٤٣٥٣٠  
 ١٣٣٥١٣٢٥١٢٧٥١٠٨٥٩٦٥٦٥  
 كرد علي ٦٧٥٦٤٥٦٠٥٥٠  
 كتب الأحبار ٣  
 كمال الدين الشهرزوري ٥٤٥٥٣٢٥٣١  
 ٨٣٥٧٥٥٦٤٥٤٩٥٤٨  
 الكند ٢٥٣٥٢١٢٥٢٠٨٥١٤٨٥١٠٧  
 كنعان ٤  
 كورش ٦  
 كونراد الثالث "ملك الألمان" ١٩٣٥٢٣

العماد الأصفهاني ٥٢٠٦٥٢٠٥ ٥٢٠٤  
 ٥٢٢٢٥٢٢١٥٢١٣٥٢١٢٥٢١١٥٢٠٨  
 ٥٢٣٤٥٢٣١٥٢٣٠٥٢٢٧٥٢٢٤٥٢٢٣  
 ٢٥٥٥٢٥٣٥٢٥٢٥٢٥٠٥٢٣٩٥٢٣٧  
 ابن العماد الحنبلي ٥٧٠٥٤٩٥٢١٥٧  
 ١٨٤٥١٢٧٥١١٤٥٧٩٥٧٣  
 عماد الدين زنكي ٥٩٩٥٨٩٥٨٣٥٨٢٥٨١  
 ٥١٨٩٥١٨٨٥١٢٤٥١٢٢٥١٠٢٥١٠١  
 ٢٤٧٥٢٠١٥٢٠٠٥١٩١١  
 عمارة اليمني ٢٤٣٥٢٠٦٥٩٦٥٧٧٥٣٠  
 عمر بن الخطاب ٥٨٥٥٧٢٥٨٥٧٥٦٥٣  
 ١٥٧٥١٣٨  
 عمر بن علي البذخ ٦١  
 عمر موسى باشا ٥٤٦٤٩٥٤٥٥٣٠  
 عمرو بن العاص ٧  
 العويرس ٣٠  
 عيسى "النبي عليه السلام" ٥١٦٢٥١٠١  
 ٢٤٣٥١٨٩٥١٨٥٥١٧٦

ف

فاروق جرار ٧١٥٦١  
 فتیان الشاغوري ٥١٣٦٥١٠٦٥١٠٥  
 ٥٢٠٦٥١٦٣٥١٥٣٥١٤٥٥١٤٤٥١٤٣  
 ٥٢٤٠٥٢٣٦٥٢٢٨٥٢٢٤٥٢٢٢٥٢٢١  
 ٢٥٠٥٢٤٨٥٢٤٤٥٢٤٢  
 أبو الفداء ٦٦٥٨٥٧٥٦  
 أبو فراس الحمداني ٥٢٤١٥٢٤٠٥٢٣٨  
 ٢٤٧٥٢٤٤٥٢٤٣٥٢٤٢  
 ابن الفراهي ٢٣١٥٩١  
 الفرزدق ٧٣  
 فرعون "الملك" ٩٤  
 الفقيه الفندلاوي المالكي ١٩٤  
 ابن الفنش ٢٥٤٥٢٥٣  
 فيليب حتى ١٥٤



ل

لويس السابع " ملك فرنسا " ١٩٣٥٢٣

م

ابن مالك ٦٥  
المأمون ٩

مالك بن سالم " صاحب قلعة جعبر " ٥٤  
المتنبي ٢٤٣٨ ٠٤٢٤٠ ١٥٢٤ ٠٢٤٣٥٢٤  
٢٤٥ ٢٤٧٦

ابن الجاور ١٦٠ ١٦١ ١٦٠ ٠١٦١٦١٠ ٠١٨٢٥١٨  
٢٥٣ ٢٥٢ ٢٥٢ ٢١٤

محمد الدين الحنفي ١٧٩

مجير الدين آبق ٢١ ٢٦٥

مجير الدين الحنبلي ٧٥٢ ٠٦٩٥٨٦ ٠٤٠٦٩٥٨٦  
٢١٦٥ ١٨٥٤١

محمد أحمد حلبي ٦٦

محمد بهجت الأثرى ٨٨

محمد " رسول الله عليه السلام " ٥٧٥٦٩

١٨٢٥ ١٧٦٥ ١٧٠٥ ١٥٥٥ ١٤٠٥ ١٣٩

محمد رشيد رضا ٦٥

محمد سيد كيلاني ١٥٨

محمد بن ظفر ٦٤

محمد عبد الله عنان ٥٠

محمد أبو الفضل إبراهيم ٣ ٦٥٥

محمد كامل حسين ٢٥٢

محمد محمد حسين ٢

محمد بن مسعر ٤٦

محمد بن ملك شاه ١٩

محمد هادي الأميني ٨٦

محمود ابراهيم ١٦٦٧ ١٥٦٧ ٢٥٩٥٣٨٥٧

محيي الدين أبو جنامد محمد ٤٩٥٤٨

محيي الدين محمد بن زكي ٤٩

مرشد بن منقذ ٥٤

المروزي " أبو سعد " ٣٤

المستضيء بالله ١٠ ٢١٥١٠ ٩٣

المسعودي ٥٤٢

مسلم العقيلي ١٤ ١٥٥

ابن مطروح ١٨٤ ٠١٨٥ ٢١٦

معاوية بن أبي سفيان ٧

ابن المعتز ٢٢٩ ٢٥٥٥

الملتصم ٥٧٣ ٠٦٨٥ ٢٤٧٥٢٤٤٥٨٥

الملك المصطفى عيسى " صاحب الشام "

١٨٣٥ ١٧٨٥ ٤٧٥٤ ٠٥٣٩ ٥١١

معين الدين أنر ٢١ ٢٦٥٢٣٥٢١

المقدسي " أبو شامة " ١٢٦٩ ٠١٥٥ ١٦١٥٥

١٥١٩ ٠٢٣٥ ٢٢٥٢ ٢٥٢ ٠٤٧٥٤٥ - ٢٥

٠٤٤٨ ٠٥٥٣ ٥٥٦٥ ٥٥٦٠ - ٥٨ ٠٦٥٦٤٦٥٦٠

٠٧١ - ١٦٧٨ - ٨ ٠٨٨٥٨٥ - ٠٦٨٨٥٨٥ - ٩٣٥٩ - ٩٦٦

٠٩٩ - ١٠٥٠ - ١٠٧٥١٠ - ٠٨٥١٠ - ١١٠ - ١١٢

٠١٢٢ - ١٣٣٥ ١٣١٥ ١٢٩ - ١٢٢

٠١٤٣ ٠١٤٤ ٠١٤٤ ٠١٤٤ - ١٤٨٥ ١٥١ - ١٥٣

٠١٥٧ ٠١٥٧ - ١٥٩٥ ١٦٤ - ١٦٨ ٠١٦٧٥١٦٤

٠١٧١ ٠١٧٣ ٠١٧٣ - ١٧٥٥ ١٨٠ - ١٨٢

٠١٨٤ ٠١٨٨ ٠١٨٨ - ١٩٠٥ ١٩٩ - ٢٠٣

٠٢٠٧ - ٢٠٩ ٠٢١٥ ٢٠٩ - ٢١٣ ٠٢٢٠

٠٢٢٣ ٠٢٢٥ ٢٢٦

المقريري ١٣٢ ٥٧٥٩

ملك شاه السلجوقي ١٩

ممدوح حقي ١١٤

المنصور " أبو جعفر " ٩

المنصور " محمد بن تقي الدين " ٣٨ ٣٩٥٣٨

و

ابن واصل ١٤١٤ ٢٣٥٢ ٤٥٢٤ ٢٧٥٦  
 ٢٩ ١٤٣٣ ٢٥٥ ٤٥٥ ٥٧٥٥ ٥٩  
 ٥٦٦٦٥٦٠ ٥٧٥٧٨٥٧٣ ٥٧٠٥٦٦٦٥  
 ٥١٣٣٠ ١٣١٥١١١٥١٠ ٧٥٦٩٤٥٦٣  
 ٥١٦٢٥١٥٦٥١٤٦٥١٣٧٥١٣٥٥١٣٤  
 ٥٢٠٧٥١٩١٥١٨١٥١٧٨٥١٧٤٥١٦٧  
 ٢٢١٥٢١١٥٢٠٩٥٢٠٨  
 الواقدى ٨٥٣  
 وحيش الاسدى ٩٠  
 ياقوت الحموى ١٥٣٥١٥٦٠٥٢٤٥٢٤٥٢٤٥٢٤  
 ٥٩٦٥٦٥٥٣٤٥٣٣٥٢٩٥٢٨٥٢٦٥٢٥  
 ٢٠١٥١٩٧٥١٩٢٥١٦٠٥١١٤  
 يزيد بن ابي سفيان ٩  
 اليسكند ٢٥٣٥٢٠٨٥١٠٧  
 يشوع ٥  
 اليعقوبي ٦  
 ابن يعيش ٦٥  
 بنو يهودا ٥٥١  
 يوسف رسول الله ٢٣٥ ٢٣٦٥  
 اليونيني ٦٤

ابن منظور ٣

ابن منير الطرابلسي ٧٣-٨٥٦٧٦  
 - ١٩٠٥١٢٥٥١٢٢٥١٠٣٥١٠٠  
 ١٩٩٥١٦٨٥١٩٦٥١٩٤٥١٩٢

المهدى ٩

مؤنسة خاتون ٦٠  
 موسى عليه السلام ٤

ن

الناصر داود "سلطان دمشق" ٤٠  
 ٢١٦٥١٨٥٥١٨٤٥١٨١٤٤٥  
 الناصر يوسف بن العزيز ٦٠  
 نبوخذ نصر ٥٥٢  
 النجاشي ٢  
 نجم الدين ايوب بن شاندى ١٩ ٥٢٢٥١٩  
 ٨٩٥٤١  
 النعمي ٥٧-٦٣٥٦١  
 نور الدين علي "الأفضل" ٣٧ ٤٧٥٣٨٥٣٧  
 نور الدين محمود ١٩ ٢٦٥٢٤٥٢٣٥١٩  
 ٣٠٥٢٨-٤٤٦٥٤٥ ٤٤٣٥٤٢٥٣٢  
 ٥١٦٤٨-٥٦٥٥٣-٥٧٣٥٦٧٥٦٠  
 ٥٩٧٥٨٦٥٨٧٥٨٦٥٨٤٥٨٣٥٧٦٥٧٥  
 -١٢٣٥١١٠-١٠٨٥١٠٥-١٠٢  
 - ١٩٥٥١٩٢٥١٩١٥١٣٩٥١٢٦  
 ٥٢٣٥٥٢٠٣٥٢٠١٥٢٠٠٥١٩٨  
 ٢٤٧-٢٣٩  
 النووى "محي الدين" ٦٤ ٥٦٠  
 النيسابورى ٦٤

هـ

هرقل ٣٦ ١٣١٥٣٦  
 الهمداني ٢٥٦  
 هيلانة ٨



شبختان ١٩  
 الشوك ٣٧ ١٨١٤  
 شيزر ١٥ ١٨٥١٥١٥٢٤٤٣٥٠٠٤٣٥٥  
 ١٥٥٦٢٤٦٧٣٥٧٣٥٨٢٠٠٤١٠  
 ١٨٩

ص

صرخد ١٩٨  
 صقد ٣٦  
 صفين ١٥  
 صقلية ٣٠  
 صهيون ٢١٤ ٥٥٢٥١  
 صور ١٧ ٥٣٤٥٨٥١٥٩٥١٨٠٠  
 ١٩٣ ٢١٥ ٥ ٢١٣  
 صيدا ١٧ ٥٣٥٣٩٥٥٥٥٠٠  
 ١٧٧ ٥١٩٣ ٥٢١٥ ٥٢١٥

ط

طبرية ٥٣٤ ٥٤٠ ٥٨٠ ٥٩٧ ٥١٦ ٥١٨١٥١  
 ٢٢٥ ٥ ٢١١  
 طرابلس ١٧ ٥١٨٥١٧ ٥٢٧ ٥٢٤ ٥٣٤ ٥١٢٦٥٧  
 ٢١٣  
 طيبة ١١٥

ع

عدن ١٣٤  
 العراق ١٨ - ٥٢٠ ٥١١٥ ٥١٤٨ ٥١٩٢  
 حصن العريفة ٢٠٠  
 عسقلان ٢٦ ٥٢٩ ٥٣٥ ٥٣٧ ٥٣٧ ٥٧٧  
 ٥٨٥ ٥١١١ ٥١٦٧ ٥٢٠ ٥٢٢ ٥٢١٢  
 عكا ١٧ ٥٣٤ ٥٣٦ ٥٣٩ ٥٣٧ ٥١٧٧  
 ١٨٠ ٥١٩٣ ٥٢٠ ٥٢٢ ٥٢١ ٥٢١٥  
 ابن عكار ١٨  
 عمان ٢  
 عمورية ٧٣  
 عين تاب ٢٥ ١٩٧٥

حيفا ١٧

خ

الخليل ٤٠ ٥٢ ١٨١٥  
 د

دجلة ١٤٨

دريساك ٢١٤  
 دبلوك ٢٥ ١٩٧٥  
 دمشق ١٤ ٥١٥ ٥١٨ ٥٢٠ ٥١٦ ٥٢٢ ٥٢٤  
 ٢٦ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٧ ٥٤٠ ٤٩٥ ٤٣٤  
 ١٥٦ ١٥٦١ ٥٧٣ ٥٨٧ ٥١٢٥  
 ١٨١ ٥١٩ ٥١٩٤ ٥١٨٥  
 دمياط ٢٨ ٥٣٩ ٥١٠ ٥١٧ ٥٢٠  
 دنيسر ٤٧ ٥ ٦١  
 دوين ١٩ ٥٢٢ ٥ ٨٩

ر

الراوندان ٢٥ ١٩٧٥ ٥٢٠ ٥٢٠ ٥٢٠  
 الرحبة ٣٨ ١٩٧٥  
 الرقة ١٥ ٢٢٥  
 الرملة ٣٣ ٥١١ ٥١١ ٥١١ ٥٢٠ ٥٢٠ ٥٢٠  
 الرها ١٠ ٥١٧ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٣٥ ٥٤٧  
 ٥١٩٠ ٥١٢٣ ٥١٢٢ ٥١٠ ٥١٨٣ ٥١٥  
 ١٩١ ٥١٩٢ ٥١٩١

س

سرفود ١٩٨ ٥١٩٨ ٥٢٠  
 سلقين ٢٠٢  
 سنجار ١٩٧  
 السودان ٣٠

ش

الشام ٥٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥٢٠ ٥٢٢  
 ٢٣ ٥٢٧ ٥٢٩ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٧ ٥٣٨  
 ٤٢ ٥٣٥ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢  
 ١٢٥ - ١٢٧ ٥١٣٤ ٥١٩٢ ٥٢٠ ٥٤٠

ل  
اللاذقية ١٩  
٢  
حصن الخاض ٧٩  
مدین ١٦٢  
المدينة المنورة ١٣٧ ١٨٠  
مرج عيون ٣٣ ٢٠٨ ١٠٧ ٧٨ ٧٨  
مرقية ٣٥  
مصر ١٠٥٤ ١٤٣١ ٦٤١٦ ٢٦١ ٢٧٥٢ ٢٩٦٩  
٣٧ ٣٥٣ ٤٤٢ ٤٢٤ ٢٥٤ ٤٢٤ ٦٤٢ ٥٨٩٦ ٥٩٠  
٢٠٤٣ ٢٧٦ ١٢٧٦ ١٢٦٩٥  
معرة النعمان ١٧ ٥١٧ ١٥٢ ١٦٢ ٦٤٢ ٤٨٤٤  
مكة المكرمة ٣٧ ١٣٧ ١٣٨ ١٦١ ١٧ ١٨٠  
٢٢٢  
قلعة مصیاف ٣٠  
منبج ١٩ ٢٨٥ ٢٤٣ ٥٠ ٥٨٨ ١٢٥  
المنصورة ٢١٦  
المنيطرة ١٨ ٦٢  
الموصل ١٤ ١٥١٤ ١٩٥ ٢٢٤ ٢٤٢  
٣٢ ٤٣٤ ٢٤٤ ٥٢ ٨٩  
ميا فارقين ٣٩ ٤٠  
ن  
نابلس ٣٤ ٥٣٤ ٦٤٤ ١٤٢ ١٦٧ ١٨ ١٥  
الناصره ٣١  
نصيبين ٢١  
هـ  
هاب ١٩٨  
ی  
یافا ٢٩ ١٦٧ ٢١٢  
اليمن ٣٧ ٤٣

غ  
غزة ٢٦ ٢٩ ٧٧ ٦٤ ١٠ ٦٤ ٢٠ ٦٥٢ ٦٥٢٠  
٢١٢  
ف  
الفرات ١٩٧  
فلسطين ٢٥١ ٢٦ ٩٤ ١٥٣ ١٩٣  
قلعة فنك ٢٢  
ق  
القادسية ١٣٨  
القاهرة ٣١ ٥٣١ ٤٤٤ ٧٦٤ ٢٠٤  
القدس "بيت المقدس" و اورشليم و  
اورشليم و يبوس و ايليا " " - ٧٥-١٠  
١٢ ١٤٥ ١٥٤ ١٨٥ ١٩٥ ٢٠٥ ٢٢٤ ٢٣٤  
٣٥ ٥٣٧ ٤٠٤ ٤٤٣ ٥٩٥ ٨٩٥ ١١٢  
١١٤ ١١٦ ١٢٠ ١٢٢ ١٢٩  
١٣٠ ١٣٢ ١٣٤ ١٣٦ ١٣٨  
١٤٠ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٢ ١٥٥  
١٥٣ ١٥٨ ١٦١ ١٦٣ ١٦٥  
١٦٧ ١٧١ ١٧٣ ١٧٥ ١٧٧  
١٧٩ ١٨٢ ١٨٥ ١٨٣ ١٨٦  
٢١٣ ٢١٦ ٢٢٢ ٢٢٤ ٢٢٣ ٢٤٢ ٢٤٤  
٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٧  
القسطنطينية ٢٢  
قورص ٢٠١  
قيسارية ١٧ ٣٤٥ ٧١  
ك  
الكرك ٣٤ ٣٥ ٣٧ ٣٨ ٤٠ ٤٥ ٤٥  
٤٢ ١٨ ١٨ ١٠ ٢١ ٢١ ٢٥  
كفر سود ٢٥ ١٩٧  
كفر طاب ٢٠  
كفر لاتا ٢٠ ١٩٧ ١٩٨

## المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم
- ٢- الكتاب المقدس
- ٣- ابراهيم (الدكتور محمود) :  
: صدى الغزو الصليبي في شعرا بن  
القيسراني ، دمشق ١٩٧١ .
- ٤- الأثير (جمال الدين علي بن) :  
: الكامل في التاريخ ، الأجزاء ٢٤١ ،  
١٠٦٩ ، ١٢٤١ ، بيروت ١٩٦٥ .
- ٥- الأثير (ضياء الدين نصر الله بن) :  
: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ،  
مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،  
القاهرة ١٣٥٨ ، ١٩٣٩ .
- ٦- الأصفهاني (العماد الكاتب) :  
: أ- خريدة القصر وجريدة أهل العصر ،  
١- قسم شعراء الشام ، تحقيق :  
الدكتور شكري فيصل ، نشر المجمع  
العلمي العربي بدمشق ، طبع المكتبة  
الهاشمية ، ١٣٧٥ ، ١٩٥٥ .  
٢- قسم شعراء العراق ، تحقيق :  
الدكتور جميل سعيد والأستاذ محمد  
بهجت الأثرى ، نشر المجمع العلمي  
العراقي ، بغداد ١٣٧٥ ، ١٩٥٥ .  
٣- قسم شعراء مصر ، تحقيق : الدكتور  
شوقي ضيف والأستاذ أحمد أمين  
والدكتور احسان عباس ، مطبعة لجنة  
التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة  
١٩٥١ .  
ب- الفتح القسي في الفتح القدسي ،  
تحقيق : محمد محمود صبح ، المطبعة  
الخيرية ، القاهرة ١٩٦٥ .
- ٧- أصيبعة (موفق الدين بن أبي) :  
: عيون الأنبياء في طبقات الأطباء ، ج ٢ ،  
المطبعة الوهبية بالقاهرة ١٣٩٩ ، ١٨٨٢ .
- ٨- الأعشى :  
: ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق :  
محمد محمد حسين ، الإسكندرية  
١٩٥٥ .
- ٩- الأهواني (الدكتور عبد العزيز) :  
: ابن سناء الملك ومشكلة العمق والابتكار  
في الشعر ، مطبعة الأنجلو المصرية ،  
القاهرة ١٩٦٢ .

- ١٠- اياس (أبو البركات محمد بن) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، المطبعة  
الأميرية ، القاهرة ١٣١١ .
- ١١- باقر (الدكتور طه) : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ،  
ج ٢ ط ٢ ، بغداد ١٩٥٥ .
- ١٢- البطريق (ابن) : تاريخ ابن البطريق ، ج ١ ، بيروت ١٩٥٤ .
- ١٣- البغدادي (الخطيب) : تاريخ بغداد ، ج ٩ ، القاهرة ١٩٣١ .
- ١٤- البلاذري : فتوح البلدان ، ج ٢ ، تحقيق : صلاح  
الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ١٥- البنداري : سنا البرق الشامي ، القسم الأول ، -  
تحقيق : رمضان ششن ، ط ١ ، بيروت  
١٩٧١ .
- ١٦- بيلي (الدكتور أحمد) : حياة صلاح الدين الأيوبي ، المطبعة  
الرحمانية ، القاهرة ، ١٣٤٥ .
- ١٧- تغري بردي (جمال الدين يوسف بن) : النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر  
والقاهرة ، الجزء ١ ، ج ٦٥ ، تحقيق : محمد  
عبد القادر حاتم ، مطبعة دار الكتب  
المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ١٨- تمام (حبيب بن أوس أبو) : ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ،  
المجلدان ١ ، ٣ ، تحقيق : محمد عبده  
عزام ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ١٩- جبير (أبو الحسين محمد بن) : رحلة ابن جبير ، ليدن ١٩٠٧ .
- ٢٠- جرار (فاروق) : محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره ،  
عمان ١٩٧٤ .
- ٢١- الجرجاني (عبد القاهر) : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، تحقيق :  
محمد رشيد رضا ، ط ٤ ، دار المنال ،  
القاهرة ١٣٦٧ ، ١٩٤٧ .
- ٢٢- الجزري (ابن الأشير) : تاريخ الدولة الأتابكية ، تحقيق :  
عبد القادر طليعات ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ٢٣- حسن (الدكتور حسن إبراهيم) : أ- تاريخ الإسلام ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٧ .  
ب- تاريخ الدولة الفاطمية ، ط ٣ ،  
القاهرة ١٩٦٤ .
- ٢٤- حسين (الدكتور محمد كامل) : دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ،  
دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٥٧ .
- ٢٥- الحسيني (الدكتور اسحق موسى) : عمرة بيت المقدس ، مركز الأبحاث والدراسات  
الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٩ .

- ٢٦- حلمي (أحمد كمال الدين) : السلاجقة في التاريخ والحضارة ، الكويت ١٩٧٥ .
- ٢٧- الحمداني (أبو فراس) : ديوان أبي فراس الحمداني ، مكتبة الحياة ، بيروت .
- ٢٨- الحموي (ابن حجة) : خزانة الأدب ، ط ١ ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٠٤ .
- ٢٩- الحموي (ياقوت) : أ- معجم الأدباء ، ج ١٩ ، تحقيق : د . س . مرجليوث ، المطبعة الهندية ، القاهرة ١٩٢٥ .
- ب- معجم البلدان ، الأجزاء ١-٥ ، طبع دار صادر ودار بيروت ، السنوات ١٩٥٥-١٩٥٩ على ترتيب الأجزاء .
- ٣٠- الحنبلي (مجير الدين) : الأانس الجليل بفضائل القدس والخليل ، ج ١ ، عمان ١٩٧٣ .
- ٣١- خلدون (عبد الرحمن بن) : تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ، الأجزاء ١ ، ٢ ، ٥ ، بيروت ١٩٧١ .
- ٣٢- خلكان (شمس الدين أحمد بن) : وفيات الأعيان ، الجزء ١ ، ٢ ، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .
- ٣٣- خليفة (حاجي) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، المطبعة البهية ، استنبول ١٣٦٠ .
- ٣٤- الخياط (أحمد بن محمد بن) : ديوان ابن الخياط ، تحقيق : خليل مردم بك ، نشر المجمع العلمي العربي بدمشق ، المطبعة الهاشمية ، ١٣٧٧ ، ١٩٥٨ .
- ٣٥- الدهان (عبد الله بن عيسى بن) : ديوان ابن الدهان ، تحقيق : عبد الله الجبوري ، بغداد ١٩٦٨ .
- ٣٦- رنسيما (ستيفن) : تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء ١ ، ٢ ، ترجمة السيد الباز العريني ، ط ١ ، بيروت ١٩٦٧ .
- ٣٧- الزركلي (خير الدين) : الأعلام ، مطبعة كوتاتوماس وشركاه ، دمشق ١٣٧٣ ، ١٩٥٤ .
- ٣٨- زيدان (جرجي) : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج ١ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ١٩١٤ .



- ٣٩- الساعاتي (بهاء الدين علي بن) : ديوان ابن الساعاتي ، ج ٢ ، تحقيق :  
أنيس المقدسي ، المطبعة الأميركية ،  
بيروت ١٩٣٩ .
- ٤٠- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب ؛  
بن تقي الدين) : طبقات الشافعية الكبرى ، المطبعة  
الحسينية ، القاهرة ١٣٢٤ .
- ٤١- سوسة (الدكتور أحمد) :  
العرب واليهود في التاريخ ، ج ١ ،  
ط ٤ ، دمشق ١٩٧٥ .
- ٤٢- الشاغوري (فتيان بن علي) :  
ديوان فتیان الشاغوري ، ج ٢ ، تحقيق :  
أحمد الجندی ، المطبعة الهاشمية ،  
دمشق ١٩٦٧ .
- ٤٣- شداد (بهاء الدين بن) :  
النوادر السلطانية والمحاسن الهندية ،  
تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة  
١٣٤٦ ، ١٩٦٤ .
- ٤٤- الصفدي (صلاح الدين) :  
أمراء دمشق في الإسلام ، تحقيق :  
صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٥ .
- ٤٥- طباطبا (ابن) :  
عيار الشعر ، المكتبة التجارية ، القاهرة  
١٩٥٦ .
- ٤٦- الطبري  
تاريخ الطبري ، الجزء ١ ، ٣ ، تحقيق :  
محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف  
بمصر ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ٤٧- طلائع (الملك الصالح) :  
ديوان طلائع بن رزيك ، جميع : محمد  
هادي الأميني ، المكتبة الأهلية ، ١٩٦٤ .
- ٤٨- العبري (ابن) :  
تاريخ مختصر الدول ، بيروت ١٨٩٠ .
- ٤٩- عشاكر (علي بن الحسن بن) :  
تاريخ دمشق ، ج ١ ، تحقيق : عبد القادر  
بدران ، دمشق ١٣٢٩ .
- ٥٠- المسكري (أبو هلال) :  
الصناعتين ، تحقيق : علي محمد الجاوي  
ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، دار احياء  
الكتب العربية ، القاهرة ١٣٧١ ، ١٩٥٢ .
- ٥١- عطار (أحمد عبد الغفور) :  
عروة فلسطين والقدس ، بيروت ١٩٧٤ .
- ٥٢- العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن) :  
شذرات الذهب ، مكتبة القدسي ،  
القاهرة ١٣٥٠ .
- ٥٣- عنان (محمد عبد الله) :  
الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ،  
القاهرة ١٩٥٩ .

- ٥٤- الفداء (أبو) : المختصر في أخبار البشر، ج ١ ،  
دار الطباعة العامة ، استنبول ١٢٨٦ .
- ٥٥- القزويني (جلال الدين) : الأيضاح ، تحقيق : عز الدين التنوخي ،  
مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٦٧ ، ١٩٤٨ .
- ٥٦- القفطي : انباه الرواة ، ج ٢ ، تحقيق : محمد أبو  
الفضل ابراهيم ، دار الكتب المصرية ،  
القاهرة ١٩٥٢ .
- ٥٧- القلانسي (ابن) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ .
- ٥٨- القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج ٦ ،  
المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩١٥ .
- ٥٩- القيرواني (ابن رشيقي) : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ،  
ط ٣ ، مطبعة حجازي ، القاهرة ١٩٣٤ .
- ٦٠- الكتبي (ابن شاکر) : فوات الوفيات ، ج ٢ ، القاهرة ١٨٨١ .
- ٦١- كثير (ابن) : البداية والنهاية ، الأجزاء ١٢٤٧ ، ١٣٤٠ ،  
مطبعة السعادة بمصر ، القاهرة ١٣٥٩ .
- ٦٢- كرد علي (محمد) : خطط الشام ، ج ٤ ، المطبعة الحديثة ،  
دمشق ١٣٤٣ ، ١٩٢٥ .
- ٦٣- كيلاني (محمد سيد) : الحروب الصليبية وأثرها في الأدب  
العربي في مصر والشام ، ١٩٤٩ .
- ٦٤- المتنبي (أبو الطيب) : ديوان المتنبي ، وضعه : عبد الرحمن  
البرقوقي ، ط ٢ ، دار الكتاب العربي ،  
بيروت ١٣٥٧ ، ١٩٣٨ .
- ٦٥- الصمودي : مرجع الذهب ، ج ١ ، تدقيق : يوسف  
أسعد داغر ، بيروت ١٩٦٥ .
- ٦٦- مطروح (ابن) : ديوان ابن مطروح ، القسطنطينية ١٢٩٨ .
- ٦٧- المعاضيدي (خاشع) : دولة بني عقيل في الموصل بفداه ١٦٦٨ .
- ٦٨- المعتز (عبد الله بن) : البديع ، مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة  
١٣٦٤ ، ١٩٤٥ .
- ٦٩- المقدسي (أبو شامة) : أ- الروضتين في أخبار الدولتين النورية  
والصلاحية ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق : محمد  
حلمي أحمد ، مطبعة وادي النيل ،  
القاهرة ١٩٦٢ .
- ب- الذيل على الروضتين ، دار الجيل  
بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٤ .

- ٧٠- المقرريزي  
١- السلوك المعروفة دول الملوك ، مطبعة  
دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤ .  
ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط  
والآثار ، ج ٢٤١ ، مطبعة وادي النيل ،  
القاهرة ١٣٢٤ .
- ٧١- الملك ( ابن سناء ) : ديوان ابن سناء الملك ، تحقيق محمد  
عبد الحق ، حيدرآباد الدكن ، ط ١ ،  
الهند ١٣٧٧ ، ١٩٥٨ .
- ٧٢- منظور ( ابن ) : لسان العرب ، ج ٧ ، دار الفكر .
- ٧٣- منقذ ( مؤيد الدولة أسامة بن ) : أ - الاعتبار ، حرره : فيليب حتي ،  
الولايات المتحدة ١٩٣٠ .  
ب - البديع في نقد الشعر ، تحقيق :  
أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ،  
القاهرة ، ١٩٦٠ .  
ج - ديوان أسامة بن منقذ ، تحقيق :  
أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ،  
المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٩٥٣ .
- ٧٤- موسى باشا ( الدكتور عمر ) : أدب الدول المتتابعة ، دار الفكر الحديث ،  
بيروت ١٣٨٦ ، ١٩٦٧ .
- ٧٥- مؤلف مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ،  
ترجمة : حسن حبشي ، دار الفكر السري ،  
١٩٥٨ .
- ٧٦- نصر ( محمد ابراهيم ) : ابن سناء الملك حياته وشعره ، القاهرة  
١٩٦٨ .
- ٧٧- النعمي ( عبد القادر محمد ) : الدارس في تاريخ المدارس ، ج ٢٤١ ،  
تحقيق : جعفر الحسني ، صدر عن المجمع  
العلمي العربي بدمشق ، مطبعة الترقى ،  
١٩٤٨ .
- ٧٨- واصل ( جمال الدين محمد بن ) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ١ - ٤ ،  
تحقيق : جمال الدين الشيال ، المطبعة  
الأميرية ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٥٧ .
- ٧٩- الواقدي : فتح الشام ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ٨٠- اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، بيروت ١٩٦٠ .

### محتويات البحث

تمهيد  
المقدمة

أ- ح  
١٢-١

- ١- أسماء القدس ودلالاتها ٣-١
  - ٢- القدس في العصور القديمة ٦-٤
  - ٣- القدس في ظل الخلافة الإسلامية ٩-٧
  - ٤- الاحتلال الصليبي لبيت المقدس ١٢-١٠
- الفصل الأول : الأوضاع العامة لبلاد الشام في فترة الحروب الصليبية ١٣-٢٧
- ١- معالم الأحداث الكبرى ٤١-١٤
  - ٢- المظاهر الاجتماعية العامة ٥٤-٤٢
  - ٣- الحالة الاقتصادية ٥٧-٥٥
  - ٤- الحالة الثقافية ٦٧-٥٨

الفصل الثاني : طبيعة الصراع ودور الشعر في هذه المرحلة (١٨-١٢٩)

- ١- غزو صليبي وجهاد إسلامي ٨٠-٦٩
- ٢- القوة والوحدة ٩٨-٨١
- ٣- اشادة بالمجاهدين واستهزاء بالصليبيين ٩٩-١١٢

الفصل الثالث : صيدى تحرير القدس في الشعر ١٣٠-١٦٥

- ١- بشائر وتمنان بالتحرير ١٣١-١٤٠
- ٢- وصف القتال ١٥٢-١٤١
- ٣- صورة البطل ١٦٠-١٥٣
- ٤- صورة الصليبيين ١٦٥-١٦١

الفصل الرابع : افتقاد البطل ورثاء القدس

١٨٦-١٦٦

الفصل الخامس : دور الشعر في تسجيل الأحداث التاريخية ١٨٧-٢١٧

٢٥٦-٢١٨

الفصل السادس : الخصائص الفنية لشعر القديسيات

- ٢٢٨-٢١٩
- ٢٣٧-٢٢٩
- ٢٤٧-٢٣٨
- ٢٥٦-٢٤٨

- ١- الصور البيانية
- ٢- الزخارف البديعية
- ٣- الاتباعية
- ٤- هيكل القصائد القدسية

خاتمة  
المبارس

٢٥٩-٢٥٧

٢٧٧-٢٦٠

- ١- أعلام الأشخاص ٢٦٧-٢٦١
- ٢- أعلام البلدان والمناطق الجغرافية ٢٧٠-٢٦٨
- ٣- المصادر والمراجع ٢٧٦-٢٧١
- ٤- محتويات البحث ٢٧٧

Reminiscences of Jerusalem  
in  
The Arabic Poetry of the Crusades

An M.A. Thesis  
Submitted to  
The Department of Arabic  
Faculty of Arts  
University of Jordan

in partial fulfillment of the requirements  
for  
The Degree of Master of Arts in Arabic

by

Naji Abduljabbar Mahmoud Abduljabbar  
under supervision of  
Professor Abdulkarim Khalifah

July 1978  
-----

## English Abstract

This study took as its field all of the Arabic poetry that was composed about Jerusalem during the Crusades, the greater events thereof and the heroes who waged on the Jihad or holy war for liberation of Jerusalem during three consecutive periods:

1. 490-492 A.H. This is when the Crusaders occupied the Holy Land.
2. 493-583 A.H. This is the period of bloody struggle that was crowned with the liberation of Jerusalem.
3. 584-648 A.H. This is the period of great grief for the Muslims because of the death of their hero Salah Addin (Saladdin) and the recapture of Jerusalem by the Crusaders. This period ends with the Ayyoubid era.

The emphasis on Jerusalem in this study entailed that the preface be followed by an introduction that discussed in brief the names of Jerusalem, their significance, the city ancient history, its position under the Muslim caliphate and finally its occupation by the Crusaders.

In addition to that, this study consists in six chapters:

Chapter one deals with the general conditions prevailing in Greater Syria during the Crusades with special attention to greater events, general social phenomena, culture and economy.

Chapter two discusses the nature of the conflict and the role played by Arabic poetry therein. It shows that this conflict was religious and that it purported in the Crusaders invading the Holy Land and in the Muslims waging Jihad or Holy War to repel the Crusaders and liberate the country. This chapter further exposes the functional role played by Arabic poetry in this connection through its call for Muslim Unity and Power, through its praise of Holy Fighters (Mujahideen) and its ridicule of the Crusaders, and through exhortation of Mujahideen to liberate Jerusalem.

Chapter three conveys this study to the second stage in the struggle for Jerusalem, a stage which reached its climax in the liberation of the city; an event which was long reverberated in Arabic poetry thereafter. This chapter included as well poetry that sang the good news and congratulations on the occasions of liberation, gave description of the fighting at the battle of Hittin and in the battles around Jerusalem that culminated in its liberation, and depicted the Muslim hero Saladdin versus the antagonist Crusaders.

Chapter four deals with the third period in which Saladdin dies and Jerusalem falls again in the hands of the Crusaders. We will therefore find in this chapter eulogies lamenting death of the hero, expressing concern over the tremendous vacuum his death occasioned, underlining the importance of his presence for re-establishment of the Nation's unity, and lamenting the miserable conditions Jerusalem was experiencing between occupation and liberation.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Chapter five expounds the important role of poetry as a historical record registering features of the major battles, the names and nature of battle fields, also to what extent the student of this poetry can benefit from the historical information embodied therein about the major events in the struggle between Muslims and Crusaders.

In addition to the numerous art problems tackled in the previous chapters, necessity required assigning a new chapter, chapter six, for discussion of the artistic particulars of this poetry such as the traditional and new artistic pictures, special attention to some verbal decorations and rhetorical improvements, the phenomenon of sticking to the prevailing traditions and the general structural frame of these poems. This study attempted to interpret the dimensions of most of these artistic features in general and the motives behind their appearance in this poetry in particular.

Finally, it remains to be said that this study was rounded off with four appendices; one for proper names, one for geographical sites, one for the bibliography and one for the contents.